نبيل فياض

حكايا الصعود

ميثولوجيا القصص الديني



حكايا الصعود

ميثولوجيا القصص الديني

نبيل فيّاض

الطبعة الأولى: 2020

تصميم الغلاف: كارل بتشفارش

للنشر والتوزيع /ألمانيا - ميونخ

ألمانيا : 004915771203247
بغداد : 009647811898461
Email: Abkallu91@gmail.com

نبيل فيّاض

حكايا الصعود

ميثولوجيا القصص الديني

أبكالو 2020

الفهرس

أشكر كل الذين قدموا لي يد العون لإيصال هذا العمل إلى النور وأخص منهم بالذكر:

الصديق شتيفان دانه الذي أحضر لي مقالة هورفيتس من لايبتسغ؛

الصديق لاورانس تشيكوريللي الذي أمدني بطبعة جديدة من سفر أخنوخ الإثيوبي وسفر صعود موسى؛

الصديق روديغر براون الذي قدّم آراء قيمة في بعض مقاطع من نص هورفيتس؛

الصديق ميشائيل موترايش الذي ساهم بنصيب لا بأس به في نقد النصوص قبل هورفيتس؛

الصديق ايكارت فورتس؛

الدكتور منير بيطار؛

والصديق مفلح عازار.

مقدّمة

على مدى أكثر من ربع قرن، تمت كتابة مقالات هذه الميثات لتجمع في النهاية، اليوم، في عمل واحد: مقالات تراوحت بين التأليف، وبين الترجمات عن الإنكليزية، الألمانية، والعبرية. وهذه المقالات تُظهر بدقّة تطوّر نمطية التفكير عند المؤلّف، والمحظورات الداخلية التي تعب للغاية من أجل صهرها والسير فوقها.

كان ملفتاً للغاية أنّ غالبية الباحثين الغربيين في الشأن الإسلامي، باستثناء وانسبرو على سبيل المثال، كانوا ينطلقون في بحوثهم، وكأنهم فقهاء مسلمون، من فرضية شائعة ومحاطة بسيوف تكفير لامعة، بأن القرآن كتاب لم يدخل عليه أي نوع من التبديل منذ أن تفوّه به محمد ونقله لأتباعه. لكننا، في عملنا على جفري، ومن ثم تقديمنا لسلسلة أعمال حملت عنوان *فروقات المصاحف*، أظهرنا، بأدلة دامغة من أمهات المراجع الإسلامية عند السنّة والإماميين، أن القرآن تعرّض لعمليات تشويه متتالية؛ أن كثيراً من الصحابة كان لهم مصاحفهم الخاصة المختلفة في كثير من المواضع، نصياً، عن قرآن عثمان ولجنته؛ أن أحاديث كثيرة تشير إلى نقص كبير في القرآن؛ أن هنالك نقصاً في

بعض السور وتغييراً في سور أخرى ؛ أن هنالك سوراً في القرآن الحالي لم تكن تعتبر زمن الصحابة سوراً ؛ وأن تحريراً آخر للقرآن قام به أحد أسوأ قادة بني أمية وأبعدهم عن الدين ، بأمر من خليفته الذي كان أيضاً أحد رموز الفسق في زمنه والعدائية للدين ، أي الحجّاج وعبد الملك بن مروان على الترتيب.

في عملنا ، *مصحف علي بن أبي طالب* ، أشرنا إلى أحد الأعمال السنّية الذي تحدّث بالتفصيل عما قام به الحجّاج من تحويرات في القرآن. ولمّا كان عبد الملك بن مروان مهتماً للغاية بمسألة تحويل الحج وإن بشكل مؤقت إلى الصخرة في القدس ؛ ولما كانت الآية الأولى من السورة 17 لا علاقة لها بما هو بعدها ، وأن السورة التي تحمل التسمية "الإسراء" ظلت طيلة زمن التابعين تحمل الاسم الأصلي ، "بني إسرائيل" ، وأن تبديل التسمية حصل بعد زمن التابعين ، فإن الأرجح أن الآية إياها أقحمت في السورة وتم تبديل اسمها لدعم موقف عبد الملك بن مروان لاهوتياً في موقفه السياسي وحربه ضد عبد الله بن الزبير.

بهذا الرأي البسيط ، يمكن الخروج من تلك المعارك البحثية بين الذين ناقشوا المسألة ، دون أن يجرؤوا الدخول في مسألة ما إذا كانت الآية ملحقة في زمن بعينه أم أنها أصلية.

الحقيقة أم الصورة الذاتية عن الحقيقة : كيف نفهم التاريخ؟

مما لا شك فيه أننا لم نصل حتى الآن عموماً إلى الدرجة الدنيا في صيرورة التعامل العلمي مع التاريخ فما يزال التعامل مع التاريخ عندنا، محكوماً بعواطف الكاتب وأهوائه، يساعده في ذلك أن المؤرخين الأوائل – وهم أكثر موضوعية من تاريخيينا المعاصرين عموماً – جمعوا الصالح والطالح، الإيجابي والسلبي، الموثوق والمطعون بصحته، وهكذا، فباستطاعة أحدهم، باستخدام النصوص التاريخية، أن يصل بأحد الرموز "الموثنة" إلى درجة أنه يجعل الإله يكرر خلفه بعض كلماته، في حين يستطيع آخر، من موقف مخالف، باستخدام تلك النصوص ذاتها، أن يحطم "الوثن" ويرمي بأشلائه في كل مكان. التوثين هو مشكلة التاريخ العربي ـ الإسلامي؛ ودراسة التاريخ علمياً، تتنافى بالكامل مع مقولة التوثين هذه، فلا بد لمن يريد أن يكتب في موضوعة التاريخ، أن يكتب كملاحظ خارجي، بمعنى أن لا يقحم دواخله في النص، وينسى عواطفه عند التعامل مع أي حدث أو شخص تاريخيين، مهما ارتفعت سوية "التوثين" عنده.

التاريخ كعلم، يعني تفسير التطورات التاريخية دون الإشارة إلى تدخل ما -فوق طبيعي. فالتاريخ كعلم، على سبيل المثال، لا يستطيع تفسير ظهور اليهودية بالإشارة إلى قرار تتخذه الآلهة بإرسال نبي اسمه موسى، حتى لو كان الباحث يهوديا؛ كما لا يستطيع أن يصف التوراة على أنها كلام الإله، حتى لو كان الباحث ذاته يؤمن بذلك. وحين يفعل هذا، يصنف عمله تحت عنوان، "لاهوت" أو "تبشير ديني" – لكنه ليس علم تاريخ أبداً. إن كل ما يستطيعه الباحث في التاريخ كعلم هو تفسير الأشياء بالإشارة إلى واقعة أن اليهود يعتقدون بأن الإله أرسل موسى أو أن التوراة هي كلمة الإله – وهذا ما يدعى بالحقائق التجريبية. لكن التاريخ كعلم لا يهمه ما إذا كان اليهود محقين في اعتقاداتهم تلك أم لا. فلا أحد عملياً باستطاعته أن يقرر ما إذا كانوا محقين فعلاً، لأنها من جهة مسألة إيمان أولاً وأخيراً، ومن جهة أخرى، فالموضوع غير ذي أهمية للتاريخ كعلم: اليهودية ظهرت لأن اليهود (نظرياً على الأقل) آمنوا بشخص اسمه موسى، تماماً مثلما أن البوذية ظهرت لأن أتباع بوذا اعتقدوا أن بوذا وجد الحقيقة. وسواء أكانت اعتقاداتهم صحيحة في منظورنا أم خاطئة؛ فالأمر لا يهم في مسألة إعادة بناء التاريخ: قناعاتنا ليست عنصراً في التطورات التي نحاول تفسيرها. التاريخ يخص الماضي، لا يخصنا.

يعمل علم التاريخ هذه الأيام، في الدول المتحضرة، على القواعد ذاتها التي تعمل عليها العلوم الطبيعية : يجب تفسير كل شيء بلغة المعطيات التجريبية من الأنموذج الذي يمكن اختباره، تثبيته، أو دحضه، وذلك بالإشارة إلى معطيات تجريبية أخرى، وليس بلغة القناعات التي ترتكز على الاعتقاد. وقد أثبتت هذه المقاربة قوة كبيرة في حقل العلوم (كما يعرف الجميع من التكنولوجيا الحديثة) ولا بد بالتالي من انتشارها في دراسة التاريخ كعلم أيضاً.

إن ما يفترض في دراسة التاريخ كعلم هو أن تكون حرة القيمة. وهذا معناه أن يحاول الباحث التاريخي دائماً تفسير الاعتقادات والسلوكات القديمة بلغة المجتمعات القديمة ومنظومات القيم القديمة، وليس بلغة القناعات الحديثة ؛ فعلى سبيل المثال، عليه أن يحاول فهم نبي الإسلام محمد كشخص من الماضي عاش في مجتمع مختلف بالكامل عن مجتمعنا، واستجاب لعناصر خاصة بذلك الزمن، وعمل على أسس من فرضيات اختفت منذ زمن طويل ؛ لكنه حين يقدم محمداً كأنموذج أزلي فوق تبدلات الزمن والتاريخ، فسوف يصنف عمله على أنه "تبشيرديني" وليس علم تاريخ. أما حين يقدم محمداً كإشتراكي أو ليبرالي أو ديمقراطي أو ما شابه، لأنه هو ذاته يؤمن بصحة الاشتراكية أو الليبرالية أو الديمقراطية أو ما شابه، فسوف يصنف عمله تحت عنوان "الدفاعيات"، لكنه ليس علم تاريخ. التاريخ هو محاولة لإعادة بناء العوالم المفقودة، وتفسير التطورات الماضية ؛ لكنه ليس محاولة لتشريع الحاضر.

غالباً ما يقال الآن إن الدراسات التاريخية الإسلامية ليست حرة القيمة فعلاً، لأنه يستحيل على الباحث التاريخي الإسلامي الحالي أن يلغي قيمه الخاصة وهناك بالتالي أدلة في تلك الدراسات على تفضيلات أو تحاملات شخصية، بحسب الكاتب وانتمائه. وهذا صحيح إلى درجة كبيرة. لكن حرية القيمة أمثولة لا يمكن إدراكها بالكامل. على أية حال، فالباحث التاريخي الذي يحاول إدراك هذه الأمثولة، مهما بدا ذلك غير كامل، يختلف تماماً عن نظيره الذي ينطلق بقلب مفتوح لتشريع اعتقادات وقيم حالية مستخدماً التاريخ كوسيلة للحديث عن الحاضر.

من الأهمية بمكان أن تعتمد دراسة التاريخ كعلم على النقدية المصدرية وتسلم بالتالي بأن ما قاله أو فعله الناس في الماضي مرتبط بسياقه، تماماً كما هو الحال في الحاضر: تعكس المصادر حالات خاصة، جماعات خاصة، وقناعات خاصة؛ وقد لا تكون ادعاءاتها صحيحة أو قد تكون صحيحة من وجهة نظر معينة ليس إلا؛ وكل عبارة وصلت إلى أيدينا من الماضي تمتلك تاريخاً طويلاً يفسّر الشكل الذي توصلت به، كذلك فالعلاقة بين الحقيقة وما يقوله الناس عن الحقيقة معقدة للغاية، وتكون معقدة أكثر حين لا تتواجد العبارات إلا في مصادر متأخرة. وأنت لا تستطيع إعادة بناء واقعة ماضية عن طريق جمع مبسط لكل ما تقوله المصادر عنها...

إن سمات البحوث المعاصرة قابلة لتقديم الانطباع بأن الباحثين التاريخين العلمانيين ربما يكونون معادين للإسلام: فهم يتعاملون مع كل حقب التاريخ على نحو متماثل، يخضعون الشخصيات المقدسة لأنموذج التفسير ذاته، يرفضون إدخال الإله في تفسير أي شيء، يعزلون المراجع ويتابعون معلومتهم إلى حيث تقودهم بغض النظر عن كون النتيجة مرغوبة أم لا. وهم في ذلك لا يفرّقون بين تاريخ اليهودية أو المسيحية أو الإسلام، أو الهندوسية أو البوذية أو حتى المورمونية.

الوثيقة الدينية والوثيقة التاريخية:

على أساس مما سبق، يبدو أن الباحثين التاريخين المسلمين لا يفرّقون حتى الآن بين ما يسمى الوثيقة الدينية (الميثولوجية) والوثيقة التاريخية – وهذه أولى قواعد دراسة التاريخ كعلم. وحين نقول وثيقة دينية -ميثولوجية، فنحن نعني بذلك تحديداً تلك الوثائق التي وصلت إلى أيدينا من الماضي والتي تتحدث عن واقعة ذات صبغة إعجازية تتضمن إدخالاً لعنصر فوق -طبيعي كعنصر أساسي في خلق الواقعة. هنالك وثائق تاريخية -دينية، كهجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة؛ وهذه رغم أنها قد تفهم بأنها قد تمت بتدخل لعنصر ما فوق -طبيعي، إلا أن الباحث في التاريخ كعلم يستطيع تناولها كحدث تاريخي بعد قص كل الشراشيب المافوق -طبيعية....

مثال:

الباحث السوري الدكتور سهيل زكار واحد من أهم الباحثين المسلمين في التاريخ حالياً. مع ذلك، فخلفية الباحث الماورائية - الميثولوجية تلعب أحياناً دوراً "مستغرباً" في حديثه عن بعض الوقائع التي لا يوجد أدنى شك في ميثولوجيتها. ففي إشارته ذات مرة، إلى مسألة سرقة الحجر الأسود من الكعبة على يد القرامطة، وهو حجر يحيطه المسلمون بأساطير كثيرة، روى أن أربعين جملاً كانوا يئنون [حتى لا نستعمل ما قاله حرفياً] تحت وطأة ثقل ذاك الحجر المقدّس وهم يحملونه بعيداً عن الكعبة، في حين أن جملاً وحيداً مريضاً سبق الريح وهو يعيده إلى مكانه.

إذاً، بعود على بدء نقول، إنّ كل الوثائق التي تخبرنا عن حوادث ما فوق طبيعية هي وثائق دينية غير تاريخية، يعتمد الاعتقاد بها على حقيقة "نسبية الاعتقاد" أولاً وأخيراً. ومن أبرز تلك الوثائق، تلك المجموعة التي تتحدّث عن نزول من السماء أو صعود إليها.

الاتجاه المعاكس:

رغم أن المفهوم "سماء" فقد كلّ مدلولاته القديمة الآن، فما تزال وثيقة "هبوط آدم من السماء أو الجّنة" الدينية تسكن في لاوعي الكثيرين، كوثيقة تاريخية، خاصّة في تلك البيئات غير العلمية أو

المعادية[1] للعلم. لذلك تصادفنا أحياناً رغبات دفينة باسترداد الموضع السماوي المفقود، عن طريق عودة معاكسة. فاليهودية، التي تحتلّ فيها حكاية "سقوط آدم" جزءاً لا بأس به من مخزونها الميثولوجي، شكّل الاتجاه المعاكس هاجساً مسيطراً عند بعض كتبتها، فكان الحلّ هو إضفاء خاصية الاتجاه المعاكس على بعض الشخوص ذات القدسية الخارقة في تلك الديانة: إضفاء لا يمتلك أي دليل علمي حيادي على صحته أو سببيته غير هواجس أصحابه. واكتملت الصورة "بالأدب المنحول" (-الأبو كريفي -)، الذي جاء ليغرق تلك الشخصيات خارقة القداسة في بحر من تفاصيل الصعود المعاكس، ما تزال آثارها ماثلة للعيان حتى الآن.

إيليا، أو النبي ايلياهو[2] (معنى اسمه توفيقي: إيل هو يهوه،

---

(1) إن مفهومنا للعلم يختلف تماماً عن ذلك المفهوم "الدعائي" الذي يتم تناوله الآن، حيث يتحدث بعضهم عن كثرة أصحاب الشهادات العلمية في هذا الاتجاه اللاعقلاني أو ذاك. العلم، بمفهومنا، ينطلق من صيرورة تفكر دائمة، أما أصحاب الشهادات العلمية الذين نصادفهم في كل مكان الآن يرفعون رايات التطرف والأصولية فهم ليسوا أكثر من مهنيين عن طريق الدراسة.

(2) إن الانطباع العميق الذي تركته مسيرة إيليا الثورية وانتقاله العجائبي إلى السماء في "عربة من نار" جعل منه شخصية أسطورية في الأزمنة الكتابية، وقد صارت نبوءة ملاخي الأخيرة بأن الله سوف يرسل إيليا "قبل أن يأتي يوم الرب العظيم الرهيب، فيرد قلوب الآباء إلى البنين وقلوب البنين إلى آبائهم"(ملا3 : 23)، نقطة انطلاق للربط لاحقاً بين إيليا والعصر المسياني. وفي القرن الأول الميلادي، كانت إحدى
==

المسلمات أن إيليا هو بشير المسيح ونذيره. لقد اعتقد في البداية أن يسوع ذاته هو إيليا، لكن حين كشف عن دوره الخاص، قيل إن يوحنا المعمدان هو الذي يجسد إيليا (مت، 11: 10؛ 17: 10؛ مر 9: 11). وربما لمواجهة هذا الميل في المسيحية وعند الطوائف المنشقة للربط بين إيليا وهذه الحركات الخطرة سياسياً والمشكوك فيها دينياً، من منظور اليهودية، قامت محاولات لمواجهة التبجيل المفرط الذي يعزى لإيليا في الدوائر المسيحية وعند الطوائف الأبوكاليبتية، وذلك من قبل اليهود الأرثوذكس. وهكذا، فقد أنكر أن إيليا ذهب يوما إلى السماء `uk.5a` ، رغم وجود دليل كتابي يفيد بعكس ذلك. أما عادة إيليا بكشف أسـ ـماوية لأشخاص أتقياء (قارن *BM*: b59) فقد أكسبته ذات مرة عقاباً شديداً تمثل في ستين سوطاً حامياً (*BM* 74b)؛ كذلك فإن إنكار إيليا على إسرائيل تخليها عن العهد الا! !مل، 19: 10، 14) أغضب الإله للغاية إلى درجة انه طرد إيليا من خد ـ :. ٍيشاع مكانه (*Song.R* 1:6 No.1).

في العصور التلمودية وما بعد التلمودية يزداد وضوح الربط بين إيليا والمسيا. فيصبح إيليا على نحو متزايد ليس فقط نذير المسيا وبشيره، بل أيضاً شريكه الفاعل. فكلاهما منشغل بتدوين أعمال الصالحين، لتسريع يوم فداء إسرائيل (*Lev.* *R*.34:8;Ruth R.5:6)؛ وسوف يكون إيليا والمسيا بين أربعة فاتحين للعالم (*Song.r*.2:13.no.4).

في الأدب الصوفي اليهودي، تعرف شخصية إيليا تطورات جديدة. وبحسب موشيه بن شيم طوف من ليون، فإن إيليا هو أحد الملائكة الذين دافعوا عن خلق الإنسان (Cordovero, *Pardes Rimmonim*، (2414:)). إذاً، فإيليا هو ملاك أقام مؤقتاً على الأرض في هيئة إنسان، قبل أن يصعد ثانية إلى السماء. أما موسى كوردوفيرو، فيقارن بين حياة إيليا وحياة أخنوخ(24: 13): الاثنان هما الشخصيتان الكتابيتان الوحيدتان اللتان رفعتا عن الأرض بطريقة غير عادية. ويصف الصوفيون اليهود قدر إيليا وأخنوخ اللاحق في السماء بطريقة خيالية. ففي حين تلتهم النار جسد أخنوخ ويتحول هو ذاته إلى الملاك الأعلى ميتاترون، يحافظ
==

ويعبر عن نهاية الصراع بين أبرز إلهين في المنطقة، إيل ويهوه، بالمطابقة بينهما) هو إحدى الشخصيات التي أرسلها كتّاب اليهود، بشكل أو بآخر، إلى السماء؛ فبعد أن ضرب هذا النبي المفترض نهر الأردن بردائه، وشقه، عبر مع تلميذه أليشع إلى الشرق نحو البرية. ثم ظهرت "مركبة نار وخيل من نار" وفصلت بينهما، و"صعد إيليا في العاصفة إلى السماء" (2مل2: 1 -11).

في المسيحية، التي تعتبر بحق تأوج الفكر المسياني اليهودي، يختبر يسوع هذا الاتجاه المعاكس، حتى يصل إلى السماء، ويجلس، بحسب قانون الإيمان المسيحي الأرثوذكسي، "على يمين الله الآب".

جملة واحدة في سفر التكوين، (5: 24): "وسارَ أخنوخ معَ الله، ولَم يَكُنْ بَعدَ ذلك، لأنَّ الله أخَذَه"، كانت كافية لخلق أسفار كثيرة بصفحات لا تنتهي من تراث يحكي عن صعود أخنوخ إلى السماء "لأن الله أخذه".

إيليا بعد صعوده على ارتباطه بالعالم البشري، حيث يمكنه الظهور على الأرض، إذا كان ذلك ضرورياً. إن جسده لم يشكل من تراب الأرض كبقية الكائنات البشرية، بل جاء من شجرة الحياة، وقد مكنه هذا من تنفيذ أوامر الله ومعجزاته (Zohar 1:294; 2:1974; Yalk.R.27). لذلك، بعكس أخنوخ الذي لا يعرف إلا باسم الملاك الرئيس ميتاترون، يحافظ إيليا على اسمه الذي يدخل تحته في قدر الشعب اليهودي.

يُقال إن أخنوخ هو ذاته إدريس الذي ورد ذكره في سورة مريم، الآيتان 56، 57: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾. وفي سورة الأنبياء، الآية 85: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾. وعلى الرغم من شعورنا بنقص "ما" في الآية 57 من سورة مريم، ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾، فإن تلك العبارة هامّة للغاية في إظهار كم استفادت الميثولوجيا الإسلاميّة من نظيرتها العبرانية. فإذا ما استعنا بتفسير الطبري لفهم هذه الآية، نقرأ: "حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعاً عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا"، قال: إدريس رُفع فلم يمت، كما رُفع عيسى.

حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد، مثله، إلا أنه قال: ولم يمت.

حدثني محمد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾؛ قال: رفع إلى السماء السادسة، فمات فيها.

حدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد بن سليمان، قال: سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾، إدريس أدركه الموت في السماء السادسة.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾، قال: السماء الرابعة.

حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن يمان، عن سفيان، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدريّ، "وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا"، قال: في السماء الرابعة.

حدثنا عليّ بن سهيل، قال: ثنا حجاج، قال: ثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرياحي، عن أبي هريرة أو غيره، قال: لما أسري بالنبيّ ﷺ صعد به جبريل إلى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قالوا: ومن معه؟ قال: محمد، قالوا: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء، قال: فدخل فإذا هو برجل، قال: هذا إدريس رفعه الله مكانا علياً.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، في قوله ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾، قال: حدثنا أنس بن مالك أن نبيّ الله حدث أنه لما عرج به إلى السماء قال: أتيت على إدريس في السماء الرابعة".

من الجانب اليهودي، نجد روايات كثيرة حول أخنوخ ، يبدو أنها استخدمت جيداً من قبل الرواة المسلمين، سواء في تفسيرهم لآية ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾، أو في التفاصيل المتعلّقة بحيثات الإسراء والمعراج. لكننا لم نستعمل هنا أياً من تلك الأسفار التي تحمل اسم أخنوخ ،

مثل *أخنوخ الأثيوبي* و*أخنوخ السلافي*، لأنها غير معتمدة من قبل المرجعيات اليهودية.

نبدأ أولاً بالسفر المسمّى *برقي دراف إليعازر*، حيث نقرأ: "أخنوخ xiv. 42-، يقول: "عندما يخرج من البوابة الغربية، فإن أربعمائة ملاك يأخذون تاجه ويحضرونه إلى الرب.".. أخنوخ يشير إلى عربة الشمس"[1].

في *النص ذاته* نقرأ أيضاً نقلاً عن أخنوخ: "" أخنوخ viii. 1 – ix يصف جنّة عدن السماوية: "هذا المكان محضّر للصالحين"[2]. – بمعنى أنه شاهد بأم العين جنّة عدن السماوية.

في رواية ثالثة من *السفر ذاته* نجد أن أخنوخ يرى أيضاً العرش الإلهي تحيط به الملائكة: "أخنوخ lxxi 6 وxiv 18 وما بعد: "ونظرت ورأيت عرشاً نبيلاً؛ كان مظهره كالبلور، وعجلاته كالشمس المشرقة، وكانت هناك رؤية للكروبيم ..."[3].

من أهم الأعمال التي تناولناها على الدوام في أعمال لنا كثيرة، *أساطير اليهود*، للباحث الشهير لويس غنزبرغ: (بالعبرية: לוי גינצבורג، 1873 - 1953). لقد جمع هذا العلّامة كثيراً من

(1) *פרקי דרבי אליעזר*، 6 :12

(2) *פרקי דרבי אליעזר*، 19 :8

(3) *פרקי דרבי אליעזר*، 4 :6.

الروايات المتعلّقة بأخنوخ ؛ منها: "كان إثم البشر تسبباً في نقل أخنوخ إلى السماء. هكذا أخبر أخنوخ بنفسه الحاخام إسماعيل .... عندما انتهك جيل الطوفان، وتحدث إلى الله، قائلاً: "اتركونا، لأننا لا نريد أن نعرف طرقكم"، تم نقل أخنوخ إلى السماء ليعمل هناك كشاهد على أن الله كان ... عندما كان أخنوخ ، تحت إشراف الملاك عنبيل، يُحمل من الأرض إلى السماء، الكائنات المقدسة، الأوفانيم، السيرافيم، الكروبيم، جميع أولئك الذين ينقلون عرش الله، والمعونة ... لكن هذا الرجل أخنوخ هو المصطفى من البشر. لديه من الإيمان والعدالة والبر أكثر من كل البقية، وهو الثواب الوحيد الذي أخذته من العالم الأرضي."... في حضور العائلة السماوية، وضع هذا التاج على رأس أخنوخ ، ودعاه "الرب الصغير""[1].

في نص من *أساطير اليهود*، نقرأ أنّ أخنوخ كان موجوداً في أقاصي الأرض: "ولما سمع متوشالح كلام ابنه، ذهب إلى أخنوخ ، إلى أقاصي الأرض، وصرخ بصوت عال، وسمع أخنوخ صوته، وظهر أمامه، وسأله عن سبب مجيئه ... أجاب أخنوخ ، وقال: "الرب سوف يفعل شيئاً جديداً في الأرض. سيكون هناك دمار كبير على الأرض، وطوفان لمدة عام واحد""[2].

---

(1) *Legends of the Jews 1*:3:12

(2) *Legends of the Jews* 1:4:3.

من تلك الروايات التي تحكي عن وجود لأخنوخ في السماء، ما أورده غنزبرغ في عمله إياه: "حين دنست جميع هذه الرجاسات الأرض، عاش أخنوخ التقي في مكان سري ... رمم أخنوخ عزازيل والملائكة الساقطة الأخرى، ليعلن الموت الذي نطق به ضدهم. جميعهم امتلأوا بالخوف .... استولت عليهم الرعشة، وناشدوا أخنوخ أن يقدّم عريضة استرحام لهم ويقرأها لرب السماء، لأنهم لم يستطيعوا التحدث مع الله كالسابق، ولا حتى رفع عيونهم نحو السماء ... سلّم أخنوخ بطلبهم، وفي رؤية حصل على الجواب الذي كان سيحمله إلى الملائكة .... ظهر لأخنوخ أنه قد رفع إلى السماء على السحاب، وتم وضعه أمام عرش الله"[1].

نص هام آخر من *أساطير اليهود*، يتحدّث بجلاء عن نقل أخنوخ إلى السماء في عربة نارية: "بعد أن عاش أخنوخ فترة طويلة منعزلاً عن البشر، سمع ذات مرة صوت ملاك ينادي عليه: "أخنوخ، أخنوخ، جهز نفسك واترك البيت والسر ... أرسل الرسل في كل مكان ليعلنوا، " أنتم الذين تريدون أن تعرفوا طرق الله والسلوك الصالح، تعالوا إلى أخنوخ!"... عند انتهاء هذه الفترة، في السنة التي مات فيها آدم، ودُفِن بتكريم عظيم على يد شيث، إينوش، أخنوخ، ومتوشالح، وقد قرر أخنوخ أن ينعزل مرة أخرى عن التعاطي مع البشر، ويكرّس نفسه ...

(1) (*Legends of the Jews* 1:3:9.

في اليوم السابع ، تم نقل أخنوخ إلى السماء في عربة نارية ملتهبة بواسطة ناقلين ناريين ... ووجدوا الثلج وحجارة البرد العظيمة على الفور من حيث كان أخنوخ قد ارتفع ، وعندما فتشوا تحتها ، اكتشفوا أجساد جميع الذين بقوا مع أخنوخ "[1].

نص هام آخر لغنزبرغ يحمل عنواناً واضحاً : "صعود أخنوخ – لم تكن هذه هي المرة الأولى التي كان فيها أخنوخ في السماء. مرة من قبل ، وبينما كان يتجوّل بين البشر ، كان قد سمح له برؤية كل ما هو موجود على الأرض وفي السماء .... وسقط أخنوخ وسجد للرب ، الذي قال له : "أخنوخ ، لا تخف ! انهض وقف أمام وجهي إلى الأبد". ... فعل الملاك كما أُمر ، وعلّم أخنوخ ثلاثين يوماً وثلاثين ليلة ، ولم تتوقف شفتاه عن الكلام ، بينما كان أخنوخ يكتب كل الأشياء عن السماء والأرض والملائكة ... وعاش متوشالح وكل إخوانه ، أبناء أخنوخ ، وبنوا مذبحاً في المكان الذي يدعى أحوزان ، حيث نقل أخنوخ إلى السماء .... علامة عن طريق أخنوخ ، الذي وجد نعمة معهم"[2].

وفي نص من *العمل ذاته* : "قَالَ الْمَلَاكُ : "أَنَا أخنوخ ، ابْنَ يَارْدَادَ ، سَلَفِك ، واللّهُ كلّفني أنْ أصْحَبَكَ لِعَرْشِهِ""[3].

(1) *Legends of the Jews* 1:3:10.
(2) *Legends of the Jews* 1:3:11.
(3) *Legends of the Jews* 2:4:164.

النص الأخير من عمل غنزبرغ يقول إن مسكن أخنوخ بين الملائكة: "والآن، يا أبي، أنا هنا لتقديم التماس إليك وأتوسل إليك، كي تذهب إلى أخنوخ، أبينا، وتتعلّم منه الحقيقة، لأن مسكنه بين الملائكة".[1]

في العمل اليهودي المعروف، *سفر هايشار*، وجدنا مجموعة نصوص حول انتقال أخنوخ إلى السماء: "وفي اليوم السابع، قامت عاصفة عظيمة وحمل أخنوخ السماء في مركبة نارية، تجرّها خيول ناريّة... وفي اليوم السابع، أرسل جميع الملوك الذين كانوا مع أخنوخ، ليؤكّدوا عدد الناس الذين بقوا وتبعوا أخنوخ إلى المكان الذي صعد فيه إلى السماء ... وقالوا لبعضهم بعضاً: دعونا نكسر هذه الكتل الجليدية ونرى ما إذا كان الناس الذين يذهبون مع أخنوخ لم يموتوا تحتها... وبحثوا عنهم كلّهم لكن لم يتم العثور على أخنوخ، لأنه صعد إلى السماء ...".[2]

رواية أخرى من *السفر ذاته*، تزعم أن أخنوخ جُعل حاكماً على أبناء الله في السماوات: "وفي اليوم المعين تقدم أخنوخ وكان جميع الشعب قد تجمعوا، وجاءوا جميعاً حوله، فأعطاهم أخنوخ جميع كلمات الرب، وعلّمهم الكثير ... وبعد فترة وجيزة وبينما كان كل

(1) *Legends of the Jews* 1:4:2.

(2) ספר הישר، מִדְרָשׁ، בְּרֵאשִׁית، 14.

الملوك والأمراء والناس يتكلمون مع أخنوخ وهو يعلّمهم طرق الرب، دعا للتو ملاك الرب أخنوخ من السماء ليصعد، لأنه كان قد عُزم على جعل أخنوخ حاكماً على أبناء الله في السماوات كما حكم على بني الإنسان على الأرض"[1].

نص هام للغاية يتحدّث عن "الحصان"[2] الذي نزل ووقف أمام أخنوخ : "في الوقت نفسه نزل الحصان ووقف أمام أخنوخ ، ورأى كل الناس حول أخنوخ ذلك ... دعه من ثم يأتي اليوم إلى أخنوخ قبل أن يؤخذ بعيداً عنا! ... وكل يوم قَالَ لَهُمْ أخنوخ : ارجعوا إلى خِيَامِكَم أصلّي لَكُمْ لِئَلا تُمُوتُوا لكنهم لم يعودوا وأصروا على اتباعه ... وعندما رأى أخنوخ أنهم قرروا بحزم أن يرافقوه توقف عن حثهم على العودة، وذهبوا معه. وأولئك الملوك الذين عادوا يحسبون شعوبهم، من أجل التأكد من عدد الذين اتبعوا أخنوخ "[3].

ثمة ربط واضح في الميثولوجيا اليهودية بين أخنوخ وإيليا[4] ، لأن الاثنين غادرا الأرض إلى السماء بصورة أو بأخرى ، وإن كان إيليا

(1) ספר הישר ، מִדְרָשׁ ، בְּרֵאשִׁית ، 12.

(2) يمكن أن يذكّرنا هذا بالبراق؟؟

(3) ספר הישר ، מִדְרָשׁ ، בְּרֵאשִׁית ، 13.

(4) تقول المراجع اليهودية -المسيحية عموماً، إن إيلياهو אֵלִיָּהוּ (إيليا بالعبرية وهو أكثر دقة كاسم من إيليا طبعاً) يعني: ربّي هو يهوه. لكننا نعتقد أن هذه الشخصية الأسطورية في معظم سماتها [كنيسه قرب دمشق في جوبر] تعبّر عن المصالحة بين

==

يحتل الصدارة في قائمة أولئك الراحلين إلى السماء[1] : "لن يأكلوا ولن

أشهر إلهين في المنطقة : إيل ويهوه. ويصبح معنى الاسم إيلي هو يهوه. وقد أشرنا في غير بحث إلى العدائية الشهيرة بين يهوه وإيل، والتي تجلت بأوضح ما يمكن في الصراع بين يصحاك [إسحاق יִצְחָק : يهوه يضحك] ، ابن السيدة الحرة الزوجة ، سارة ، ويشمع -إيل [إسماعيل יִשְׁמָעֵאל :سمع إيل] ، ابن الجارية الأمة الغريبة ، هاجر ، والذي انتهى بطرد الغريبة وابنها من بيت إبراهيم.

(1) من سفر الملوك الثاني ، الإصحاح الثاني ، نقرأ : "وقبلَ أن يرى الربُّ ايليًّا في العاصفَةِ نحوَ السَّماء ، ذَهبَ إيليًّا مع أليشاع مِنَ الجلجال. فقالَ إيليًّا لأليشاع : أمكُثْ ههُنا ، فإنَّ الربَّ قد أرسَلَني إلى بيتَ إيل. فقالَ أليشاع : حَيّ الربُّ وحيَةُ نَفسُكَ! إنّي لا أفارقُكَ. ونَزلا إلى بيتَ إيل. فخَرجَ بنو الأنبياء الّذينَ في بيتَ إيلَ إلى أليشاع وقالوا له : هَل علِمتَ أنَّ الربَّ في هذا اليَوم يأخذُ سيِّدَكَ مِن فَوق رأسِك؟ فقال : نَعم ، قد علِمتُ أنا أيضًا ، فاسكتوا. ثُمَّ قالَ له إيليا : يا أليشاع ، أمكُثْ ههُنا ، فإنَّ الربَّ قد أرسَلَني إلى أريحا. فقال : حَيّ الربُّ وحيَةُ نَفسُكَ! إنّي لا أفارقُكَ. ووصَلا إلى أريحا. فتقدَّمَ بنو الأنبياء الّذينَ في أريحا إلى أليشاع وقالوا له : هل علِمتَ أنَّ الربَّ في هذا اليَوم يأخذُ سيِّدَكَ مِن فَوق رأسِكَ؟ فقال : نَعم ، قد علِمتُ أنا أيضًا ، فأسكتوا. ثُمَّ قالَ له إيليا : أمكُثْ ههُنا ، فإنَّ الربَّ قد أرسَلني إلى الأردُنّ. فقال : حَيّ الربُّ وحيَةُ نَفسُكَ! إنّي لا أفارقُكَ. وذَهبا كِلاهما معًا. فذَهبَ خمسونَ رجُلاً مِن بَني الأنبياء ووَقفوا تجاههما عن بُعد ، ووَقفا هُما بِجانِبِ الأردُنّ. فأخذَ إيليًّا رداءه ولفَّه وضَربَ به المِياه ، فانفلَقت إلى هُنا وهُناك ، وعبرا كِلاهُما على اليَبس. فلَمّا عبَرا ، قالَ إيليا لأليشاع : سَلني ماذا أصنَعُ لكَ ، قَبلَ أن أوخَذَ عنكَ ؛ فقالَ أليشاع : لِيَكُنْ لي نَصيبُ اثنَين مِن روحِكَ عليّ. قال : قد سألتَ أمرًا عَسيرًا : إن أنتَ رأيتني عِندَما أوخَذُ مِن عِندِكَ ، يكونُ لكَ ذلك ، وإلاّ فلا. وفيما كانا سائرَين ، وهُما يتحدثان ، إذا مركَبةٌ ناريّةٌ وخيلٌ ناريّةٌ قد فَصلَت بينهما. وصَعِدَ إيليا في العاصِفَةِ نحوَ السَّماء ، وأليشاع ناظِرٌ وهو يَصرُخ : يا أبي ، يا أبي ، يا مَركبةَ إسرائيلَ وفُرسانَه!. ثُمَّ لم يَعُدْ يَراه. فأمسَكَ ثِيابَه وشَقَّها ==

يشربوا، تماماً مثلما وقف أخنوخ وإيليا أمامه [الله] من دون طعام أو شراب، ومثل موسى، معلمنا، ذي الذاكرة المباركة، الذي وقف أمامه [الله] لمدة أربعين يوماً دون أكل أو شرب"(1).

ربما أن السبب الأهم لتفوق إيليا على أخنوخ هو عدم اعتبار أخنوخ يهودياً: "وعن أخنوخ ، يقال، "وسار أخنوخ مع الله"، ولا يقال ، "وأخنوخ خائف من الله." ... وفيما يتعلق بنوح يقال، "كان نوح في أجياله رجلاً باراً وكاملاً". لقد اعتبر التقليد اليهودي أيوب من الأمم [غير اليهود] ، وكذلك أخنوخ ونوح"(2).

نص آخر يربط أخنوخ بإيليا : "الأول هو من أخنوخ وإيليا ، اللذين أخذهما الخالق، المبارك، لنفسه، ويعرفان في الحقيقة، أن الجسد لا يمكن أن يستمر بدون غذاء"(3).

شَطرَين، وأخَذَ رِداءَ إيليا الّذي كانَ قد سَقَطَ عَنه وضَرَبَ به المِياهَ وقال: أينَ الرَّبّ؟، إنهُ إيليا، هو أيضًا؟ وعادَ فَضَرَبَ المِياهَ فانفَلَقَت إلى هُنا وهُناك، وعَبَرَ أليشاع. ورآه بَنو الأنبياءِ الّذينَ في أريحا تُجاهَه، فقالوا: قد حَلَّت روحُ إيليا على أليشاع. وأتوا لِلِقائِه وسَجَدوا لَه إلى الأرض، وقالوا لَه: هُوَذا مع عَبيدِكَ خَمسونَ رَجُلاً ذَوو بَأس، يَمضونَ ويبحَثونَ عن سَيِّدِكَ، فعَسى أن يكونَ روحُ الرَّبِّ قد حَمَلَه وطَرَحَه على أَحَدِ الجِبالِ أو في أحَدِ الأَودِيَة. فقال: لا تُرسِلوا أحَدًا. فألَحُّوا علَيه جِدًّا حتَّى قالَ لَهم: أرسِلوا، فأرسَلوا خَمسينَ رَجُلاً، فبَحَثوا ثَلاثَةَ أيام فلَم يَجِدوه. فرَجَعوا إليه وهو مُقيمٌ في أريحا. فقالَ لَهم: ألم أَقُلْ لَكم: لا تَمضوا؟".

(1) ספר הישר ، 12 :4.

(2) ספר הישר ، 2 :7.

(3) ספר הישר ، 5 :14.

في *مدراش تنحوما*، نقرأ: "عيّن الله أخنوخ أميراً للملائكة"[1]؛ ونقرأ: "لقد قضى عليهم لكنه أنقذ أخنوخ، كما يقال، "وسار أخنوخ مع الله"، لماذا؟ [الرب خيّر، ملاذ] في يوم التعب؛ إنه يعرف أولئك الذين يثقون به"[2].

في سفر *عقيدة إسحق*، نقرأ أيضاً عن صعود أخنوخ وإيليا إلى السماء: "بما أن أكثر ما يزعج الإنسان هو الحاجة التي لا مفر منها للموت، وحيث أن بعض الأفراد المتفوقين مثل النبي إيليا أو أخنوخ قد صعدوا إلى السماء"[3]؛ ويؤكّد ذلك نصّ آخر من *السفر ذاته*: "التعبير لقاح هاشيم، أخذ الرب، هو مصطلح نجده حين ماتت زوجة حزقيال، كذلك حين غادر أخنوخ وإيليا هذه الأرض"[4].

أخيراً، يقول مرجع يهودي بارز: "وبالفعل، بالنسبة لإيليا، وفيما يتعلق بأخنوخ، اللذين كانا قبل الطوفان، فقد كتب في الكتب المقدسة أنهما اختفيا، لكن حتى لا يعلم أحد أنهما ماتا"[5].

---

(1) *מדרש תנחומא*، מקץ، 6:1

(2) *מדרש תנחומא*، בְּמִדְבַּר، 26:1.

(3) *עֲקֵדַת יִצְחָק*، 105: 1: 4.

(4) *עֲקֵדַת יִצְחָק*، 105: 1: 5.

(5) *The Antiquities of the Jews* 9:2:2

لماذا أخنوخ وليس إيليا؟

سؤال مشروع ؛ خاصة وأن إيليا حاضر بشكل دائم في التراث اليهودي ما بعد التوراتي. إيليا، أولاً، غير موجود على نحو متميز في القرآن ؛ ثانياً، إيليا غير واضح المعالم في التراث الإسلامي ما بعد القرآني، خاصة وأن بعض المراجع الإسلامية تعتبر أخنوخ وإيليا شخصاً واحداً[1] ؛ ثالثاً، وهو الأهم، ثمة أسفار هامة تُعزا لأخنوخ،

---

(1) من مرجع إسلامي، نقرأ: " إلياس نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى عليهم السّلام. ويعرف في كتب الإسرائيليين باسم (إيليا). وقد روى الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس.

وقد ذُكر النّبيّ إلياس عليه السّلام في القرآن الكريم في موضعين: الأوّل، ذُكر ضمن حديث القرآن الكريم عن جملة من الأنبياء، وذلك قوله سبحانه ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الأنعام: 85. والثاني، ذُكرت فيه قصّته، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصّافات: 123 -132.

وحاصل قصّة هذا النّبيّ عليه السّلام أنّ الله سبحانه بعثه في بني إسرائيل بعد النّبيّ حزقيل عليه السّلام، وكانوا قد عبدوا صنمًا يقال له "بعل"، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم، ثمّ ارتدّ، واستمرّوا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم. فحبس عنهم المطر ثلاث ==

ربما تكون مرجعاً كان في متناول اليد بالنسبة لمن كتب ميثات الإسراء والمعراج.

لقد ترجمنا قبل سنوات *سفر أخنوخ الإثيوبي* عن اللغة الإنكليزية، لذلك لم ننشره. ففي اعتقادنا، إذا كانت ثمة معرفة للمراجع الإسلامية القديمة بالأسفار التي تُعزا لأخنوخ، لا بدّ أن تكون تلك المعرفة محصورة بالنسخة الأثيوبية، وليس تلك العبرية أو السلافية. لذلك فإن الترجمة عن اللغة الإنكليزية تفقد النص كثيراً من محتواه الذي قد يساعد في فهم أعمق لنصوص الإسراء والمعراج. إن اللغة الجعزية، التي كُتب بها نص أخنوخ الإثيوبي، ليست عصية على الفهم، وفق حدود معرفتنا الضيقة بها، على الناطق باللغة العربية. ونحن نعتقد افتراضاً أن تلك اللغة كانت متداولة عبر الجعزيين في الحجاز غير البعيد عن الحبشة. من هنا، فنحن نعتقد افتراضاً أن *سفر أخنوخ الإثيوبي* كان متداولاً أو متاحاً للتداول بين سكان الحجاز في تلك المرحلة. وهكذا، فإن قراءة النص بلغته الأصلية، الجعزية، يمكن

سنين، ثمّ سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه الإيمان به، إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث، فاستمرّوا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه.

وكان قد نشأ على يديه "اليسع بن أخطوب" عليه السّلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فأيّ شيء جاءه فليركبه، ولا يهبه، فجاءته فرس من نار، فركب، وألبسه الله النّور، وكساه الرّيش، وكان يطير مع الملائكة ملكًا إنسيًا، سماويًا أرضيًا."

أن يلقي الضوء على القصص والألفاظ المشتركة بين هذا السفر وحكايات الإسراء والمعراج. من هنا، لم نجد كثيراً من الإفادة في ترجمة هذا العمل الهام عن نسخة إنكليزية مترجمة غير محققة، وفي كلامنا هنا دعوة لمن يجيد اللغتين، الجعزية والعربية، لترجمة *سفر أخنوخ الإثيوبي* إلى اللغة العربية، ففي ذلك إفادة – ربما – هامة للغاية.

إدريس (أخنوخ) هو الشخصية الأجدر بالدراسة[1]، عند معالجة هذا الاتجاه المعاكس: إنه شخصية غامضة لا يمكن فهمها دون الاستعانة بالأدب الأبوكريفي أو المنحول.

بعودة إلى المدراش، نعرف أخنوخ كان صانع أحذية وأنه كان ينشد لله أناشيد أثناء عمله. وأخنوخ كان الشخص الوحيد في ذلك الزمن الذي أنشد لله أناشيد أو حتى فكّر بالله بكلّ هذه الكثرة. فمعظم الأحياء في ذلك الزمن كانوا منحدرين من لامك الشرير (تك 14 : 23)، وهو متبجّح اعتاد أن يتفاخر بأنّه قتل رجلاً فقط لأنّه آذاه، وطفلاً فقط لأنه صَدَمه.

---

(1) في الأدب الأبوكريفي المسيحي يظهر إيليا وأخنوخ مترابطين على نحو شبه دائم: فعند باب الجنة، يقابل يسوع شخصين، الأول هو أخنوخ، "الذي أفرح الله، فنقله إلى هنا". والثاني هو إيليا (The pilate Cycle, 9(25)، أنظر أيضاً، *المصدر السابق* 1، 9(25). عن المسيح الدجال، تقول *رؤيا بطرس*: إن أخنوخ وإيليا سوف يأتيان لتعليمهما أن هذا هو الدجال (The Apocalypose of pete , 2). في *رؤيا بولس*، يصادف بولس في الجنة كلاً من أخنوخ، "كاتب الأخيار"، وإيليا (The Apocalypse of paul, 20).

كان أخنوخ رجلاً صالحاً وصانع أحذية صالحاً أيضاً. فلم يكن ذلك الشخص الذي يعيش ورأسه بين الغيوم ممضياً كل وقته في الدراسة والصلاة. لقد كان يبذل كل جهده لصنع أفضل ما يمكن الحصول عليه من الأحذية، وليصبح أفضل صانع أحذية. كانت حرفته شريفة. وكان يقوم بها بعناية شديدة. وقد أحب الله هذه الصفة في أخنوخ كثيراً، لأنه كان يقلّد بها حقيقة الله ونزاهته[1].

من ناحية أخرى، ففي الأدب الأبوكريفي (عند الكاثوليك والأرثوذكس لا يعتبر هذا النصّ م... ولاً) اليهودي نجد مقولات مشابهة حول اتجاه أخنوخ المعاكس. في سفر "يشو... ن سيراخ" نقرأ: "أخنوخ أرضى الرب فنُقل، وهو عبرة لتوب... جيال"(16:44)؛ "لم يُخلق على الأرض أحد مثل أخنوخ، الذي نُقِل عن الأرض".(14:49)

في العهد الجديد يطالعنا ذكر هامشي لأخنوخ، لكنه هام بالنسبة لنا لأنه يتحدّث تحديداً عن حكاية صعوده إلى السماء. ففي (عب11 : 5)، يقال: "بالإيمان رُفِع أخنوخ لئلا يرى الموت، فلم يجده أحد لأن الله أخذه. وشهد له قبل رفعه بأن الله قد رضي عنه، وبغير الإيمان يستحيل نيل رضا الله.

---

(1) هذا النص الهاغادي مأخوذ عن "The Torah La -Am Tutorial" - برنامج تعليمي توراتي عن طريق الحاسوب. إنتاج: .Torah Production, Milwaukee, Wisconsin, 1993. Version 1.0.1.

لكننا في رسالة القديس يهوذا من العهد الجديد ذاته، نصادف نصّاً مغرقاً في أهميته، يمكن اعتباره أحد المفاتيح لفهم شخصية أخنوخ: "وقد تنبّأ عنهم أخنوخ سابع الآباء من آدم، إذ يقول: هوذا الرب قد أتى في ألوف قديسيه، ليجري القضاء على جميع الخلق ويخزي الكافرين جميعاً في كل أعمال الكفر التي ارتكبوها. وفي كل كلمة سوء قالها عليه الخاطئون الكافرون (14 -15).

إذن! كانت مسألة الكتابات المنحولة المتعلقة بأخنوخ، التي "قالها عليه الخاطئون الكافرون"، معروفة زمن كتابة رسالة القديس يهوذا، التي يعيدها النقاد الكتابيون إلى العقد الثامن من القرن الميلادي الأول. - فكيف نفهم ذلك؟

لاشكّ أن أفضل طريقة لفهم لغز"كلمة" السوء التي "قالها عليه الخاطئون الكافرون"، برأينا، هي الاستعانة بأدب "أخنوخ الأبوكريفي"، الذي كان موضع دراسة مكثفة في الآونة الأخيرة.

أسفار أخنوخ المنحولة:

ثمة عدد من الأسفار الهامة المتعلقة بأخنوخ ، والتي تصنف تحت عنوان "الأدب الأبو كريفي ـ المنحول"، فالفكرة المختصرة للغاية الواردة في سفر التكوين حول نقل هذا الشخص إلى السماء أدّت إلى توسّع في معالجة الموضوع في الأدب اللاحق، خاصة وأن الانتقال إلى السماوات والتنقّل في رحابها يمكن أن يكون البؤرة الأفضل لعمل المخيلة البشرية. وهكذا كان الاعتقاد بأن أخنوخ يعرف كل أسرار السماء.

آ - سفر أخنوخ الأثيوبي:

سفر مكوّن 108 إصحاحات، مقسّمة بدورها إلى خمسة فصول. يرجع هذا الكتاب، وفق أجزائه، إلى الأعوام 150 -100 ق.م، كما يقول بليفر. ويقترح بعضهم أنه جمع عام 95ق.م.أو63 ق.م. لغة السفر غير مؤكدة: العبرية أم الآرامية أم مزيج من اللغتين؟ لكنه موجود في نسخ باللغة الأثيوبية ـ نسخ يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر. كذلك توجد أجزاء منه في مخطوطتين يونانيتين من القرن الثامن، اكتشفتا بمصر عامي 1886/1887. لكن أجزاء هامة منه اكتشفت بين مخطوطات قمران باللغة الآرامية.

إن ما يهمنا في هذا السفر هو رحلات أخنوخ بصحبة الملائكة (الفصل الأول ؛ 17 -36) إلى أرجاء الأرض، وإلى موضع عقاب

الملائكة الساقطين، وإلى الهاوية، شجرة الحياة، وإلى القدس بجبالها وأنهارها ومجاريها، وإلى الجنة. وقد ترجمنا هذا السفر إلى العربية.

ب - سفر أخنوخ السلافي:

كتاب ينسب إلى أخنوخ لا نعرف عنه شيئاً إلا من نصين منشورين باللغة السلافية؛ ورغم وجوه الشبه بين السلافي والإثيوبي، إلا أنّه يجب عدم الخلط بينهما. كُتب هذا السفر ـ أو بعضه ـ باللغة اليونانية، وربما أنّ بعضه مكتوب بالعبرية أيضاً.

إنّ الموضوع الأساسي في هذا السفر هو سياحة أخنوخ في السموات السبع. إضافة إلى بعض المسائل المتعلقة بوصايا أخنوخ لأولاده، أو بالأقوال التي أعطيت له.

ج - سفر أخنوخ اليهودي:

وهو من تأليف علماء اليهود. ويشبه إلى حد ما سفر أخنوخ السلافي، وينسب إلى الربي (رتبة دينية يهودية) اسمعيل، إحدى الشخصيات الهامة في ثورة بار كوخبا. وتوجد إشارة إلى هذا السفر في التلمود.

ما يهمنا في سفر أخنوخ اليهودي هو موضوعة اختراق الربي اسمعيل للسموات الست، لمقابلة أخنوخ في السماء السابعة، حيث يحدّثه الأخير عن بعض حوادث حياته وعن حياة آدم.

اللغز... وهوروفيتس !

نستطيع القول أخيراً ، إنّه بعد جولة لا بأس بها في "علم الدين المقارن" ، فإننا نعتقد أن لوحة الفهم العلمي للدين ، تشبه إلى حد كبير لوحات "اللغزpuzzle" المنتشرة كثيراً هذه الأيام. فكلما ازداد عدد المربّعات المساهمة في تكوين لوحة اللغز ، كلّما ازداد فهمنا لمضمون اللوحة. لكن في لغز الفهم العلمي للدين ، يصعب جداً أن تكون اللوحة كاملة.

إنّ فهم مسألة دينية داخلياً فقط ، يشكّل ربما جزءاً لا بأس به من قطع اللوحة ، لكنّه نادراً ما يغطي اللوحة بالكامل ــ ويظل بالتالي الفهم قاصراً .

فعلى سبيل المثال ، باعتقادنا ، يصعب جداً فهم لوحة الإسراء والمعراج الإسلامية الضخمة ، بمعزل عن "القطع" من التراثين الزرادشتي واليهودي ، إضافة إلى مساعدة "قطع" الإيتمولوجيا الفارسية ، الآرامية ، أو الأثيوبية القديمة. وهذا للأسف ، غير موجود حتى الآن ، بشكل علمي أو غير علمي ، في الشرق العربي . وكل ما يقدّم عموماً تحت راية الدين المقارن هذه الأيام ، باللغة العربية ، لاعلاقة له بالدين المقارن كعلم ، ويفضّل أن يصنّف تحت عنوان "الدفاعيات" أو "اللاهوت" أو "التبشير الديماغوجي".

إذن ! إذا ما أردنا فهم موضوعة الإسراء والمعراج الإسلامية بأفضل وجه ممكن، لابد من موازاتها بنصوص مشابهة من ديانات مجاورة؛ دراسة ايتمولوجيا "المعراج" و"البراق" بعمق؛ وتعيين طبوغرافيا "المسجد الأقصى" بشكل دقيق. والنصوص الداخلية لا يمكن أن تقوم بكلّ ذلك منفردة.

النصّ الذي سنقدّمه لاحقاً، والذي هو محاولة بسيطة لفهم اللوحة بطريقة أكثر شمولاً، هو نصّ يتضمّن مجموعة مقالات مترجمة عن الإنكليزية والألمانية، تغطي الموضوع من جوانب مختلفة. النصوص الإنكليزية مأخوذة عن "*موسوعة الإسلام*، نسخة مكتبة الأسد"، والنص الألماني مأخوذ عن مقالة منشورة في مجلة *الإسلام*.

هورفيتس، المفكّر الألماني الهام، هو كاتب تعرّفت عليه لأول مرة عبر كتاب شباير، *الحكايات الكتابية في القرآن*، والذي تحدّث في مقدمته عن "أستاذه هورفيتس"، الذي افتقده العلم قبل أوانه.

لاشك أن بحث هورفيتس مختصر نوعاً ما، وقد يكون ما كتبه "شريكه" حول المسألة ذاتها أكثر تفصيلية، لكن نصّ هورفيتس، على اختصاريته، برأينا، يظل أفضل النصوص التي تناولت "الإسراء والمعراج" حتى الآن، والذي يمكن الانطلاق منه إلى بحوث أشمل وأعمق، خاصة وأن أرشفة الوثائق حاسوبياً، صارت توفر على الباحث الكثير من الجهد والوقت.

1 - معراج

الكلمة في الأصل تعني "سلّماً" ثم صارت تعني "صعوداً" وبشكل خاص "صعود النبي" إلى السماء.

في الآيات (81 :19 -25 : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ 53 : 1 — 21 : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ، يصف القرآن رؤيا يظهر فيها لمحمّد رسول سماوي ؛ وتتناول الآيات (53:12-18) مهمة أخرى من نوعية مشابهة. في الحالتين، يرى النبي شخصية تقترب نحوه

من البعيد، لكن لاشيء يوحي أنه هو ذاته حُمِل إلى السماء. مع ذلك، فالأمر مختلف في التجربة التي تلمّح إليها الآية 17 : 1 ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾. لهذه الآية، يعطي التقليد تفاسير ثلاثة:

1 - في التفسير الأقدم، الذي يختفي من كتب التفسير الأكثر حداثة، نتبين تلميحاً إلى صعود لمحّمد إلى السماء. وهذا الأمر هو الأهم، لأن هذه التقاليد[1] تحتفظ أيضاً بالمعنى الأصلي لقصة الصعود[2]. هذا التفسير يقدم التعبير "المسجد الأقصى" بمعنى "السماء"؛ والواقع أن "الإسراء" في التقليد القديم يستخدم غالباً كلفظ مرادف "للمعراج"[3]. في هذه الآية يمكن أن نجد شاهداً على رحلة النبي إلى العوالم السماوية[4]، لكنه شاهد محدّد فقط بالتلويح إلى المغامرة، دون ذكر لأي شيء عن الطريقة التي تطورت فيها.

---

(1) *البخاري*، القاهرة، 1278، 2، 183؛ باب كان النبي تنام عينه ولا ينام قلبه، رقم2؛ *مسلم*، بولاق، 1920، 1، 59: الطبري، *تفسير*، 15، 3؛ قارن: B. Schrike, *Die Himmelreise Muhammed,s* in *Der Islam* VI (1015), 12, 14.

(2) A. A. Bevan, *Mohammed,s Ascension to Heaven* in *Belhefte zu Zeitschrift für die Altesten Wissensch. Gewidmet, xxvii = Studien ...Julius Wlhausen...gewidmet*, Giessen 1914, 56; Schrike, *op. cit.*

(3) أنظر: *Isl.* 6, 14

(4) B. Schrike, *Die Himmelreise Muhammed,s* in *Der Islam*, 13, I; Horovitz, *Muhammed,s Himmelfahrt*, in *Isl.*, (1919), 161 ff.

2 - التفسير الثاني، وهو الوحيد المقدّم في كل التفاسير الأكثر حداثة، ويفسّر المسجد الأقصى على أنه "القدس" وهذا دون سبب واضح بعينه. ويبدو أن الأمر كان وسيلة أموية لرفع سوية قداسة القدس مقابل قداسة البيت الحرام[1] الذي كان يحكمه آنذاك عبد الله بن الزبير. ويبدو أن الطبري يرفض هذا التفسير. فهو لا يذكره في *تاريخه*، بل يبدو أنه يتبنى التفسير الأول[2].

يتفق التفسيران الأول والثاني في اعتبارانّ "عبد" الواردة في الآية 17 : 1 تعني محمداً، ويبدو أنّ هذا صحيح[3]. واعترف الإجماع بالتفسيرين كليهما، وحين ظهرت النسخة الأموية، وُفّق بين الاثنين حيث أضفي على الإسراء المعنى الخاص لرحلة ليلية إلى القدس. أما الصعود، وقد فقد معناه الأصلي، فقد تبدّل زمنه، حيث جُعل في حقبة أكثر تأخراً مما قدمه ابن اسحق، في الواقع، في أقدم *سيرة* نبوية بين أيدينا[4]. تسير قصّة الرحلة الليلية إلى القدس على النحو التالي:

---

(1)Goldziher, *Muh.*, *Stud.*, 2, 55 – 56; *Isl.*, 6, 13 ff.

(2) أنظر: *Isl.*, 6, 2, 5, 6, 12, 14. الطبري، *تاريخ*، 1: 1175؛ وهو مقطع كامل يبدو وكأنه يمثّل رأياً نهائياً للمؤرخ تم تشكيله بناء على اختبار كامل للأدلة التي أمامه؛ قارن: Bevan, *op.*, *cit.*, 57.

(3) *Isl.*, 6, 13, no., 6.

(4) Bevan, *op.*, *cit.*, 54.

ذات ليلة، بينما كان محمّد نائماً بجوار الكعبة في مكّة[1]، أيقظه المَلَك جبريل الذي قاده إلى حيوان مجنّح يدعى البراق، واعتلى مع محمد ظهر هذا الحيوان وسافرا معاً إلى القدس. في الطريق إلى هناك يقابلان عدّة قوى خيّرة وشريرة[2] ويزوران الخليل وبيت لحم[3]. في القدس يلتقيان بإبراهيم، موسى ويسوع، حيث يُعطى وصف لهم[4]. تقام الصلاة. ويؤم محمد كل الأنبياء الآخرين ويعطى بالتالي أفضلية عليهم جميعاً. الاجتماع في القدس يشبه تجلّي يسوع على جبل طابور[5] وربما أنه شُكّل على نسقه.[6]

3 - يعتمد التفسير الثالث للآية 17 : 1 على الآية 17 : 60 ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ حيث تفسّر رؤيا بأنها *إسراء*. هذا يعني أنّ الرحلة الليلية لم تكن رحلة فعلية بل رؤيا. فمحمد

---

(1) أو في بيت أم هانئ؛ أنظر: *Isl.*, 6, 11.

(2) *مشكاة المصابيح*، دلهي، 1268، 521 — 522؛ البنوي، *مصابيح السنة*، القاهرة، 1294، 2، 179.

(3) النسائي، *سنن*، القاهرة، 1312، I، 77 — 78؛ *النويري*، مخطوطة فارنر، 2آ، ص ص 93، 11، 7 — 10.

(4) مثلاً: *البخاري*، القاهرة، 1278، 2، 148.

(5) متى 17 : 1؛ مرقص 9 : 1؛ لوقا 9 : 28.

(6) قارن: *Isl.*, 6, 15; Goldziher in *RHR* 31, 308.

وهو واقف في "الحجر" يرى القدس ويصفها للقرشين غير المصدقين له[1]. والقصة تحاك ضمن كلية مترابطة كما يلي: يسافر محمّد في الليل إلى القدس؛ ويعود إلى مكّة ويصف مغامراته؛ قريش لا تصدقه والمسلمون يرتدون؛ يحاول محمد الدفاع عن حقيقة قصته، لكنه ينسى التفاصيل؛ عند ذلك، يجعله الله يرى القدس.[2]

في القصص الأكثر حداثة وتطويلاً، تتضخم الراوية على نحو مضطرد[3]. فيقال إن النبي أجرى سبعين ألف حوار مع الله، مع ذلك فالرحلة بكاملها كانت سريعة إلى درجة أنه حين عاد، كان سريره ما يزال دافئاً، وكأس الماء الذي قلبه بقدمه حين غادر مسرعاً، لم يكن قد فرغ بعد.

لقد ناقش اللاهوتيون المسلمون مسألة ما إذا كان الإسراء قد حصل أثناء نوم محمد أم صحوته، وما إذا كانت روحه هي التي أسرت أم جسده. يقول الرأي الأرثوذكسي إن الرحلة تّمت بجسد محمد وأثناء صحوته.والطبري في *تفسيره* (13، 15) يدعم بحسم شديد هذا المعنى للأسباب التالية:

---

(1) *البخاري*، 2، 22، 3، 102؛ *مسلم*، 1، 62؛ الطبري، *تفسير*، 15، 5، 1، 14 وما بعد.

(2) *Isl.*, 15 - 16.

(3) أنظر مثلاً: A. Müller, *Der Islam in Morgen-und-Abendland*

1 – لو أنّ النبي لم ينتقل جسدياً، فالحدث لا يقدّم أيّ دليل على مهمته السماوية، وأولئك الذين لم يصدقوا القصّة لا يمكن اتهامهم بالكفر؛

2 -يقال في القرآن إن الله "أسرى بعبده" وليس "أسرى بروح عبده"؛

3 -لو أنّ النبي انتقل بروحه فقط، فليس ثمة حاجة لخدمات البراق، فالحيوانات تستخدم لحمل الأجساد وليس الأرواح[1]. لكن الفلاسفة والصوفيين غالباً ما يفضلون تفسيراً مجازياً[2].

يتناول القرآن عدة مرات إمكانية الصعود إلى السماء. ففي الآيتين 40: 36 – 37: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ يأمر فرعون هامان ببناء صرح كي يطال أسباب السماء ويطلع إلى إله موسى (قارن أيضاً: 28: 3 -4). وفي(52: 38) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ يسأل

(1) Schrike, *op. cit*, 13; Bevan, *op., cit.*, 60؛ الطبري والبيضاوي والبغوي، *تفسير*، 17: 1.

(2) Goldziher, *Geschichte der Kultur der Gegenwart in Philosophie in Mittelalter*, 1\5, 3\9.

المستكبرون ما إذا كان لديهم سلّماً فاستطاعوا سماع الصوت السماوي. أما الآية (6 : 35) ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ، فتهتم بالآثار التي قد تحدثها على مستمعي النبي الآيات التي يقدّمها بمساعدة سلّم إلى السماء. كذلك قد تحدّث الشعراء القدامى عن صعود إلى السماء بوساطة سلّم، كوسيلة للنجاة من شيء مطلوب اجتنابه(زهير، *المعلقة*، 54: ؛ الأعشى، رقم 15، 32).

يقدم الحديث النبوي تفاصيل أخرى لمسألة صعود النبي. والصعود هنا مرتبط عادة بالرحلة الليلية إلى القدس، فالصعود إلى السماء يتمّ من هذا الحرم المقدس. مع ذلك فلدينا أيضاً روايات محفوظة والتي تجعل الصعود يبدأ من مكة ، دون ذكر الرحلة إلى القدس. في إحدى هذه الروايات، يحدث الصعود بعد "غسيل القلب" مباشرة[1]. ففي الطبري، *تاريخ*[2] ، نقرأ أنه حين نزل الوحي على النبي وكان نائماً في الكعبة، كما اعتادت قريش أن تفعل، جاء إليه الملكان جبريل وميكائيل، وقالا : بشأن من صدرت لنا الأوامر؟ وهو ما أجابا عليه

---

(1) أنظر: *البخاري*، صلاة، باب 1 ؛ الحج، باب 76 ؛ المناقب، باب 42 ؛ أحمد بن حنبل، مسند، 4 :207، 5 :143.

(2) أنظر: 1 :1157 – 1158.

في القدس كلاً من إبراهيم وموسى وعيسى في الوقت ذاته، لا يكون حضور كلّ هؤلاء الأنبياء في القدس الأرضية مفهوماً على هذا النحو. لكنه لا يعوز أية سمة مُدركة إذا كانت بيت المقدس[1] تعني منذ البداية "أورشليم السماوية"[2]. وربما أنّ عبارة "الذي باركنا حوله" اعتبرت على أنها تدعم الإشارة إلى القدس؛ وحين ترد هذه الكلمات في موضع آخر من القرآن فهي إنما تشير إلى مواقع في الأرض المقدسة[3]. وفي حين لا تقول القصص التي أوردناها سابقاً شيراً أن جبريل أخذ النبي إلى السماء، لكنها تصمت عن ا ˊ يعية، تضيف أخرى أن سلّماً (معراج) استخدم لأجل الصعود[4]. لقد كان هذا السلّم ذا منظر رائع؛ وهو السلم الذي يستدير إليه الموتى بأعينهم ... بمساعدته تصعد أنفس البشر إلى السماء. قد يتماثل هذا السلّم مع سلّم يعقوب الذي يرد في سفر التكوين (28 : 12)؛ أما سفر *اليوبيل الإثيوبي* فيسمّى هذا السلّم "معارج"؛ من جهة أخرى، فالسورة (4، 70 : 3) ﴿مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تسمّي الله "ذو المعارج"، "تعرج الملائكة والروح إليه". وبحسب الآية (32 : 5) ﴿يُدَبِّرُ

---

(1) *ابن هشام*، 267.

(2) Horovitz, *Muhammed,s Himmelfahrt*, 167

(3)H. Lammens, *Les sanctuaries préislamites dans L,Arabie occidentale*, in *MFOB*, xi (1926), 72.

(4) أنظر: *ابن هشام*، 268؛ الطبري، *تفسير*، 15 : 10؛ *ابن سعد*، 1 : 1 : 143.

الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعرج "الأمر" إلى الله ؛ أما الآيتان 57 : 4 و34 : 2 : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ؛ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ فتقولان إن الله يعلم "ما ينزل من السماء وما يعرج فيها"، وفي الآية 43 : 33 : ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ، هنالك إشارة إلى المعارج في بيوت البشر. لقد كان المصطلح معروفاً، وربما أنّه مأخوذ عن الأثيوبية[1]. عند المندائيين، أيضاً، السلّم (*سومبتيلا*) هو وسيلة الصعود إلى السماء[2] ؛ وهنالك موزايات لسلّم الموتى في *أسرار ميثرا*[3] ؛ أما عمود الصبح المانوي[4] ؛ الذي يؤخذ الميت بوساطته إلى عالم القمر، فهو مواز أكثر بعداً.[5]

---

(1) Horovitz, *op., cit.*, 174 f
(2) *Ginza*, tr. M. Lidzbarski, 49, 208, 4090
(3) Tor Andrae, *Die Person Mohammeds* 54; Wetter, *Phos* 114, n.s
(4) الفهرست، 335، 10.
(5) Bevan, *op., cit.*, 59

وكما يرتبط المعراج بالصعود، كذلك أيضاً فالبراق يرتبط بالرحلة الليلية إلى القدس؛ لكنه وجد طريقه إلى قصّة الصعود في زمن مبكر[1].

عند بوابة كلّ سماء من السموات السبع التي تجوّل النبي عبرها، يُسأل جبريل عن اسمه واسم رفيقه[2]. وبعد أن يعطي الاسمين، يُسأل ثانية ما أذا كان محمّد قد بُعث نبياً[3]. وهذا يشير أيضاً إلى أن الصعود كان ينتمي أصلاً إلى الحقبة التي أعقبت دعوته مباشرة[4]. في كل سماء يقابلان أحد رسل الله السابقين: عادة ما يكون آدم في الأولى، يحيى وعيسى في الثانية، يوسف في الثالثة، إدريس في الرابعة، هارون في الخامسة، موسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة؛ هنالك أيضاً بعض الفروقات، كذلك يظهر آدم كديّان لأرواح الموتى[5]. لا تخبرنا المصادر الإسلامية عن رسل الله الآخرين ـ إضافة إلى وصف مظهرهم الشخصي ـ غير أنهم حيّوا محمّداً: ثمة استثناء هو موسى، الذي يقول

---

(1) أنظر: *البخاري*، مناقب، باب 42؛ أحمد بن حنبل، *المسند*، 4: 207؛ 5: 387؛ الطبري، *تفسير*، 15: 12.

(2) *البخاري*، صلاة، باب 11؛ الطبري، *تفسير*، 15: 4؛ الطبري، *تاريخ*، 1: 1157.

(3) "أوقد بعث إليه" هي تصليح لـ "أوقد بُعث" الموجودة أصلاً في الطبري، *تاريخ*، 1: 1158؛ أنظر: Hurgronje, in *Isl.* , 6: 5, n. 4.

(4) Schrieke, *op., cit.*, 6

(5) Schrieke, *op., cit.*, 6; Andrae, 44, 45؛ أحمد بن حنبل، المسند، 5: 143؛ قارن: *Apoc. Mosis*, 37.

إن محمّداً أعلى منه في نظر الله وإنّ أتباعه سيفوقون عدد أتباعه هو – موسى[1]. في مناسبة أخرى، يدخل محمّد في حوار مع موسى بعدما فرض الله عليه خمسين صلاة إجبارية في اليوم. وبناءً على نصيحة موسى، يطلب محمّد التخفيف عدّة مرات، وفي كل مرّة يمنحه الله إياه؛ لكن حين يقول موسى إن خمس صلوات ما تزال كثيرة جداً، يرفض النبي طلب تخفيفها[2]. وبحسب بعض النسخ، فإن موسى يقيم في السماء السابعة والمحاورة هناك تبدو أكثر طبيعية. زيارتا الجنّة وجهنم جزء من الصعود. الجنّة، بحسب نسخ أخرى، موجودة في السماء الأولى، وفي نسخ غيرها لا تذكر إطلاقاً. والعبارات حول أنهارها متناقضة[3]. أما سدرة المنتهى، فغالباً ما توضع في السماء السابعة. وفي أحد الأوصاف، تُجعل جهنم تحت السماء الأولى[4]. وبحسب وصف آخر، نجد أن مكان عقاب الملعونين هو في الطريق بين السماء والأرض، ومحمّد يراه في رحلته إلى بيت المقدس[5].

(1) الطبري، *تفسير*، 11 : 15.

(2) من أجل أن سفر التكوين (23 : 28 وما بعد) هو النموذج البدئي لتلك القصة؛ قارن: Goldziher, Muh., Stud., .i, 39; Schrieke, 19; Andrae, 44. 45

(3) Schrieke, 19.

(4) *ابن هشام*، 269؛ الطبري، *تفسير*، 4 : 10.

(5) *الطبري*، 15 : 101؛ أيضاً: ابن حنبل، *المسند*، 1 : 257، 353؛ 2 : 120، 182، 224، 231، 239.

في أقدم المصادر يُقال إن محمداً ظهر أمام عرش الله في السماء السابعة وإن المحادثة حول فروض الصلوات حدثت هناك، لكن المحاورة بين الله والنبي نادراً ما تتناول مسائل أخرى[1]. مع ذلك فقد ظهر اعتراض على التأكيد بأنّ محمّداً رأى الله في هذه المناسبة وجهاً لوجه[2]. كذلك فقد ظهر أيضاً التساؤل في وقت مبكر ما إذا كان الصعود حلماً أم حقيقة، وما إذا كانت نَفْس النبي قد حُملت وحدها أم مع جسده أيضاً[3].

بجانب هذه التفاصيل، يحتوي الحديث النبوي على تفاصيل أخرى ناقشها أسين[4]. وفي توسيع قصة صعود النبي، استخدم الكتّاب المسلمون نماذج وفرتها لهم الأبوكاليبتات اليهودية والمسيحية. وربما أن بضع سمات جاءت من الزرادشتيين، من الأرتا فيراف *Arta viraf*[5]

من أجل العقاب في جهنم، قارن: Schrieke. 17; Andrae, 44; Horovitz, 123; Reitzenstein, *Das mandäische Buch der Grösse*, 18 ff; Lidzbraki, *Johannisbuch*, 98 ff; *Ginza*, 183.

(1) الطبري، *تفسير*، 27: 26؛ ابن حنبل، *المسند*، 4: 166؛ Andrae, 70

(2) Andrae, 70 f.

(3) Caetani, *Annali*, Intr. § 320; Andrae, 72p Bevn, 60; Schrieke, 13, n. 1

(4) Asin, *Escatologia*, Madrid, 1917, 25 – 71; idem, *Dante y el Islam*, Madrid, 1922, 25 – 71.

(5) قارن أعمال: أندرا، بيفان، شريكه، هوروفيتس، وف. بوسيه في *ARW*، 4: 136 – 169.

الروايات المتأخرة:

استخدم صعود النبي لاحقاً كأنموذج لوصف رحلة أنفس الموتى إلى عرش القاضي الإلهي[(1)]. أما بالنسبة للصوفيين فهو رمز لارتقاء النفس من قيود الحسية إلى أعالي المعرفة الصوفية. هكذا يفسّره ابن عربي في كتاب *الإسراء إلى مقام الأسرى*.[(2)] وفي *فتوحاته* يجعل مؤمناً وفيلسوفاً يقومان بالرحلة معاً، لكن لا يصل إلى السماء السابعة إلا الفيلسوف، في حين لا يظلّ سرّ مخفياً عن المسلم التقي[(3)]. أما *رسالة غفران* أبي العلاء المعري فهي محاكاة ساخرة Parody لروايات المعراج التقليدية.[(4)]

بحسب ابن سعد، 1 : 147، فقد حدث الإسراء في السابع عشر من ربيع الأول، والصعود في السابع عشر من رمضان. لكن ليلة السابع والعشرين من رجب - موعد هام أيضاً[(5)] في تاريخ مكة – ما تزال منذ قرون تعتبر ليلة المعراج، وذلك من قبل المؤمنين؛ وهذه الليلة، كليلة المولد النبوي، مكرّسة لقراءة قصة العيد[(6)].

---

(1) Asín, *Escatologia*, 59 - 60
(2) f. Asín, *Escatologia*, 61
(3) Asín, *Escatologia*, 63 f
(4) Asín, *Escatologia*, 71

(5) S. Snouck Hurgronje, *Mekk*, ii, 71.

(6) أنظر: العبدري، مدخل، 1 : 143 وما بعد؛ G. A. Herkltos, Qanoon-e Islam, 165; E. W. Lane, *Manners and Customs*, London, 1892, 474 – 6; Snouck Hurgronje, *The Achehnse*, 219:1; Asín, *Escatologia*, 97.

2 - في الأدب العربي:

في الكتابة كما في الكلام، عرفت الظواهر الكتابية الأبوكاليبتية أحد أشكال التوسيع والذي من غير الملائم حصره دائماً ضمن حدود التحليل اللاهوتي. ولابد من فهم أدب المعراج وفق معاني كل روايات الكتّاب المعروفين أو غير المعروفين المكرّسة لصعود محمّد.

بعكس فكرة الإسراء، المدونة بكونها على مستوى أفقي، فإنّ فكرة رفع كائن غير ملائكي لا تجد شاهداً يدعمها في القرآن. وهكذا فهذه المعجزة أضحت تُسرد في تاريخ لاحق. لكننا لسنا في موقع يؤهلنا لتحديد تاريخية هذه الصيرورة. ويظلّ لابد من القيام بدراسة صور الرحلة الليلية. وتحليل الأحاديث، التي تنجو من الرفض اللاهوتي، يمكن أن يقدّم مساهمة هامّة لدراسة المخيّلة في الإسلام.

بعض روايات المعراج هي لكتّاب معروفين، أما تلك الأكثر تداولاً، والتي تعزى للإمام ابن عبّاس، ابن عم النبي، فينظر إليها غالباً على أنّها منحولة. مع ذلك، تظلّ نصّاً حاسماً. فابن عبّاس، الذي كان شخصية تاريخية وميثولوجية في آن، صار بالفعل "مفسّر الأمة"، الأنموذج البدئي للشارح فيها، فهو "يُعزى لأصول الأمة في لحظة تأسيسها"[1].

(1) قارن: Claude Gilliot, " *Portrait "mythique" d'Ibn 'Abbās* ", in *Arabica*, xxxii (1958), 127 – 184

يجب تصوير هذه الرواية على أنها "نصّ يتضمن انفتاحاً على أوصاف المخيلة مع احترام أقسام الشرع الرئيسة"(1).

الكتّاب الآخرون هم علماء اقتبسوا أدب المعراج، ربما حتى لا يسمحوا له بالوصول إلى تطورات مربكة. والقائمة التالية تتيح لنا أن نثبت هذا:

أبو القاسم عبد الكريم القشيري (مات عام 1073/465)، الذي نُشر كتابه *كتاب المعراج* عام 1964.وكان لاهوتياً أشعرياً شافعياً وصاحباً *للرسالة* الشهيرة.

أبو الحسن أحمد بن عبد الله البكري، وهو شخصية مثيرة للجدل إلى حد كبير، وكما يبدو فقد عاش في النصف الأخير من القرن السابع /الثالث عشر. زُعم أن قراءة عمله *حياة النبي* كانت محظورة. أما مخطوطته *كتاب قصّة المعراج* فتمدّنا بنسخة قريبة جداً من نسخة ابن عبّاس.

محمد بن أحمد بن علي الغيطي (مات عام 948/ 1576). وهو محدّث شافعي، وصاحب كتاب *الابتهاج بالكلام على الإسراء والمعراج*، المطبوع عام 1970 .

(1) Jamel-Eddine Bencheikh, *Le voyage nocturne de Mahomet*, Paris, 1988.

البرزنجي، وهو مفتي المدينة الشافعي وأحد دعاتها، وصاحب *قصة المعراج*. أمّا حفيده، جعفر بن اسماعيل (مات عام 1317/ 1899، وهو قانوني ومختصّ بسيرة النبي، فكان أيضاً مفتياً شافعياً في المدينة، وهو صاحب كتاب *تاج الابتهاج على النور الوهاج في السيرة والمعراج*، المطبوع في القاهرة عام 1314 وبهامشه كتاب جدّه *قصّة المعراج*.

تختلف نسخة البرزنجي بشكل محسوس في لغتها وفي بنيان روايتها. فنحن هنا نتعامل مع نسخة جافة، وهزيلة للغاية. والتي من الواضح أنها لعالم يتوق لاحتواء المخيلة ضمن حدود مقبولة.

لا نستطيع تقدم أية تواريخ لمحمد ظلام الحلبي، صاحب كتاب *السراج الوهاج في ليلة الإسراء والمعراج*، المطبوع في حلب دون تحديد للتاريخ، والذي أراد مؤلفه أن يكون أفضل من كلّ النسخ التي ظهرت قبله. وهو يوضح انّه حذف كلّ إسناد، لاهتمامه بتوضيح المتن. مع ذلك فهو يضيف أنّه ألّفه بالاعتماد على "أعمال عالية المستوى ونسخ شهيرة لقصّة المعراج". ووفقاً لكل الأدلّة، فهي في الواقع نسخة متأخرة تحتفظ بأساسيات ابن عبّاس، مع إغنائها بالتفاصيل. أكثر من ذلك، نستطيع ان نفهم بسهولة لماذا يهمل الكتاب تقديم مراجعه: إنه يتناول قصصاً، والتي هي، بمعنى ما، ملكاً عامّاً. إنّه يعّبر عن الرؤيا التخيلية للجماعة ويوسّع موثوقيتها.

يتطوّر أدب المعراج في مجموعة من ثلاث روايات عجائبية ذات علاقة بالنبي:

آ -الرواية حول تطهيره على يد الملائكة، الذين يفتحون صدره وينظفون قلبه من كل الآثام، لكن في وقت لاحق اعتبر هذا الفعل أحياناً نوعاً من التحضير للصعود. وهكذا فإضفاء الصبغة المثالية على شخصيته حُمل إلى حده الأقصى. لا يذكر فتح الصدر غير نسخة البرزنجي. فالكتّاب الآخرون يكتفون بنوع من التطهّر.

ب -رواية الرحلة الليلية من مكّة إلى القدس على البراق. وهذه الرواية أخضعت لعملية تضخيم قبل أن تُربط بالمعراج، رغم وضع تاريخين مختلفين للحدثين. وفي بعض الروايات، يلتقي محمّد في رحلته ببعض من أولئك الذين يعذبون في جهنم[1].

ج -رواية الصعود التي تدعى كذلك بالمعنى الضيّق للكلمة والتي تتضمن الزيارة إلى السموات السبع، مع نظرة خاطفة إلى جهنم، النزول عند العرش، الحوار مع الله، زيارة الجّنة والعودة إلى مكة.

يقوم تنظيم الرواية على أربع نقط أساسية متعاقبة: وحدة عجائبية بدئية، صعود بدئي إلى السماء، ظهور مجد أمام الله، وعودة إلى البشر. ويمكن أن يساعدنا توضيح تسلسل المراحل في البحث عن

(1) قارن: الطبري، تفسير السورة 17.

خطّة تحتية تقدّم أرضية تخيل النص. وقد يحدث أن بعض الأعمال والتي هي من طبيعة مختلفة تصف الموضوعات ذاتها باعتبارها رواية معراج؛ تلك الأوصاف التي تركز اهتماماتها على مسألة السماوات وشراريب جهنم، وصف العرش، مواضيع الجنة وعلم الملائكة.

توجد هذه الأوصاف في ثلاثة أصناف من الأعمال:

آ -قصص الأنبياء، التي يكرس أولها لأصل الكون.

ب -التواريخ العامة، التي تحتوي فصولها الأولى عناصر عديدة من علم الكون وعلم نشوء الكون. وسوف يكون من الأهمية بمكان دراسة مقارنة لاستخدام المؤرخين لمقولات معينة وروايات المعراج.

ج - أدب القيامة، الذي يجمع النصوص المكرسة لموضوعة القيامة. يتألف هذا الأدب من تهذيب لنصوص لا تستند على نحو دقيق إلى النصوص القانونية، وهي تعطي المؤمن وصفاً لما حدث منذ زمن ولادته حتى ظهوره أمام الله. هنا أيضاً نجد وصفاً للملائكة، الجنّة وجهنم. كما يتمّ جمع بعض العناصر الوصفية والروائية، المستقلة في أصولها عن بعضها بعضاً. هذه القسمة الكونية تشمل النبي ذاته، فبعدما يقوم من الموت، "يمتطي ثانية ظهر البراق ويتوجه إلى الصخرة في القدس ويظهر أخيراً أمام الله"[1].

(1) Jamel-Eddine Bencheikh, *Le voyage nocturne de Mahomet*, Paris, 1988

يبدو واضحاً مدى ارتباط روايات المعراج والقيامة. فقد قاد عمل المخيلة ذاته، صيرورة التوصيف ذاتها، إلى إنتاج النصين .

لابد أن نذكر هنا أيضاً أنّ حدود الكتابة لم تمنع هجرة الأساطير. فكتاب *عجائب المخلوقات* للقزويني يكرس جزءاً مطولاً لعلم الملائكة ؛ أما قصة حاسب كريم الدين في *ألف ليلة وليلة* فتحتوي رواية البلقية المتعلقة بنشوء الكون والتي قد تكون مأخوذة عن *قصص الأنبياء* للثعالبي. ونحن هنا نتعامل مع ما يمكن أن نسميه مجموعة الكتابات المكونة مسبقاً التي تتعلق بالسماء، جهنم، الجنة، العرش والملائكة. وكل واحدة من هذه المجموعة أعطيت إطاراً مستقلاً عقب عملية طويلة من التوسيع جمع خلالها كلّ أنواع المقولات ما قبل الإسلامية والإسلامية. وحده التحليل التفصيلي سوف يسمح لنا بوضع تأريخ موثوق لهذا الأدب.

يجب أن نلاحظ أيضاً أننا لا نستطيع عزل قصص المعراج عن النصوص الرؤيوية الكبيرة لابن عربي، ابن سينا والسهروردي. فكتاب *التوهم* الهام، إذا كان عملاً للصوفي المحاسبي، يحتفظ من هذه المقولات بذلك القدر الكبير الذي ترتبط به مع الأدب موضع اهتمامنا.

لكن علينا أن ندرك أنّ السمة التخيلية تغذى أيضاً بالكلام والأحاديث. فالقاص أو الداعي موجود في قلب العرف الديني. "معه نترك المقالة المثقفة والتأمل الصوفي لنتابع حديثنا بين رغبة ووظيفة :

رغبة المؤمن الذي يحتاج لأن يؤمن، ووظيفة الذي يعطيه شيئاً ليؤمن به ويتولى تزويده بالأوصاف التخيلية ليفعل هذا"[1].

حتى الآن لم تجمع قصة المعراج الشفوية. والبنيان الروائي للنصوص المعتبرة قانونية استمدّ أوصافاً من أصول مختلفة. وقد أعطيت إيقونوغرافيا كي تلبي حاجة سامعيها إلى الأعاجيب. لكن اللاهوتيين ينظرون إلى هذه الحاجة بعين الشك. وقد كان ابن حنبل، ابن الجوزي، الغزالي، والسيوطي يطاردون مخترعي الحكايات الخرافية، ويعاملونهم بقسوة. وجمع الأحاديث المنحولة بهدف رفض كلّ ما هو مزور فيها، إذا كان مفيداً لأرثوذكسية تفكيرهم، فهو مفيد أيضاً في تفسير تعرشات المخيلة.

إن الأسئلة ذاتها التي طرحها اللاهوتيون في مسألة المعراج، حدّدت في الواقع اتجاه سير المخيلة. لقد كان هنالك برهان حي فيما يخصّ الفكرة التي كان من الضروري امتلاكها عن الصعود. وعلينا أيضاً أن نراجع التفاسير الممكنة لهذه المأثرة العجائبية:

آ - حَدَثَ الصعود بالروح، فهو مسألة رؤيا حدثت أثناء نوم النبي. وبمعنى ما فالسماء هي التي زارت محمداً. كان ذلك استنارة، والشخص المادي لم يكن معنياً بالأمر: المعراج يلغي الوضعية البشرية

---

(1) Jamel-Eddine Bencheikh, *Le voyage nocturne de Mahomet*, Paris, 1988

ويسجل ذاته في انخلاع العقل. النفس المطهرة، تتجاوز السماء حتى الله في مسار تظّل آثاره في الشهادة النبوية فقط. وثورة الإيمان من قبل المؤمن سوف تكرّر هذه الحركة.

ب -لقد قام محمد بالإسراء أثناء الصحوة فعلاً، أما المعراج فقد تمّ بالروح ليس إلا. ولهذا التمييز المصطنع فائدته: إنّه يقدّم شهادة على عملية ربط الإسراء، الذي كان مستقلاً في البداية، بالمعراج[1].

ج - لقد حدث الصعود بالفعل، على صعيدي الجسد والنفس، لنبي كان في حالة وعي تام. وهذا التفسير يضع أسس الأعجوبة، التي تصبح برهاناً لاهوتياً.

بهذه الطريقة تصبح الرغبة بِنِسَبْ بعد للنبي يتجاوز تاريخيته موثوقة: على نحو تدريجي، يشكّل فتح الصدر عند نهاية التطهير، الإسراء والمعراج رواية واحدة مفردة تقدّم ميزة مواقع هامة متقاطعة للمخيلة البشرية.

هذا التفسير يزيل الصبغة الروحانية عن الصعود، دون أن يلغي شخصيته الإستهلالية الفائقة. ففي حين يرفض أن يرى فيه قوة دافعة داخلية، تجوالاً للروح، فهو يقدّم مدى حراً للقصص التخيلية.

---

(1) Harris Birkeland, *The legend of the opening of Muhammed's breast*, Oslo, 1955.

والرواية تعطي شهادة رسمية لتخيل ما لا يمكن التفكير به. ينتصر الوحي بدافع الوجد. والاستثارة الرائعة وإن المعزولة لفرد ما تُجْهَر لصالح استهلالية عامة لأحد الأنبياء. والأخير يحمل على عاتقه مهمة إعلام شعبه بالأجوبة التي يُعهد إليه بنقلها، في مسار رحلته.

منذ ذلك الوقت وما بعد، يمكن رؤية الفرق بين اللفظ القرآني المختصر إلى إشارة عابرة وحديث "الأدب" المكّلف بتوضيح الأول. على هذا الانفصال يشهد تطبيق معاصر: ففي رجب 1387/تشرين الأول -أكتوبر1967عرض التلفزيون الرسمي المصري شريطاً عن الإسراء والمعراج بإشراف سلطات الأزهر. إن عملية نتاج المخيلة مسموحة، لكنها خاضعة للسيطرة.

إذاً إنّ أدب المعراج متجسد في فعل عبادة. فبالنسبة للذي لا يأخذ درب الفكر ولا درب الروحانية، يظل هنالك الوصف، محاطاً بخطر التجديف .فخلف محمد ،الوحيد الموثوق بأنه يسافر إلى الفضاء المحرّم، تطلق حريّة المخيلة. فالملّة كلها تصحب نبيها في رحلته البدائية. وهكذا ففعل الإيمان مؤسس على نحو مضطرد في رواية مصممة لإحداث رؤى .الصورة التخيلية فاعلة هنا؛ إنها تحيي الثقة وتحث على الرعب. بهذه الطريقة تصبح مادية مسرات الجنة وعذابات جهنم تعرض للنظر وذلك على حساب احتساب حاسم للاهوت ،حيث أن الله لن يطلق أحكامه إلا في يوم القيامة.

هنا تظهر الوظيفتان الأساسيتان لأدب المعراج : إنه يؤكد مسبقاً صحّة العدل الإلهي ، ويستجيب لحاجة عميقة لما هو عجائبي. فالصورة المتخيلة تذهب خلف القوة على التأثير كي تلمس الجمال.فالسعادة لا تكمن فقط في ثواب الفضيلة البعيد ، بل تجد منبعها أيضاً في المشهد المقدّم. والنص مزين بالاستنارات : من البراق إلى عرش الله ، من السماوات السبع إلى الإقامة في الجنّة ، ثم إلى جهنم ؛ والعجائبي يلتهم المسافة التي تفصل الفكر عن الرغبة. لكنه يؤكّد بشريته ولا يدنس المقدّس. إضافة إلى ذلك ، فالاستخدام المخيلي يُصنع مما هو فعلي. وطوبوغرافيا المواضع تستخدم لغة دون أية دهشة : نحن نصعد إلى السماء بسلّم ، ندور حول جدران ، نعبر الأبواب :

هنا تصوّر جبال ، أنهار ، بحار ، وحدائق ضائعة. "المكان الأعلى مجرّد عرش ، سمة عامة للسيادة ، وأقدار البشر مكتوبة بقلم ؛ وسيلة عادية للكتابة. ذهب ، فضة ، لآلئ ، جواهر تزخر بها أسواقنا ، ظلمة ، دخان ، جليد لهم مواضعهم في بيئتنا"[1].

قد يصعب تمثيل المتخيل دون تدنيسه. وحده أمر الحفظ كفل استمرارية الميثة. ولقاء الخالق يظهر لنا كم كان التجديف متجنباً ؛ وكلّ الحوار بين الله ومحمد مأخوذ من الآيات الأخيرة في سورة البقرة ، حيث

(1) Jamel-Eddine Bencheikh, *Le voyage nocturne de Mahomet*, Paris, 1988

توضع على نحو بديل في فمي متحاورين. أكثر من ذلك، فهذه ليست الطريقة الوحيدة لاستخدام الآيات أو الأحاديث النبوية التي غالباً ما تكون متسجداة. فالنص يصبح من ثم تفسيراً مليئاً بما تجود به مخيلتهم ويأخذ صبغة شرعية. إنه منسوخ في كتابة لا تدحض ويأخذ موثوقية الايقونوغرافيا المقدّسة. وبالنسبة للمستمع، فالمعراج يحتفل طقسياً بالرسالة النبوية ويقدّم رواية لأبوكاليبس محتلة بال ين القرآني.

عندما استدعي النبي للظهور أ الله، تلقى البيعة المستحقة لآخر الأنبياء. والإسلام يعتمد على تفو ويحتفل به في الوقت ذاته. إنه يمسك بالمستقبل ويعيد غزو الماضي؛ ومح وات تصحبه كل الشواهد العظيمة على الديانة الكونية.

إن طقس الحب حتى العبادة مدون إذاً في نوبة جمال! والسماوات هي على التوالي، دخان، نحاس، فضة ولؤلؤ. ومسار الزمن يرافق رحلة الصعود؛ وجمال المشهد يعلن عن قرب الله. وكل سنة يكرّس ألوف المسلمين أنفسهم لعرض إيمانهم.

أخيراً، لا نستطيع أن ننسى أن المعراج دخل الأدب العالمي، بفضل *كتاب سلّم محمد The Book of Mahomet, s Ladder*. وهذا العمل ترجمة لاتينية لنص بالقشتالية، مترجم عن العربية، واشتهر فعلاً بسبب النقد اللاذع الذي سببه؛ وقد كان دانته Dante قابلاً حقاً لأن يستوحي منه عمله *الكوميديا الإلهية Divine Comedy*.

2 - البراق

وهو الحيوان الذي يقال إنّ محمّداً ركبه حين قام "برحلته الليلية" العجائبية. وبحسب الآية 17 : 1 ، فقد قادت "الرحلة الليلية" النبي من المسجد الحرام ، أي مكّة ، إلى "المسجد الأقصى". وهذا الموضع الأخير حدّده كلّ من ب . شريكه وي . هورفيتس على أنه موقع في السماء ، أما

آ. غوليام فقد حدّده مؤخراً على أنه موقع قرب الجعرانة على تخوم مكة المقدسة. لكن إضافة عبارة "الذي باركنا حوله" تجعل من الممكن أن يكون المقطع يشير إلى مكان ما في الأرض المقدسة ، أي القدس (قارن: السورة 21: 71، 81؛ 7: 137؛ السورة 34: 18: "التي باركنا فيها"). على أية حال ، فقد فُهم تعبير "المسجد الأقصى" في التقليد المحلي دائماً ، كإشارة إلى القدس . بل لقد قُبل ، أنّ محمداً قام برحلته من مكّة إلى القدس وعاد ، ليس فقط في الحلم - وكان بصحبته جبريل - بل أيضاً بالجسد وفي فضاء ليلة واحدة. وقد فُسِّرت السرعة العجائبية لمثل هذا الفعل على أساس أن محمّداً كان يركب حيواناً استثنائي السرعة. وفي هذا السياق برزت قصة البراق.

في أحد الأحاديث العديدة التي يقدّمها الطبري، في تفسيره للقرآن، حول مسألة "الرحلة الليلية"، توصف دابة محمد على أنها ببساطة فرس (15 : 6). لكن معظم أحاديث الحقبة الأولى تدعوها البراق وتصفها بأنها "حيوان (متوسط الحجم) بين البغل والحمار"؛ وتضيف أحياناً تفصيلاً آخر يقول، إنها بيضاء.

كذلك فقد قيل إنه حيوان طويل (*مسلم*، إيمان، 259)، ذو ظهر طويل وأذنان طويلتان (ابن سعد 143 : 1 : 1)، أذنان مهتزتان (طبري، *تفسير*، 15 : 10)، له سرج ولجام. يتحدث شاعر الرجز عجاجي (مات عام 715/ 97) عن البراق، في سياق كلامه عن إبراهيم[1]. لقد استخدم الأنبياء القدامى هذا الحيوان (طبري، *تفسير*، 15 : 10؛ ابن هشام، 269) كقاعدة، يقال إنّ سرعته، هي مثل "أنه مع كلّ خطوة كان يتحرك بأسرع مما يصل إليه بصره". وفي ابن هشام، 264، ابن سعد، 1 : 1 : 143، الطبري، *تفسير*، 15 : 3، يوصف أيضاً كحيوان "له جناحان على ساقيه، يستعجل بهما ساقيه". إن القصد من هذه الكلمات هو إيصال معنى مفاده، هو أنّ البراق كان باستطاعته أن يحرّك ساقيه بسرعة فائقة فقط، لكنه لم يكن قادراً على الطيران. وللمرة الأولى نسبت إليه الأجنحة الأصلية في النصوص المتأخرة. فهو

---

(1) تحرير Alward، 35، 49 – 50؛ وإذا كان النصّ أصيلاً، فهو أقدم دليل موثّق.

يوصف عموماً في المتممات كمخلوق مجنح. وكلمة البراق في القواعد تفسّر كمذكّر ومؤنث على حد سواء.

يقال في بعض الأحاديث إنّ البراق قاوم في البداية محاولة محمّد اعتلاء صهوته فأجبره من ثم جبريل على الطاعة. ويقال إن محمداً، بعد وصوله إلى القدس، نزل من عليه وربطه إلى الصخرة (طبري، *تفسير*، 15 : 7) أو إلى الحلقة التي اعتاد الأنبياء أن يربطوه بها (مسلم، *إيمان*، 259؛ طبري، *تفسير*، 15 : 1؛ ابن سعد، 1 : 1 : 143). والبراق في بعض الأحاديث التي نقلها البخاري ومسلم، استخدم كجواد لرحلة محمد إلى السماء. لقد اتحدت قصص "الرحلة الليلية" (إسراء) و"الرحلة إلى السماء" في مرحلة مبكرة. والبراق أيضاً كان مشمولاً بهذا الدمج للقصص، وتطور بالتالي ليصبح جواداً طائراً. لكن الصعود إلى السماء (المعراج)، في الشكل الأصلي للقصّة، حدث عن طريق سلّم.

حتى الآن لم تتوضح بشكل كامل ايتمولوجيا التسمية "براق". فلقد اعتقد بلوشيه أنها جاءت من الفارسية الوسيطة "بَارَغ"، أي "جواد". لكن هورفيتس طرح تساؤلات محقّة حول هذا التفسير وأعلن أنّه يفضّل اشتقاقاً من الجذر العربي "بَرَق". "والحيوان العجائبي"، بالتالي، أمكن أن يأخذ اسمه معنى "البرق الصغير" بسبب "سرعته أو لونه اللامع". مع ذلك، فحتى هذا التفسير لا يبدو مقنعاً بالكامل. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أيضاً احتمالية أن تكون التسمية "براق"

ترجع إلى تقليد ما قبل ـ إسلامي لا نعرفه الآن. وبشكل عام ، فالكثير مما يُقال عن جواد "رحلة الليل" العجائبية هذه ، مأخوذ عن التقليد ما قبل -الإسلامي. لكن من الصعب إماطة اللثام عن الروابط المتعدّدة في كلّ تفاصيله.

إذا ما أردنا تقصّي التطور اللاحق في مفهوم "البراق" ، فيجب أن نفعل ذلك من التمثيلات التصويرية أكثر منه من الوثائق الأدبية. وهذا القول يصحّ أيضاً على ما يتعلق بحقيقة أنّ البراق أخذ في نهاية الأمر وجهاً بشرياً. فقد أشار هورفيتس إلى حديث ابن عبّاس ، الذي نقله الثعالبي(مات عام 1035) ، باعتباره أول دليل أدبي يعلن أن للبراق "خداً كخد الإنسان". والبلخي ، في وصفه لآثار برسبوليس (بداية القرن السادس/الثاني عشر) ، يقول إن الحيوان الذي عند بوابة احشيروش ، "والذي وجهه كوجه البشر"، يشبه البراق. مع ذلك ، فإن أقدم صورة للبراق ترجع إلى عام (1314) (في مخطوطة *جامع التواريخ* لراشد الدين). ومن الواضح إذاً أن التطور الفعلي حصل ضمن إطار الفنون البصرية. لقد نشأت الدوافع الحاسمة من أشكال التصوير تلك ـ من الصور التي تحرس بوابات القصور الآشورية - والتي ظلّت حية في شكل القنطورات (كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس) ، الغرفينات (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد) والسفينكسات (كائن خرافي له جسم أسد وأجنحة ، ورأس امرأة وصدرها) وعاودت الظهور مرّة تلو

الأخرى، كأشكال فنية. أما تلك المخلوقات المجنحة، التي تحجرت بمرور الزمن في عنصر شكلاني لم يعد مفهوماً، فقد حصلت أخيراً على معنى جديد في سياق قصّة معراج النبي. وفي الرسوم التوضيحية للشعر الفارسي، خاصة أعمال نظامي، صار البراق وراكبه وجبريل موضوعة كثيرة الرسوخ في الذهن. وصورة "الرحلة إلى السماء" المركبة بشكل رائع في مخطوطة نظامي أو تلك التي تحمل الرقم 2265 في المتحف البريطاني، تشكّل أرفع نقطة في الإنجاز الفني.

3 - المسجد الأقصى

ويعني حرفياً "الحرم الأبعد" هنالك ثلاثة معانٍ لهاتين الكلمتين:

1 - ترد الكلمتان في القرآن (17 : 1) : ﴿سُبْحَانَ الذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا﴾ هذه الآية التي يعتبر عادة أنها أنزلت خلال سنة النبي الأخيرة في مكّة قبل الهجرة، يصعب جداً تفسيرها في سياق الزمن. لا يوجد أدنى شك بأن المسجد الحرام هو حرم مكّة الوثني آنذاك. لكن سواء أكان الحدث ذاته حدثاً مادياً وبالتالي مرتبطاً بموقع صغير قرب مكة كان فيه مسجدان، أدنى وأقصى[1]، أو إسراءً ومعراجاً صوفيين وروحيين إلى حرم سماوي، فقد كان ثّمة إجماع منذ زمن مبكر جداً (ربما منذ عام 15هـ)[2] بأن المسجد الأقصى إنما يعني القدس. وفي زمن سيرة ابن هشام، كانت كلّ العناصر لما صار إحدى أغنى المقولات السرانية في الإسلام في متناول اليد. إنّ دراسة هذه العناصر وتفاسيرها المختلفة والمتناقضة أحياناً الموجودة في تفاسير القرآن الأولى إنما هي مشتقة من مجموعة مصادر معقدة[3] والتي لم تحلّ ألغازها حتى الآن.

---

(1) A. Guillaume, *Where was al-Masjid al-Aqsa in Al-Andalus*, xviii (1953).

(2) قارن: J. Horovitz, *Koranische Untersuchungen*, Berlin, 1926, 140:

(3) Blachère, *Le Coran*, Paris, 1949, ii, 374.

2 - لقد استخدمت الكلمتان تصادفياً في العصور الإسلامية الأولى لتعنيا القدس، وخلال قرون عديدة، على نحو أكثر تخصيصاً، لتعنيا الحرم الشريف، والذي كان سابقاً هيكل هدريانوس الذي تحول على يد الإسلام الأولي إلى موضع إسلامي حصري.

3 - الاستخدام الأكثر شيوعاً للكلمتين هو ذلك الذي للمبنى الضخم الواقع في الناحية الجنوبية لساحة الحرم، وقرب قبة الصخرة، أشهر مبنى إسلامي في القدس. على نحو رائع وضع ر.و. هاميلتون R.W. Hamilton تاريخه الأركيولوجي، في عمله *التاريخ البنائي للمسجد الأقصى The structural history of the Aqsa Mosque*، وقد قبلت نتائجه بالكامل من قبل ك.آ. سي كرسل K. A. C. Creswell وأدخلها في كتابه *فن العمارة الإسلامي الأولي Early Islamic Architecture*، أكسفورد 1969، 373 -380. أما نقط الخلاف[1] فلا تتناول سوى التاريخ الدقيق للسياقات المحددة أركيولوجياً للمبنى، لكن ليس شخصيتها. ومنذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وما بعد، تمدّنا الأوصاف الغالية التي يقدّمها كلّ من المقدسي، ناصر خسرو، وبعده بزمن طويل، *تاريخ القدس* لمجير الدين، بوثائق مكتوبة فريدة متاحة الآن في أعمال عديدة شهيرة.

(1) Stern, *Recherchs sur la Musquèe al-Aqsa et ser mosaiques in Ars orintalis*, v (1961).

4 - الصخرة

حجــر الأســـاس ، بالعبريـــة אבן השתייה إيفـــين هاشـــتياه ؛ بالعربية ، الصخرة ؛ هو اسم الصخرة الواقعة في مركز قبة الصخرة في القدس ، والتي يقال إنها زرعت هناك في بداية الخلق وإنها أُخِذت من قبل الله من عرش مجده.

وهـي تسـمى أيضاً بـالحجر النفيس لأنها تتضمن ثقباً صغيراً في الزاوية الجنوبية الشرقية منها يصل إلى كهف تحت الصخرة ، يعرف باسم بئر الأرواح. ويعتقد أنها كانت موقع قدس الأقداس في الهيكل ، وهو أقدس ما في اليهودية (*مدراش تنحوما* ، الفصل 10). تنظر إليها التقاليد اليهودية كوصلة روحانية تربط الأرض بالسماء. واليهود يتوجهون إليها تقليدياً في صلواتهم.

قبة الصخرة في مدينة القدس القديمة تدعى جبل مورياه. جبل الهيكل دعي بالعبرية حار بابيت ، الذي يعني ، جبل البيت ، كما في بيت الله ؛ بالعربية ، الحرم الشريف.

وهكذا فإن أقدس بقاع القدس هو الصخرة التي رأى اليهود القدامى أنها مركز الأرض ، محور الكون ، المكان الذي لحم السماء

بالأرض، والأرض مع الخلط البدئي تحتها. "لقد كانت جذر السماء، غطاء الجحيم، المكان الذي تنبجس منه الأنفس حين تصعد من الجحيم إلى السماء."

ماذا بشأن اسم الله المتعذّر نطقه יהוה [يهوه] المنقوش على حجر الأساس وتابوت العهد، الذي استقرّ في قدس الأقداس (الدفير، مكعب كامل من عشرين وحدة)، ويقال إنه فوق الحجر؟ يقول الاعتقاد اليهودي إن موضع التابوت "يميّز المركز الدقيق للعالم، أو كرسي الله."

في رسالة "*يوما*" من التلمود البابلي: وجدنا النص التالي المتعلق بالصخرة: "حين تم أخذ التابوت، كان ثمة حجر من زمن الأنبياء الأوائل، "شيتيا" [أساس] دُعي، ثلاثة أصابع فوق الأرض. ثم وضع عليه [المبخرة]. أخذ الدم من الذي حرّكه، ذهب إلى المكان الذي ذهب إليه، ووقف حيثما وقف [في قدس الأقداس]، ورش من موقعه مرة للأعلى وسبع مرّات للأسفل [لاويون 16 : 14]، دون أن يكون ينوي رشه إن للأعلى أو للأسفل...

وتقول غمارا المشنا ذاتها: "صخرة، شيتيا. لقد تعلّمنا في بورايتا ما يلي: الكلمة شيتياه تعني، أن الكون مخلوق منها، فشيتياه تعني الأساس. هذا بحسب من يقول، إنه بدأ خلق العالم من صهيون، كما تعلّمنا في البورايتا التالية :[1] : "حجر، شيتياه". الكلمة شيتياه تعني،

(1) The Babylonian Talmud, *Tract Yoma* (*Day of Atonement*), P.76.

أن الكون خُلق منه، لأن الشيتياه يعني الأساس. وهذا بحسبه هو الذي يقول، إنه من صهيون بدأ العالم يُخلق، كما تعلمنا في البورايتا التالية: قال حاخام إليعيزر: خلق العالم من الوسط بالذات، بحسب ما هو مكتوب: [أيوب 38: 38] "إذ يتلبد التراب ويتلاصق المدر" (في البداية صُنعت القطعة المركزية، ثم التصقت بها الأجزاء الأخرى). خُلق العالم في البداية مع الأقاصي، كما هو مكتوب [أيوب 37: 6]: "يقول للثلج: أسقط على الأرض؛ ولوابل المطر، لوابل أمطار عزّته". أربع مرات تتكرر كلمة "مطر" هنا (باللغة العبرية، لكن "مطر" بلغة التلمود تعني "مادة"). كانت هنالك أربع قطع من المادة، ومنها شُكّل العالم. يقول الحاخام يتسحاق: رمى القدوس، المبارك، حجراً في البحر، ومنه شُكّل العالم. وكما هو مكتوب [أيوب 38: 6]: "على أي شيء قرزت قواعدها، أم من وضع حجر زاويتها؟". لكن الحكماء قالوا: خُلق العالم في البداية مع صهيون. كما هو مكتوب [مز 50: 1]: "تكلّم الرب إله الإلهة، ودعا الأرض من مشرقها إلى مغربها". "من صهيون، كاملة الجمال". هذا يعني، أنه من صهيون بدأ جمال العالم برمته. في بورايتا أخرى تعلمنا: قال حاخام إليعيزر الكبير، مكتوب [تك 2: 4]: "هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسماوات". الكواكب المنيرة، إلخ، خُلقت من السماء، وكل الأشياء الأرضية من الأرض. لكن الحكماء يقولون: كل شيء خُلق من صهيون. كما هو مكتوب [مز 50: 1]: "مزمور لآساف. تكلّم الرب إله الإلهة"، إلخ، "كاملة الجمال"، أي، جمال العالم بكامله."

في نص من مشناه يوما، 5 : 2، نقرأ: מִשֶּׁנִּטַּל הָאָרוֹן, אֶבֶן הָיְתָה שָׁם מִימוֹת נְבִיאִים רִאשׁוֹנִים, וּשְׁתִיָּה הָיְתָה נִקְרֵאת, גְּבוֹהָה מִן הָאָרֶץ שָׁלֹשׁ אֶצְבָּעוֹת, וְעָלֶיהָ הָיָה נוֹתֵן: بعد أخذ التابوت، كان هناك حجر، من أيام الأنبياء الأوائل، يسمى الشيتيّا، ثلاثة أصابع فوق الأرض، والتي كان سيضع عليها [الفحم].

تشير *اليوما* 53 ب أيضاً إلى هذا الحجر على أنه الإيفين شتياه، "حجر الأساس"، وتوضح أنه أعطي هذا الاسم لأنه كان الأساس الذي صاغ عليه الله العالم.

ونقرأ في *العمل* ذاته: "إيفين شيتياه"، "حجر الأساس"، "الذي تأسس منه العالم" (Yoma 4b)؛ وكما في الآية (مزمور -تهليم 11 : 3)، " כִּי הַשָּׁתוֹת יֵהָרֵסוּן: إذا ما الأُسُسْ انهارت". وبعبارة أخرى، تشير التسمية "شيت" إلى الجذر الذي منه أسس العالم.

في *التلمود الأورشليمي* ثمة نص متعلق بذكرى دمار الهيكل وذكرى التاسع من آب[1]، فيه إشارة واضحة لحجر الأساس، الصخرة: "נשייא דנהגן דלא למישתייה עמרא מן דאב עליל מנהג – שבו פסקה אבן שתייה": "النساء غير معتادات على

(1) תִּשְׁעָה בְּאָב (التاسع بآب)، هو يوم صوم سنوي في اليهودية، يستذكرون فيه عدداً من الكوارث في التاريخ اليهودي، أهمها دمار هيكل سليمان على يد الإمبراطورية البابلية ودمار الهيكل الثاني على يد الإمبراطورية الرومانية في القدس.

تحضير أو ربط خيوط السداة إلى نول حياكة من روش حودش آب ראש חודש אב [أول آب] وما بعد (حتى ما بعد تشعاه بآب [9 آب])، لأنه أثناء شهر آب تم تدمير حجر الأساس". أشياء ذات صلة تقولها *المشناه بيروراه*. بل إن بعض اليهود يحرم أكل اللحم أو شرب الخمر من بداية الأسبوع الذي يحل فيه تشعاه بآب حتى ما بعد الصوم. بل إن بعضهم يمسك عن تلك الأصناف منذ روش حوديش آب، في حين يمسك بعضهم الآخر منذ السابع عشر من تموز.

يختصر المدراش المسمى *تنحوما*، من الحقبة الرومانية، مركزية وقداسة هذا الموقع، فيقول: "كما توضع السرّة في مركز الجسد البشري، كذلك فإن أرض إسرائيل هي سرة العالم... موجودة في مركز العالم، وأورشليم في مركز أرض إسرائيل، والحرم في مركز أورشليم. والمكان المقدس في مركز الحرم، والتابوت في مركز المكان المقدّس، وحجر الأساس أمام المكان المقدس، لأنه منه تأسس العالم."

هنالك إشارات إلى الصخرة في الطقوس اليهودية؛ نذكر منها: في الأيام التي تقرأ فيها الزليخوت، في الأيام التي توصل إلى روش هاشناه [عيد رأس السنة] حتى يوم كيبور [عيد الغفران]، وتتضمن الملحقات الإشارتين التاليتين: שן סלע איתנים טענתנו גפי קרת נתונים. ישבתנו: أنت تحملنا إلى أعالي المدينة؛ أنت تقيمنا على القمة الصخرية: רבוצה עליו אבן שתית חטובים...שמה בתוך

לפני מזיב מאשנבים: عليها يتوضع الحجر الذي نحت منه الأساس ... الذي يعطي الأذن التي يخرج منها الماء.

خلال السوكوت تذكر الإشارات التالية إلى حجر الأساس في تلاوة الهوشعنوت: הושענא! – אבן שתיה – הושענא: خلصوا أرجوكم – حجر الأساس – خلصوا أرجوكم!

من نصوص عبرية أخرى حول حجر الأساس، اخترنا التالي: "على جبل موريا، المعروف اليوم باسم جبل الهيكل في القدس، وهو الأساس اخلصخري المكشوف تحت قبة الصخرة، التي تُعرف باسم "حجر الأساس"، بالعبرية إيفين هاشتياه. على الرغم من أن المعابد اليهودية بنيت في وقت لاحق على حجر الأساس نفسه، أو امتداد لهذه الصخرة ذاتها في مكان آخر على جبل موريا، يشير مصطلح "حجر الأساس" إلى خلق الأرض من قبل الله في اليوم الأول".

"وكان يطلق عليها [إيفين هاشتياه] حجر الأساس، لأن العالم أسس عليها. لأن إشعياء النبي قال: "لِذلك قالَ السَّيِّدُ الرَّبّ: ها إِنّي واضِعٌ حَجَراً في صِهْيون حَجَراً مُمتَحِناً، رَأسَ زاوِيَةٍ كَريماً أَساساً مُحكَماً مَن آمَنَ بِه لَن يَتَزَعزَع" (28: 16): "לָכֵ֗ן כֹּ֤ה אָמַר֙ אֲדֹנָ֣י יְהוִ֔ה הִנְנִ֛י יִסַּ֥ד בְּצִיּ֖וֹן אָ֑בֶן אֶ֣בֶן בֹּ֡חַן פִּנַּ֨ת יִקְרַ֜ת מוּסָ֣ד מוּסָּ֗ד הַמַּאֲמִ֖ין לֹ֥א יָחִֽישׁ׃"، العلي، المبارك، أسقط صخرة في المياه، ومنها توسّع العالم".

"لقد خلق الله العلي العالم بالطريقة ذاتها التي يتشكل بها الطفل في رحم أمه. فتماماً كما يبدأ الطفل في النمو من سرته ومن ثم يتطور إلى شكله الكامل، كذلك بدأ العالم من نقطة مركزية ثم تطوّر في كل اتجاه". (2. Zev Vilnay, Legends of Jerusalem, *The Jewish Publication Society of America*, Philadelphia, 1973).

"حجر الأساس المعروف بالصخرة بالعربية (وقبة الصخرة). على الواجهة الغربية لقبة الصخرة توجد الكتابة العربية التالية، صخرة الهيكل من جنة عدن. تُدعى البوابة الشمالية للمسجد التي تواجه حجر الأساس "باب الجنة". على الأرض أمام هذه البوابة يوجد حجر من اليشب الأخضر على مساحة نصف متر مربع يطلق عليه العرب "حجر عدن"".

"يقول بعض الحكماء اليهود أن هذا الحجر كان يسمى شيتيّا، والذي يعني أيضًا بالعبرية "الشرب שתייה" لأن تحته يُخفى مصدر كل الينابيع والنافورات التي يشرب منها العالم مياهه. كما ينص تقليد عربي على أن جميع المياه العذبة في العالم لها أصلها تحت هذه الصخرة". — وهذا ما سنظهره بوضوح في نصوص إسلامية كثيرة.

"في أرضية الكهف الصغير (الذي يبلغ ارتفاعه حوالي 14 قدمًا مع سقف بستة أقدام) تحت حجر الأساس الكبير في قبة الصخرة، توجد بلاطة رخامية مستديرة تغلق بئرًا تُعرف باسم "بئر الأرواح". يعتبر تقليد

إسلامي أنّ هذا هو مدخل إلى الحفرة التي لا قعر لها، الهاوية. وقيل إن أرواح الموتى التي تنتظر الحكم مسموعة تحتها. يدعي التلمود أن هذه هي الهاوية فوق مياه الخلق البدائية ومياه الطوفان. وخلال حملة الكولونيل باركر Parker غير القانونية لعام 1911، تم رفع الغطاء الرخامي فوجد أنه يغطي مجرد منطقة منخفضة وليس فتحة بئر. ومع ذلك هناك تقاليد أخرى تشير إلى أنّ هذا الجزء من جبل موريا ربما كان ذات يوم مكانًا للدفن، أو ربما مكانًا كنعانيًا مرتفعًا. أي من هاتين الحالتين، إذا ثبتت صحتهما، فستكون أسباباً لاستبعاد الموقع مكانًا لهيكل سليمان بسبب الحرمة اليهودية المطلوبة لموقع الهيكل، كما هو موضح أدناه". — من هنا يمكن أن نفهم قصّة الأنفس التي تُعاقب أو تجزى في هذه المنطقة؛ لكن ما معنى المكان المرتفع عند الكنعانيين؟

"أماكن عالية، بكل بساطة، كانت أماكن للعبادة على قطع مرتفعة من الأرض. كانت الأماكن العليا مخصصة أصلاً لعبادة الأوثان (عدد 33: 52؛ لاويين 26: 30)، خاصة عند الموآبيين (إشعياء 16: 12). غالبًا ما شملت هذه المزارات مذبحًا وغرضاً مقدسًا مثل عمود حجري أو قطب خشبي بأشكال مختلفة تمت مماثلتها مع موضوع العبادة (الحيوانات، الأبراج، الآلهات، وآلهة الخصوبة). يبدو أنه، في بعض الأحيان، تم إنشاء أماكن مرتفعة في مكان تمت تعليته بشكل مصطنع؛ 2 ملوك 16: 4، يبدو أنه يميز "الأماكن المرتفعة" عن "التلال"".

"لقد مارس الإسرائيليون، الذين ابتعدوا إلى الأبد عن الله، عبادة مولك وبنوا أماكن عالية لبعل (إرميا 32: 35). وعلى الرغم من بناء سليمان لهيكل الله في القدس، إلا أنه أقام فيما بعد أماكن عالية لزوجاته الأجانب خارج القدس وعبد معهم، مما تسبب في فقدانه للملك (1 ملوك 11: 11). كان الناس ما زالوا يضحون في الأماكن العالية الوثنية قبل بناء الهيكل، وانضم إليهم سليمان. وبعد أن ظهر له الرب في حلم في جبعون، عاد الملك إلى القدس وقدّم القرابين؛ ومع ذلك، استمر في التردد بين مكاني العبادة".

"لم تكن جميع الأماكن المرتفعة مخصصة لعبادة الأوثان. لقد لعبت دوراً رئيسياً في العبادة الإسرائيلية، وأقدم ذكر كتابي لموقع العبادة، والذي سمي فيما بعد بـ "المكان المرتفع"، يوجد في سفر تكوين 12: 6 -8، حيث بنى أبرام مذابح للرب في شكيم والخليل. بنى إبراهيم مذبحًا في منطقة موريا وكان على استعداد للتضحية بابنه هناك (تكوين 22: 1 -2). ويُعتقد أن هذا الموقع تقليديًا هو المكان المرتفع ذاته الذي شيد فيه هيكل القدس. كما أقام يعقوب نصباً للرب في بيت إيل (تكوين 28: 18 -19)، والتقى موسى بالله على جبل سيناء (خروج 19: 1–3)".

وضع يشوع أعمدة حجرية بعد عبور الأردن (يشوع 4: 20) واعتبر أنّ هذا مكان عبادة مرتفع لأن الإسرائيليين خرجوا من الأردن إلى أرض مرتفعة. وقد كان النبي صموئيل يزور الأماكن المرتفعة

بانتظام (1 صموئيل 7: 16). الأماكن العالية كمواقع للعبادة الوثنية الكنعانية (القضاة 3: 19) امتدت إلى فترة إيليا (1 ملوك 18: 16 -40). سيحدد الله مكانًا مرتفعًا واحدًا فقط حيث يؤذن بالتضحية، وكان ذلك هو الهيكل في القدس (2 أخبار 3: 1). أمر الله أن يتم تدمير جميع الأماكن المرتفعة الأخرى. الملك يوشيا دمرها في 2 ملوك 23: 22".

"خلف الحجاب كان المكان الأقدس الذي يعرف باسم قدس الأقداس. كانت الأبعاد 15 ذراعاً على جانب - حوالي 22 قدم على جانب. داخل قدس الأقداس كان تابوت العهد. وفوق التابوت كان كرسي الرحمة.

كان التابوت صندوقًا خشبيًا مصنوعًا وفقًا للمواصفات الإلهية ليحتوي لوحي الناموس، قضيب هارون الذي كان قد تبرعم ووعاءًا من المن. ومصنوعاً من خشب الأكاسيا، هذا الصندوق الغريب الذي يشبه الخزانة مع أعمدة تحمله ويعرف أيضاً باسم تابوت الشريعة. كان طوله حوالي أربعة أقدام وارتفاعه قدمان ونصف القدم. كان التابوت مغطى من الداخل والخارج بالذهب. كانت هناك أربع حلقات مثبتة على جانبيه يمرّ من خلالها العمودين الحاملين. وضع التابوت تحت رعاية اللاويين، الذين كانوا معفيين من الواجبات العسكرية.

على قمة التابوت كان مقعد الرحمة الذي كان له كروبين ذهبيين إثنين مع أجنحة ممدودة في نهاياتها. كان الكروبين، الذين لا يُعرف عنهم إلا القليل، مخلوقات سماوية مجنحة التي كان الغرض منها هو الحراسة والحماية.

أخذ مقعد الرحمة اسمه لأن رئيس الكهنة، مرة في السنة في يوم كيبور، كان يرشه بدماء الذبيحة. كان هذا هو المكان الأقدس في الحرم بأكمله. وكان يرمز إلى العرش المرئي لوجود الله غير المنظور.

النظام الأكثر قبولاً عموماً من قبل العلماء والحاخامات هو النظام الأوسط، Koren, *The Courts of God's Temple* , pp. 274-276. الذي يجعل قدس الأقداس في موقع قبة الصخرة. وفقاً لبعض الآراء، فإن مسجد قبة الصخرة يقع في موقع الهيكل والحجر الذي تم بناؤه حوله هو نفسه الإيفين شتياه. غير أن المصادر الحاخامية الأخرى لا تقبل هذا الادعاء.

يبدو وكأن الأساطير الإسلامية المتعلّقة بالسماوات السبع والأرضين السبع مأخوذة عن مثيلاتها عند اليهود، الذين أخذوها بدورهم، على الأرجح، عن الشعوب التي كانت مجاورة لهم: أساطير انهارت مع الكشوفات الفضائية الحديثة، التي أظهرت أنه ليس ثمة سماء ولا أعمدة تحملها. نقرأ في نص يهودي: "مقابل السماوات السبعة، خلق الله سبع أراض، تُفصل كل واحدة عن الأخرى بخمس طبقات. على الأرض الدنيا، السابعة، التي تسمى إرص [لا يوجد في العبرية حرف الضاد]، تكمن بشكل متتابع الهاوية، طوهو، بوهو، بحر، والمياه. ثم الأرض السادسة، أدماه، مشهد روعة الله. وبالطريقة ذاتها، يتم فصل آدماه عن الأرض الخامسة، وهي الأركا، التي تحتوي

على جهنا، شعاره ماوت، وشعاره زلماويت، وبير شحات، وتيت ها -ياون، وعبادون، وشيول، وهناك أرواح الأشرار تحرسها ملائكة الدمار. وبالطريقة ذاتها يتبع أركا حرابة، الجافة، مكان الجداول والغدران على الرغم من اسمها، كما التي تليها، المسماة يابإشاه، البر الرئيس، تحتوي على الأنهار والينابيع. أما تيبيل، الأرض الثانية، فهي الأرض الرئيسة الأولى التي تسكنها الكائنات الحية، ثلاثمائة وخمسة وستون نوعًا، جميعها تختلف جوهريًا عن تلك الموجودة في أرضنا. بعضهم لديهم رؤوس بشرية موضوعة على جسم أسد أو ثعبان أو ثور. وبعضهم الآخر لديهم أجساد بشرية يعلوها رأس أحد هذه الحيوانات. إلى جانب ذلك، يسكن تيبيل بشر برأسين وأربعة أياد وأقدام، وفي الحقيقة جميع أعضائهم مضاعفة باستثناء الجذع فقط. يحدث أحيانًا أن تتشاجر أجزاء من هؤلاء الأشخاص المزدوجين مع بعضهم بعضاً، خاصة أثناء تناول الطعام والشراب، عندما يدعي كل منهم أنه الأفضل والأكبر بين الأجزاء. هذا النوع من الجنس البشري متميز بتقوى كبيرة، وهو فرق آخر بينه وبين سكان أرضنا. أما أرضنا الخاصة فتسمى هيلد، ومثل غيرها، يتم فصلها عن تيبيل من خلال هاوية، الطوهو، بوهو، بحر، والمياه.

وهكذا ترتفع إحدى الأرضين فوق الأخرى، من الأولى إلى السابعة، وعلى الأرض السابعة، السماوات مقببة، من الأولى إلى

السابعة ، وآخرها مرتبط بذراع الله. السماوات السبع تشكل وحدة ، وتشكل سبعة أنواع الأرضين وحدة ، والسماء والأرض معاً تشكلان أيضاً وحدة.

يستغرق خمس مئة سنة السير من الأرض إلى السماء ، ومن أحد طرفي السماء إلى الآخر ، وأيضاً من سماء إلى أخرى ، ويستغرق الوقت ذاته من السفر من الشرق إلى الغرب ، أو من الجنوب إلى الشمال. ومن بين كل هذا العالم الشاسع لا يوجد سوى الثلث مأهول بالسكان ، أما الثلثان الآخران فينقسمان بالتساوي بين المياه والأراضي الصحراوية.

خلف الأجزاء المأهولة إلى الشرق توجد الفردوس ذات الأقسام السبعة ، كل منها مخصص لورعين بدرجة معينة. يقع المحيط في الغرب ، وهو منقط بجزر على جزر والتي يسكنها العديد من الشعوب المختلفة. وخلفه ، بالمقابل ، توجد سهوب لا حدود لها مليئة بالحيات والعقارب ، خالية من كل نوع من النباتات ، سواء الأعشاب أو الأشجار. إلى الشمال ، هناك مخازن من نار -الجحيم ، الثلوج ، الدخان ، الجليد ، الظلام والعواصف الرعدية ، وفي تلك المنطقة المجاورة تقيم كل أنواع الأشرار ، الشياطين ، والأرواح الخبيثة. ومكان سكناهم هو امتداد كبير للأرض ، وقد يستغرق الأمر خمسمائة عام لاجتيازه. وخلفها تكمن جهنم. وإلى الجنوب توجد غرفة تحتوي على مخزونات من النار ، كهف للدخان ، ومكان صهر الانفجارات والأعاصير. وهكذا نصل إلى أن الرياح التي تهب من الجنوب تجلب

الحرارة والريح الحارقة إلى الأرض. ولولا الملاك بن نيز، المجنح، الذي يمنع ريح الجنوب بأجنحته، فإن العالم كان سيستهلك. إلى جانب ذلك، فإن ضراوة انفجارها تلطّف بالرياح الشمالية، التي تظهر دائما كملطّف، مهما كانت الرياح الأخرى التي تهب.

في الشرق، الغرب، والجنوب، السماء والأرض تلمس بعضهما بعضاً، لكن الشمال تركه الله غير مكتمل، بحيث أن أي إنسان والذي يعلن أنه إله يوضع على كاهله مهمة توفير النقص، ويقف مدانًا كمدع.

بدأ بناء الأرض في المركز، بحجر الأساس للهيكل، الإيفين شيتياه، لأن الأرض المقدسة توجد في النقطة المركزية لسطح الأرض، القدس توجد في النقطة المركزية لفلسطين، ويقع الهيكل في وسط المدينة المقدسة. في الحرم نفسه، الهيكل هو المركز، ويحتل التابوت المقدس مركز الهيكل، المبني على حجر الأساس، الذي هو من ثم في مركز الأرض. ومن هناك صدر أول شعاع من الضوء، مخترقاً الأرض المقدسة، ومن هناك ينير الأرض كلها. غير أن خلق العالم لم يكن له أن يحدث إلا بعد أن نفى الله حاكم الظلام. قال له الله: "تقاعد، لأني أرغب في خلق العالم من خلال النور". فقط بعد أن يكون النور قد صيغ، ظهر الظلام، النور يحكم في السماء، الظلمة على الأرض. لقد أظهرت قوة الله نفسها ليس فقط في خلق عالم الأشياء، بل أيضاً في القيود التي فرضها على كل منها. امتدت السماوات والأرض في الطول والاتساع كما لو كانتا تتطلعان إلى اللانهائية، وتطلبت من كلمة الله أن تطالب بوقف تعدياتهما.

وينعكس هذا في حقيقة أن الإيفين هاشتياه، "حجر الأساس"، كان موجوداً في قدس الأقداس، قلب بيت ها مقداش. وهذا الإيفين ها شتياه كان الأساس الذي خلق عليه الله العالم بأسره.

في عالمنا المادي، تم العثور على هذا المكان في القدس، في مكان ما يسمى "حجر الأساس"، ودعي كذلك لأنه - على حد تعبير التلمود، "منه تم تأسيس العالم". إنه واجهة العالم المادي بجوهره الداخلي، العدم الذي يمتد منه.

وهذا سيؤدي إلى الخلاص على الفور. مياد، (מיד)، التي تعني بالعبرية "فوراً" هي اختصار لأسماء ثلاثة: موشيه (الميم)، يسرائيل (الياء)، وداود (الدال) وهي تطلق تأثيراتها معاً. وهذا سيؤدي إلى الخلاص، عندما "مع شبابنا ومع شيوخنا ... مع أبنائنا وبناتنا، " سوف نمضي إلى أرض إسرائيل، إلى القدس، إلى بيت هامقداش، وإلى قدس الأقداس التي احتوت الإيفين هاشتياه، الحجر الذي استخدم كأساس للعالم كله.

ترتبط الإيفين هاشتياه بمطالبة اليهود بأن يأتي الخلاص على الفور. لأنهم يؤكدون أنهم أكملوا خدمة الكشف عن كيفية قيام العالم بأسره على أساس الإيفين هاشتياه كما هي موجودة دون تغيير في قدس الأقداس.

في قدس الأقداس كان هنالك صخرة والتي نتأت فوق الأرض إلى ارتفاع 3 أصابع. تم الكشف عن الصخرة لأول مرة من قبل الملك داود والنبي صموئيل.

يقول بعضهم إن الصخرة كانت في مركز قدس الأقداس، وبعضهم الآخر يقول إنها كانت بالقرب من الحائط الغربي لقدس الأقداس، وما زال بعضهم الآخر يؤكد أنها كانت بالقرب من الستائر التي تفصل بين القوديش وقدس الأقداس.

هناك صعوبة طفيفة في أقوال رامبام [مختصر موشيه بار ميمون، מֹשֶׁה בֶּן־מַיְמוֹן ؛ أو موسى بن ميمون]. يوضح *التلمود اليورشلايمي* (*Bava Batra* 6: 2) أن التابوت وضع في مركز قدس الأقداس. كما يوجد قول مماثل في مدراش *تنحوما* (*Parshat Kedoshim*، sec. 10). ومع ذلك، فإن المصدر الأخير ينص على أن الإيفين هاشتياه متوضعة خلف التابوت. ربما النتيجة هي أن الحجر كان كبيراً. فقد بدأ في وسط قدس الأقداس، بينما تم وضع التابوت في الجزء الغربي منه"[1]

هذا هو أقدس موقع في القدس. واليهود في كافة أرجاء العالم يصلّون إليه.

---

(1) النصوص مستلة عموماً من المصدر الإلكتروني التالي:
lang=bi؟https://www.sefaria.org/Mishnah_Yoma.4

إذا انتقلنا للقباليين، متصوفي اليهود، يمكن أن نورد النص التالي من *زوهار*: "لم يخلق العالم حتى أخذ الله حجراً يدعى إيفين هاشتيله [حجر الأساس] ورماه في الأعماق حيث تثبت من الأعلى إلى الأسفل، ومنه تمدد العالم. إنه النقطة المركزية للعالم وعلى هذه البقعة يقوم قدس الأقداس."

ويقول *الزوهار* أيضاً: "عندما كان القدوس، المبارك، على وشك خلق العالم، فصل حجراً واحداً ثميناً من تحت عرش المجد وأغرقه في الهاوية؛ بقي أحد طرفيه مثبتاً هناك، بينما وقف الطرف الآخر فوق... من ذلك بدأ العالم، منتشراً إلى اليمين واليسار وفي جميع الاتجاهات".

أساطير الصخرة:
الأصل وبعض من تفاصيل!

كما أشرنا من قبل، ففي عالم الأساطير اليهودي، الحجر [الصخرة]، التي جاءت من عرش مجد الله، جعلت كغطاء على طيهوم tehom، وهي المياه ما تحت الأرضية التي للخلط، chaos، بالعبرية: طوهو بوهو תֹהוּ וָבֹהוּ؛ أي، حالة الكون الخلطية التي تفتقد التمايز، الأمر الذي يتطابق مع أسطورة أبسو عند السومريين والبابليين. فكما بنيت بابل فوق باب أبسو وكانت "bb`بوابة أبسو"، كذلك تماماً فإن حجر الأساس يغطي فوهة طيهوم، مانعاً مياه الخلط التي سبقت الخليقة.

الكلمة العبرية طيهوم תְּהוֹם تعني هوة (مثل كتلة متلاطمة من مياه تحت أرضية) أو صخب مياه مضطربة بعنف أو أمواج عنيفة عكرة، والتي تحدث ضجة هائلة. طيهوم تعني أيضاً الشيء العميق (كما في البحر البدئي أو مصدر المياه ما تحت الأرضية) وينابيع العميق الهائل، وهو ما يتضمن الخلط، السر، العمق والقوة.

إذا أخذنا طيهوم بمعناها الأوسع، فسوف نجدها تعني الهاوية المائية ما قبل الخليقة، الدوامات التي تدور بشكل متسع، طبقة المياه ما تحت الأرضية المادية، والمادة التي لا شكل لها أو الجوهر البدئي الذي خلق منه الله العالم. ولو لم تخرج هذه المياه البدئية، لكانت ستفجر من ثقوب في الأرض وتفيض على العالم كله. والطوفان ـ طوفان نوح ـ في الكتاب المقدّس يُفهم على أنه نجم عن "نزع سدادة" الطيهوم، أي المياه من العمق في الأسفل.

لقد اعتقد قدماء اليهود أن موقع هيكل القدس، الذي الصخرة مركزه، هو على وجه الدقة المكان الذي خرجت منه مياه طوفان نوح وعادت بعدها عبره حين انتهى ذلك الطوفان. ثم وضعت الصخرة الكبيرة على فتحة الهاوية، وذلك للحفاظ على مياه الطوفان محبوسة فيها. لقد كانت حجر الأساس، omphalos، أو السرة البدئية، وكذلك المادة الصلبة الأولى التي خلقها الله، "ووضعها الله وسط فيضان من المياه البدئية لا حدود له."

تقول الإسطورة اليهودية إن الله بنى من ثم الأرض حول مركز لها هو هذا الحجر، تماماً كما ينمو جسد الجنين من سرته. "بالطريقة ذاتها التي يتلقى فيها جسد الجنين غذاءه عبر السرة، كذلك فالأرض كلها تتلقى أيضاً ماءها الذي يغذّيها من هذه السرة."

أن مصطلح طيهوم قريب جداً من الكلمتين العبريتين، طوهو وبوهو، اللتين تستخدمان لوصف حالات الخلط الأصلي ما قبل

الخليقة. طيهوم (كلمة نشأت عن إضافة اللاحقة م إلى طوهو) تعني أيضاً وحش ماء بدئي له الاسم ذاته، وربما أنه يشبه لوياثان أو تعمات في الميثولوجيا البابلية أو أنه مطابق لهما. بوهو، باللاحقة ذاتها، يصبح بيهوم وبيهوموت، كما في بيهوموت أيوب، وتعني الأرض الجافة المقابلة.

يقول روبرت غريفز Robert Graves ورافاييل باتاي רפאל פטאי Raphael Patai، إن طيهوم كان في الأصل اسماً علماً، وتهموت هي النسخة العبرية من الأم تعمات، "محبوبة الإله أبسو Apsu، الذي اسمه مطور عن أبزو Abzu، الأقدم منه؛ وأبزو كان هاوية المياه العذبة المتخيلة، التي بزغ منها إنكي Enki، إله الحكمة."[1]

يقال إن الحجر جاء من جنة عدن[2]، ومثل الإنسان، يقيم على الأرض منفياً. لقد وضع هنا في مركز الخليقة ليس فقط كي يقفل الطيهوم، بل أيضاً كي يوزّع روح الخليقة في العالم. وقد قيل إن جسد آدم الفاني خلق في جزء منه من تراب هذا الحجر. وكان الهدف من هذه الفكرة تمكينه [آدم] من أن يحمل معه دائماً ذكرى أصله الإلهي.

---

(1) راجع كتابنا، *قصص أهل الكتاب في القرآن*.

(2) عن عبد الله بن عباس رضي الله عن أن النبي صلي الله عيه وسلم قال: "نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضاً من اللبن، فسودته خطايا بني آدم"؛ رواه الترمذي.

تنويعة على هذه الأسطورة تقول إنه كان تراباً من موضع كفارة آدم وإنه عند نهاية الزمن، فإن الجنس البشري كله، خليفة آدم، سوف يجتمعون في القدس للتوبة، الغفران، والخلاص في يوم القيامة المحوري التام.

وكما أشرنا في الحديث عن بئر الأنفس، فتحت حجر الأساس في كهف صغير أو تجويف عميق يوجد بير إلـ أنفيه Bir el-Anveh ، أي بئر الأنفس، الصاعدة عبر سلّم ماديّ. وقد قيل إنه في البئر، يمكنك سماع أصوات الموتى وأصوات مياه الجنة المتلاطمة، وأحياناً تندمج الأصوات مع بعضها. تقول الأسطورة إن تابوت العهد كان مخبّأ في طريق مغلق وسرّي تحت بير إلـ أنفيه التماساً للحماية عندما دمّر الهيكل. ويقول بعضهم إن التابوت ما يزال قائماً هناك، تحرسه الأرواح والشياطين.

التاريخ الأسطوري للصخرة - الحجر:

كما أشرنا مراراً، تقول المراجع اليهودية إن الحجر وصل إلى الأرض زمن الأنبياء الأوائل وإنه دعي الإيفين ها -شيتياه لأن أساس العالم ابتدأ مع وصول الحجر إلى مكانه. أكثر من ذلك، فقد نقش عليه "الاسم الأقدس من أن يذكر"، يهوه، اسم الله السري الذي لا يلفظ، الذي تحفظ قوته الطيهوم من أن يغمر بالماء وهو يفيض على العالم. ومعرفة هذا الاسم تجعل المرء سيد الطبيعة والحياة والموت.

في أيام يوسف، ابن يعقوب الذي كان أبا أسباط إسرائيل الإثني عشر، جعل الله الإيفين ها ـ شتياه في يده، يد يعقوب، وهدد يوسف أنه إن نام مع زليخة، "فسوف أرمي بهذا الحجر الذي قامت عليه الأرض وسيؤول العالم إلى الخراب". وحين بُني هيكل القدس، وضع قدس الأقداس، الذي ضم تابوت العهد الثمين، على الإيفين ها - شتياه مباشرة في المركز تماماً.

في التاريخ الديني اليهودي المفترض كانت الإيفين ها -شتياه الموضع الذي عرف ثلاثة أحداث أخرى حاسمة. الأول، كانت المذبح الذي أوشك إبراهيم أن يقرّب عليه ابنه إسحاق قرباناً بناء على طلب الله. الثاني، أنها كانت المكان الذي حدده الله للملك داوود كي يصلح إساءته لله في إثباته أنه يعوز الثقة عبر عرضه أن يحصي اليهود. وكان ردّ الله على هذا التجديف بأن أنزل بلاء قتل بموجبه سبعين ألفاً من الإسرائيليين، لكنه في اللحظة الأخيرة أمر ملاك الموت أن يصفح عن القدس؛ وهذا الملاك كان يقف قرب بيدر لأرونا اليبوسي على قمة جبل مورياه. أمر داوود ببناء مذبح في بقعة إحياء الذكرى هذه تحديداً. وإذ فعل داوود ذلك، فقد أعاد التأكيد على عهد إبراهيم الأصلي بين الله واليهود: "فأتى جادٌ في ذلك اليَومَ إلى داوُدَ وقالَ لَه: اصعَدْ فأقِمْ مَذبَحًا لِلرَّبِّ في بَيدَرِ أرَونا اليَبوسيِّ. فصَعِدَ داوُدُ كما قالَ جادٌ بِحَسَبِ أمرِ الربِّ. ونَظَرَ أرَونا فرأى المَلِكَ ورجالَه آتينَ إلَيه، فخَرَجَ أرَونا وسَجَدَ لِلمَلِكِ بِوَجهِه إلى الأرض. وقالَ أرَونا: لِماذا جاءَ سَيِّدي المَلِكُ

إلى عَبدِهِ؟ فقالَ داود: لأشتريَ مِنكَ البَيدَر، لِكَي أبنِيَ فيه مَذبَحًا لِلرَّبّ، فتَكُفَّ الضَّربَةُ عن الشَّعب. فقالَ أرونا لِداوُد: لِيَأخُذْ سَيِّدِي المَلِكُ وَيُصعِدْ ما يَحسُنُ في عَينَيه: هُوَذا البَقَرُ لِلمُحرَقَة، والنَّوارِجُ وأدَواتُ البَقَرِ تَكونُ حطباً. وهذا كلُه، أيُها المَلِك، يُقَدِّمُه أرونا لِلمَلِك. وأضافَ أرونا فقالَ لِلمَلِك: الرَّبُّ إلهُكَ يَرضى عنكَ. فقالَ المَلِكُ لأرونا: كَلاّ، بَل أشتَرِي مِنكَ بِثَمَن. فلَستُ أُصعِدُ لِلرَّبِّ إلهِي مُحرَقاتٍ مَجَّانيَّة. فاشتَرى داوُدُ البَيدَرَ والبَقَرَ بِخَمسينَ مِثقالاً مِنَ الفِضَّة. وبَنى هُناكَ داوُد مَذبَحًا لِلرَّبّ، وأصعَدَ مُحرَقاتٍ وذَبائِحَ سَلامِيَّة. فعَطَفَ الرَّبُّ على تِلكَ الأرض، كفَّتِ الضَّربَةُ عن إسرائيل".

قيل أيضاً إنه حين صلّى الملك داوود من أجل أن لا يصيب الوباء القدس، رأى ملائكة تصعد سلّماً خشبياً من البيدر إلى السماء، مبعدين سيوفهم المميتة في حلهم وترحالهم. "من هذا، فهم داوود أن قمة الهضبة كانت نقطة الوصول إلى السماء والمكان حيث يجب بناء الهيكل."

الثالث يحكي عن ما هو شهير عند الأب يعقوب من حلم ووسادة. وفي التحضير للنوم عند هيكل القدس، تقول بعض النسخ إنه نام في مكان اسمه لوز، خارج القدس تماماً، أخذ يعقوب إثني عشر حجراً من المذبح ذاته الذي التزم أبوه، إسحاق، أن يقرّب عليه. الأحجار الإثنا عشر، التي تمثّل أسباط بني إسرائيل الإثني عشر، الذين لم يكونوا قد ولدوا بعد، تجمعت على بعضها وشكّلت حجراً واحداً، والذي استخدمه يعقوب من ثم كوسادة.

في حلم رائع، عرف يعقوب مسار تاريخ العالم، بما في ذلك الدمار المستقبلي للهيكل، ورأى سلّماً يمتد من حيثما يجلس إلى أعلى نقطة في السماء؛ وكانت الملائكة تصعد وتهبط على هذا السلّم السماوي في موكب متواصل: "وحَلَمَ حُلْمًا، فإذا سُلْمٌ مُنتَصِبٌ على الأرض ورأسُه يُلامِسُ السَّماء، وإذا مَلائِكَةُ اللهِ صاعِدونَ نازِلونَ عليه، وإذا الرَّبُّ واقِفٌ بِالقُربِ مِن يَعْقوب، فقال: أنا الرَّبُّ إلهُ إبْراهيمَ أبيكَ وإلهُ إِسحق. ...فاستَيقَظَ يَعْقوبُ مِن نَومِه وقال: حَقًّا، إنَّ الرَّبَّ في هذا المَكان، وأنا لم أعلَمْ. فخافَ وقال: ما أرهَبَ هذا المكان! ما هذا إلاَّ بَيتُ الله! هذا بابُ السَّماء! ثُمَّ بَكَّرَ يَعْقوبُ في الصَّباح وأخَذَ الحَجَرَ الَّذي وَضَعَه تَحتَ رأسِه وأقامَه نُصُبًا وصبَّ على رأسِ الحَجَرِ زَيتًا".

عندما صحا يعقوب، أخذ حجراً وجعله مثل عمود ومسحه بالزيت الذي تلقاه من السماء. غمس الله هذا الحجر الممسوح بالزيت في أعماق الهاوية بحيث يمكن أن يعمل كمركز للأرض وسرّة العالم، حيث صار يعرف بالإيفين هاشتياه. بكلمات أخرى، "مخدة" يعقوب وأساس ما دعي غالباً بسلّم يعقوب، كان حجر الأساس. هذا الموقع يدعى أيضاً باسم بيت إيل، "بوابة أو بيت السماء" أو "بيت الإله إيل". هنا، لا بدّ أن نشير إلى التالي: السلّم الشهير الذي كتبت حوله روايات جمعت في السفر الأبوكريفي المسمّى، *سلّم يعقوب* סולם יעקב؛ مع ملاحظة أن سلّم بالأثيوبية تعني معراج؛ كذلك ثمة دور للملائكة

واضح للغاية هنا مثل دورها في الإسراء والمعراج، مع فارق بارز هو أن الرب هو الذي ينزل من سمائه، لا العكس؛ إضافة إلى الإيفين ها ـ شتياه، التي تعتبر العنصر المشترك الدائم في ميثات الصعود.

يلحظ مرجع مسيحي قديم التعلّق اليهودي بالصخرة وهو ما يمكن أن نجده في نص حاج بوردوBordeaux Pilgrim ، المكتوب بين عامي 333 -334، حين كانت القدس تحت حكم الرومان، فيقول: "حجر مثقّب يأتي له اليهود كل عام ويمسحونه، فيندبون ويمزقون أثوابهم، ومن ثم يغادرون."

الصخرة الموجودة في قدس الأقداس، كان يوضع عليها تابوت العهد وكانت داخل الهيكل الأول. وخلال حقبة الهيكل الثاني حين تم إخفاء تابوت العهد، استخدم الحجر من قبل الكاهن الأكبر لتقديم البخور ورش دم القرابين خلال الاحتفال بيوم كيبور.

إذا حاولنا الدخول في التفسير السراني للمسألة، نجد كما أشرنا أنه بدأ بناء الأرض في المركز بالإيفين ها ـ شتياه في القدس لأن المدينة المقدّسة هي في مركز سطح الأرض؛ هيكل القدس الأصلي يقع في مركز المدينة المقدّسة؛ في حرم الهيكل، الهيكل يقع في المركز؛ وتابوت العهد يحتل مركز الهيكل، المبني على حجر الأساس، الذي يقع بالتالي في مركز الأرض. "من هناك صدر أول إشعاع نور، مخترقاً الأرض المقدّسة، ومن هناك ينير الأرض كلّها."

ثمة أهمية أخرى تتجسد في حقيقة أن قدس الأقداس للهيكل كان موطن الشيخينه[1] [السكينة بالعربيّة]، الروح القدس المعبّر عنه

---

(1) السكينة שכינה:

في التقاليد الإسلامية المقدّسة أو شبه المقدّسة، يرد المصطلح " السكينة "، فما هو أصل هذه الكلمة وفصلها، وما هو معناها ومدلولاتها؟

آيات السكينة في القرآن:

1 - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : 248).

2 - ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ التوبة : 25، 26).

3 - ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة :40).

4 - ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح :4).

5 ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح : 18).

6 - ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح : 26).

الأصل اليهودي:

السكينة (بالعبرية : شكينه أو شخينه שכינה): هي السكن، الاستراحة، أو الحضور الإلهي؛ وهو تعبير يستخدم للغاية في الأدب الحاخامي للإشارة إلى حلول
==

الله في العالم. شخينه שכינה هي الله مصوّر بتعابير مكانية – زمانية كحضور، خاصة ضمن سياق هذا العالم: حين يُقدّس مكان، شيء، فرد، أو شعب عن بكرة أبيه – إنها وحي للمقدّس وسط الدنيوي. لكن الشخينه שכינה تستخدم أحياناً على نحو بسيط كطريقة بديلة للإشارة إلى الله ذاته؛ مثل حين نقول، "القدوس المبارك" أو "الرحيم". وعلى سبيل المثال لا الحصر، يعلّق التلمود على آية، "وراء الربّ إلهكم تسيرون ..." (تثنية 13: 5)؛ فيقول: "أمن الممكن للمرء أن يسير خلف الشخينه שכינה؟ ... على الأرجح أن هذا يعني أنه على المرء مضاهاة فضائل القدوس، المبارك" (Sot. 14 a).لكن هذا المصطلح، رغم أنه يبدو مقولماً في مقاطع بعينها، لا بد من تصويره على نحو رمزي تماماً لا باعتباره يمثّل سمة منفصلة للرب، أو أنه بأي معنى جزء من الرب. والفكرة الأخيرة غريبة بالكامل على التوحيد الصارم لليهودية الربّانية التي يشكّل الجوهر الإلهي عندها المقدّمة المنطقية الأساسية. أما الإشارات إلى الشخينه שכינה المفتوحة على سوء التفسير، كتلك التي تتحدّث عن إنزال الله لشخينه שכינה وسط إسرائيل (قارن: Sif. Num. 94)، أو التي تصوّر الشخينه שכינה كمتحدّث مع الله (*مدراش سفر الأمثال* 22: 28)، فهي نتيجة لسوء استخدام الحرية في الوعظ. والحاخامون بالذات لم يكونوا غير ملمين بأخطاء سوء التفسير هذا، وكثيراً ما كانوا يبدأون عباراتهم بجملة، "كيفما يقول"، "إن صح القول" (*Mekh*, Pisha, 12).

من أبرز الصور المرتبطة بالشخينه שכינה، صورة النور. وهكذا، يعلّق الحاخامون على آية، "... والأرض قد تلالأت من مجده" (حزقيال 34: 2)، بالقول: "هذا وجه الشخينه שכינה" (Hul 59 b – 60 a; ARV 1 2, 13a). وفي العولام هاباه [العالم القادم أو العالم الآخر]، يدعم إشعاغ الشخينه שכינה كلاً من الملائكة والأخيار (*خروج راباه* 32: 4؛ *Ber* 17a؛ قارن: *خروج راباه* 34: 29 — 35). وقد أوصل هذا الارتباط مع النور إلى الرأي القائل إن الشخينه שכינה هي نوع من مادة مضيئة؛ كينونة نور خلقها الله. وهذا الرأي موجود عند مجموعة محددة من الفلاسفة اليهود من العصور الوسطى، بل قال به عالم ربّاني من زمن حديث ==

نسبياً. مع ذلك، فصورة النور، المجد المضيء، الإشعاع، ... إلخ؛ ترتبط عموماً بالمقدّس في اللغة الدينية -الصوفيّة، ولا تمتلك بالضرورة مضامين فعلية حول كينونة مضيئة منفصلة. ويؤيد هذا القول أكثر في حالة الشخينه שכינה إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطرق التي يستخدم فيها المصطلح ضمن الأدب اليهودي.

في الترغوم:

مصطلح الشخينه שכינה، في أشكاله الآرامية، موجود جداً في الترغوم، خاصة ترغوم أونكلوس. وهو يستخدم مع مصطلحات وسيطة أخرى مثل " ممرا ياكارا (الكلمة النبيلة)" وذلك لإعادة سبك إشارة بعينها لله؛ ويتم من ثم تجنب استخدام المضامين التجسيمية الصريحة لتعابير كتابية مختلفة؛ فمثلاً: يترجم ترغوم أونكلوس آية، " الرب ليس معكم " (عدد 14 :42)، كما يلي: " شخينه שכינה الرب ليست معكم ". كذلك تترجم عبارة " أما وجهي فلا تستطيع أن تراه لأنه لا يراني إنسان ويحيا " (خروج 33 :20)، على النحو التالي: " لا تستطيع أن ترى وجه الشخينه שכינה " (أنظر أيضاً خروج 33: 14 – 15). و" ليجعل فيه اسمه "، تصبح: " ليريح فيه شخيناه ".

في التلمود والمدراش:

لا يمتلك الاستخدام التلمودي والمدراشي للشخينه שכינה المعاني التبريرية الإضافية ذاتها التي يقدّمها لنا الترغوم؛ فقد استخدمت الشخينه שכינה في الأصل للإشارة إلى ظهور إلهي، خاصة للإشارة إلى وجود الله في حيّز بعينه. لكن هذا لا يعني تحديد قوة الله المطلقة، بل يقال إن الشخينه שכינה موجودة في كل الأماكن (BB 25 a)؛ وإنه كما تشرق الشمس على كل العالم، كذلك هي الشخينه שכינה؛ فحتى الأماكن والأشياء التي يسبغ الله عليها بحضوره قداسة إضافية – كالعليقة التي كشف الله فيها عن ذاته لموسى، أو التابوت، أو جبل سيناء [طور سنين] – التي غالباً ما تُستخدم الشخينه שכינה في نوع من التداعي معها، فالنصوص التلمودية المدراشية تعلّمنا أن ما من مكان محروم من حضورها : لا أخفض الأشجار ولا أكثر الجبال جردة ولا الحرم الخشبي (Shab. 67 a; Sot. 5

==

a; Ex. R. 34:1). ورغم أن حضور الله يتواجد في كل مكان، الشخينه שכינה تنزل بين إسرائيل أكثر مما تنزل بين الأمم غير اليهودية (Ber. 7 a; Shab. 22 b; Num. R 7:8). فإسرائيل شعب مقدّس اختاره الله، كي يحمل إرادته إلى العالم.

لقد قادت أخطاء إسرائيل إلى دمار الهيكل، حيث كانت الشخينه שכינה موجودة دائماً (هذا ينطبق على الهيكل الأول؛ أما الهيكل الثاني فأغلب الاعتقاد أنه كان محروماً من الحضور الإلهي؛ قارن: Yoma 9 b). بالمقابل، نجد موضعاً يقال فيه إنه حتى حينما تكون إسرائيل غير طاهرة، تقيم الشخينه שכינה بينهم (Yoma 56 b). وحين سبي بنو إسرائيل، ذهبت الشخينه שכינה معهم إلى السبي؛ وحين سيتم خلاصهم، ستخلص معهم الشخينه שכינה أيضاً (Meg 29 a).

لا تنزل الشخينه שכינה بين كل شعب إسرائيل فحسب، بل تنزل أيضاً بين عشائر يقال إنها تؤثر في الشخينه שכינה على نحو جيد أو سيء. بالمقابل، حين يجتمع عشرة أشخاص للصلاة [المنيان أو العدد الأقل من أجل إقامة الصلاة]، أو حتى حين يقعد شخص أوحد لتعلّم التوراة، تنزل الشخينه שכינה عليه (Ber. 6 a).

إنها المسئولة عن الرضا والقناعة؛ كذلك فهي تنزل بين الرجل وزوجته حين يكونان في حالة استمتاع (Sot. 17 a)؛ ومن المناسب أن يتلقاها المحسنون (BB 10 a)؛ وكذلك أيضاً المتميزون في إنجاز المصباه صيصيت (Hag. 16 a). بالمقابل، فإن من يمشي بقامة منتصبة (أي بغرور)، يبعد، إذا صح القول، أقدام الشخينه שכינה عنه (Ber. 43 b)؛ وكذلك أيضاً من يأثم بشكل سرّي (Hag. 15 a). الشخينه שכינה لا تنزل بين الحزانى، الكسالى، محبي اللعب، خفيفي العقل، أو الذين يتحاورون بشكل تافه؛ لكنها تنزل فقط على من يؤدي المصباه عبقه (.Shab 30 b)؛ أما الهازئون، المتملقون، الكاذبون والقتلة، فسوف لن تنزل الشخينه שכינה بينهم أبداً (Sot 42 a).

القاضي العادل يجعل الشخينه שכינה تنزل بين إسرائيل، أما غير العادل فيقصيها بعيداً (Sanh. 7 a).

==

كحضور أنثوي وكجوهر التصوف اليهودي الشيخينه، التي تعني "راحة" أو "إقامة"، كانت تفهم على أنها السمة المؤنثة لله والطريقة التي يظهر بها الله في العالم المحسوس. وأحياناً تشبّه بوجه الله أو الأجنحة.

يمكن للمصطلح أن يصوّر أيضاً عبر عبارات مثل: "تحت أجنحة [أي تحت رعاية] الشخينه שכינה". فيقال إن المهتدين إلى اليهودية يؤخذون "تحت أجنحة الشخينه שכינה" (Shab. 31 a; SER 6:29). أنظر أيضاً: Tosef. Hor. 2:7. كذلك فقد نقل موسى إلى مكان دفنه ملفوفاً "بأجنحة الشخينه שכינה" (Sot. 3 b).

ترتبط الشخينه שכינה عموماً بشخصية كاريزمية إذ يعتقد أنها تنزل على أشخاص بعينهم. "لا تنزل الشخينه שכינה إلا على شخص حكيم، غني، شجاع، ورفيع المقام" (Ned. 38 a; Shab. 92 a). وقد اعتبر حاخامون تلموديون عديدون بأنهم كانوا جديرين بأن تنزل الشخينه שכינה بينهم، لكن جيلهم لم يكن يستأهل ذلك (Suk. 28 a; MK 45 a; Sot. 48 b). ويبدو التداعي الكاريزمي وكأنه مرتبط بفكرة مفادها أن أفراداً بعينهم يمتلكون الروح ها -قوديش، أو الروح القدس. من هنا، فاستعمال المصطلح "الشخينه שכינה" يبدو وكأنه يتراوح بين الوحي القدسي لله، كما في الظهور على طور سنين، أو الحضور الإلهي الذي يوحي بالرعب، كما في الحديث إلى موسى في الخيمة، نزولاً حتى الفكرة الأكثر دنيوية التي تقول، إن عملاً دينياً أو مصباه، يمكن أن يقرّب الإنسان إلى الله. وأحياناً تكون الشخينه שכינה بديلاً لفظياً عن الله، في حين تمتلك في أحيان أخرى معان إضافية لشيء مفصول عن ذات الله؛ فيمكن بالتالي استخدام الشخينه שכינה على نحو شخصي أو لا شخصي. وبرأي اللاهوت اليهودي، من الخطأ التأكيد على استخدام بعينه وذلك بهدف استبعاد الاستخدامات الأخرى، لكن من المهم أيضاً تصوير الشخينه שכינה على أرضية من التوحيد اليهودي ككل. ومن الممكن، بالمقابل، الأخذ برأي غير ميثولوجي إلى حد ما يتعلّق بالفهم الحاخامي للشخينه שכינה؛ رأي كهذا معبّر عنه في الأدب التلمودي بالذات، وإن كان لفرد بعينه: "قال حاخام يوسي: لم تنزل الشخينه שכינה إلى العالم قط، ولم يصعد موسى قط إلى الأعالي" (Suk. 5 a).

الشيخينه هي ذلك الجزء من الله الأقرب إلى البشر، العالم المادي، ومثل اليهود (وكل الجنس البشري)، تتجول في العالم منفية عن الألوهة. إن مجد إسرائيل، زوجها، سوف يدخل وقتياً حجرة الزواج هذه وينضم إلى عشيرته [بمعنى الخليلة هنا]، الشيخينه، من أجل فائدة كل إسرائيل، أرضاً وشعباً. وكل هذا المجد كان على الحجر.

نعرف طبعاً أن القدس كلها اعتبرت مقدسة على مدى ألوف السنين، ربما خمسة آلاف سنة، كما يخبرنا علماء الآثار. إنها مدينة مقدسة بأسماء عديدة: فمن العام 1200 ق. م. إلى العام 1000 ق.م. تقريباً، كان اسمها يبوس، أو إر هايبوسي، أي مدينة اليبوسيين، وهي حصن يقع على قمة إحدى التلال احتله الملك داوود في القرن العاشر ق.م. كانت صيون Tsiyon، أو صهيون، كلمة توحي بجنة أرضية تم تشكيلها وفق أنموذج بدئي سماوي، هو ربما أورشليم السماوية. كانت المدينة تدعى أيضاً يرئيه -شاليم Yir'eh-Shalem، وهي كلمة مركبة لها معان كثيرة. بالمعنى العريض، التسمية تشير "إلى مكان حيث سيري (يرئيه) الله في وقت لاحق، أو سيجعل معروفاً على الأرض، كمالية أو تمام (شاليم) ما هو فوق". ثم عرفت القدس باسم يروشاليم Yerushalem (بصيغة المفرد)، يروشالايم Yerushalayim (بصيغة الجمع)، روسرشاليم Rusrchalim (تسمية مصرية)، يوروساليمو Urusalimmu (تسمية آشورية)، هيروسوليما

Hierosolyma (تسمية يونانية)، وجيروسوليما Jerosolyma أو هيروساليم (Hierosalem) تسمية مسيحية.

على نحو تعميمي، يمكن تفسير التسمية بأنها تعني "أساس السلام"، حيث تعني أحرف التسمية الساكنة، ش ل م، تاماً أو كاملاً (شاليم) [لاحظ "سالم" العربية] أو سلاماً (شالوم). الموقع الأرضي حيث تم تأسيس هذا السلام هو يرو أو يرئيه (وهو أحد أسماء القدس السبعين). الجذر العبراني، ياراه، يعني "تؤسس"، وهكذا فشاليم سوف تؤسس هنا.

ثمة تفسير بديل أو ربما مكمّل للتسمية يوروشالايم يقول إنها كانت مركز عبادة الإله الكنعاني شاليم Shalim، وهو إله أشارت إليه الميثولوجيا الأوغاريتية، التي تعترف بإلهين اثنين: شاهار، إله الشمس المشرقة، وشاليم، إله الشمس الغاربة. المهم هنا هو أن هذين الاسمين، شاهار وشاليم، يشيران أيضاً إلى كوكب الزهرة، الذي هو نجم الصباح والمساء.

ثمة تحريف لهذا لا يخلو من الجدل: فالزهرة قديماً عرفت باسم سوفوروس أو لوسيفر [إبليس]. وهنا إما تعريف ميتافيزيكي أو علم -فلكي بدئي، لكنه يوحي أنه في مستوى معين، تبدو أورشليم أساس الزهرة أو لوسيفر، المعروفة للعبرانيين باسم هليل بن ساهار، ابن الفجر، رب النور، المشع، محضر الفجر، ومحضر النور.

وبحسب المراجع اليهودية، ففي ثالث أيام الخليقة، كان لوسيفر، الملاك الرئيس عند الله وأحد الكيروبيم، "يتمشّى في عدن وسط الجواهر المذهلة، جسده متوهج بنور الأحجار الكريمة، وكلها موضوعة في ذهب صافٍ". كان الله قد جعل من لوسيفر حارساً لكل الأمم. وتقول المراجع اليهودية إن لوسيفر كان يتوق للجلوس على عرش سافون، جبل الجمعية، وبسبب هذا الطموح طرده الله من السماء إلى ظلمة عميقة في هاوية سيلوم التي لا قعر لها. وحالما سقط من النعمة، أشع لوسيفر كالبرق. السؤال الذي يطرح نفسه هنا، إن كانت القدس بشكل أو بآخر أساس لوسيفر، فهل كان هذا قبل السقوط أم بعده؟

البناء: تاريخ أسطورة أم أسطرة تاريخ؟

من الصعوبة بمكان تحديد الخيط الرفيع الذي يفصل بين الأسطورة والتاريخ في الديانة اليهودية، كما هي الحال في كل الديانات. لذلك ارتأينا تقديم الرأي اليهودي كما هو، لأننا هنا في حقل مقارنة دينية لا نقدية كتابية. وهكذا، تقول المراجع، إنه عملاً بالخطط المعمارية التي أعطاها الله لموسى، قام الملك سليمان بتنظيم بناء أول هيكل في القدس، والذي انتهى عام 957 ق.م. ودمره البابلي نبوخذ نصر عام 586 ق.م.؛ ثم أعيد بناؤه عام 515 ق.م. وأثناء حكم هيرودس الروماني، تم توسيع الهيكل الثاني إضافة إلى بناء الحائط الشرقي

الشهير (حائط المبكى) ؛ وما يزال جزء من هذا الحائط قائماً ، وهو البقية المادية الوحيدة التي حفظها لنا الزمن من الهيكل.

عام 70 للميلاد [يقول اليهود المتدينون ، عام 69 ، نظراً لقداسة الرقم 70 عندهم] ، أزال الرومان هيكل القدس ، وأسس الإمبراطور هارديانس هيكلاً مكرّساً للإله جوف (باليونانية ، جوبيتر). وقد دمّر هذا بدوره على أيدي البيزنطيين الغزاة ؛ ومنْ بعدها احتل الفرس المدينة ؛ والستة عشر قوساً المحيطة بحجر الأساس مدعمة بأعمدة جاءت من كنس القدس السابقة التي دمرها الفرس وقت احتلوا المدينة عام 614 ب.م.

عام 638 ، أخذ الخليفة المسلم ، عمر بن الخطّاب ، القدس ، بعد ست سنوات على موت محمد ، نبي الإسلام. فطهّر عمر جبل الهيكل ، المدعو بالعربية الحرم الشريف ، ثم كرّس المكان كموقع للعبادة عند المسلمين.

عام 687 بنيت قبة الصخرة ، بعد وفاة محمد بنحو من خمسين سنة. وبعد أن أخذ المسيحيون القدس عام 1099 أثناء الحروب الصليبية ، تم تحويل قبة الصخرة إلى مزار مسيحي وسميت Templum Domini ، أي هيكل الرب ، وظلت على هذه الحالة نحواً من تسعين سنة.

استرد المسلمون بعد ذلك سيطرتهم عليها ، وهي اليوم ثالث أقدس مكان عند المسلمين ، وذلك بعد الكعبة في مكة والمسجد النبوي في المدينة.

عودة إلى الأسطورة:

كما ذكرنا من قبل، فقد بني هيكل سليمان في القدس من مخطط هندسي إلهي، نقل بوساطة الوحي إلى البشر. وكثيرون يعتقدون أن الخطة كانت الأنموذج البدئي لمدينة سماوية، أي القدس الأصلية، الإلهية. كان الهيكل "أداة علم سرّاني، لا يعرفه غير الكهنوت"، معبداً كونياً، مدينة سماوية، معياراً أبدياً، وصورة عالمية، كما يقول جون ميتشل John Michell، وهو مرجع معتبر في السرانيات القديمة.

يقول ميتشل، إن أرقام ومقاييس وتناغمات الخطة الموحاة كما أعطيت للملك داوود، والد سليمان، انعكست في المنظومة المثالية للكون. في تلك الخطة نجد "المفتاح لمعرفة منسية، للخطة التي صُنع العالم بحسبها، للقانون المفقود المتعلق بالعدد والمقاييس والموسيقى"، المستخدم من قبل المصريين والحضارات الأخرى القديمة. بكلمات أخرى، إن التفاصيل الهندسية لهيكل القدس، برأي ميتشل، هي وحي، بغض النظر عن أي هيكل مادي تم بناؤه.

القبة على جبل الهيكل، في القدس القديمة، بل المدينة بكاملها تتناسب مع الدبران، نجمة ألفا وعين الثور. وحجر الأساس ضمن قبة الصخرة هو مركز القبة. الدبران، النجم الثالث عشر الأكثر إشعاعاً في مجرتنا، هو أول نجم كبير يقع على مسافة 68 سنة ضوئية من الأرض، أكبر بأربعين مرة من شمسنا وأكثر إنارة بمئة وخمس وعشرين مرة. عادة ما يوصف لونه على أنه وردي أو برتقالي محمر، وهي سمة

لاحظها الفلكيون الهنود في تسميتهم، روهيني، التي تعني "الأحمر" أو "الغزال الأحمر". في الميثات الهندية، روهيني هي أنثى الوعل، ابنة الوعل الذكر، المسمى براجاباتي، رب الجيل .

التسمية "الدبران" عربية، وتعني "التابع" أو "منير التابع"، إشارة إلى ظهوره في السماء مباشرة بعد ظهور الثريا Pleiades أو وعا القلائص Hyades، وكلاهما في الثور؛ وهو يعقب مباشرة غروب هذين النجمين. الدبران عند فلكيي بلاد ما بين النهرين، كان واحداً من أربعة أنجم ملكية، أو "المراقبين"، إضافة إلى قلب العقرب Antares في العقرب، نجم المليك أو قلب الأسد Regulus في الأسد، وفم الحوت Fomalhautفي الحوت (Austrinus Piscis : الحوت الجنوبي). لقد عرفه البابليون باسم إيكوو (نجم النجوم القائد)، وعرفه الأكاديون باسم جيسدا، " ثلم السماء." وللدبران رابط بالنسبة لسمات الطوفان، طيهوم، والمياه الكونية الأخرى لحجر الأساس؛ وفي ثقافات متعددة نجد أن الدبران كان مرتبطاً بآلهة المطر وخصوبة الأرض. ثمة سمة فلكية هامة عند الدبران هي أنه واحد من قلة من نجوم أولى ضخمة والتي عادة ما يخفيها القمر.

حجر الأساس لا يحفظ المياه تحت جبل الهيكل من الصعود وغمر القدس؛ لكن الحجر، الذي هو أداة فلكية، هو "السدادة" في أعلى المياه الكونية الخارجة من العوالم العليا. إنه عالم الإيثر، "المياه" البدئية التي للخليقة، المياه التي فيها كلمة شيفرة سرانية للإيثر ومادة بدئية

خلاقة أو الماتريكس، لمستوى من خلط مؤكد منه شعورياً لا تميّز فيه بالنسبة لنا.

إن حجر الأساس الفعلي هو المنظم لتدفق المياه الكونية من الأعلى إلى الأسفل، والتي حين تتدفق، تغمر الوعي البشري بالرطوبة الواعية الحية الممدة بالطاقة للعوالم الروحية. ويمكنك القول إن هذا الحجر ينظم مدى العمق الذي يمكن فيه للذاكرة والوعي الكونيين دخول السلسة البشرية المتواصلة في زمن بعينه دون أن يوصل الناس إلى الجنون.

الكثير جداً من المعرفة المتعالية لا تشبه غير الخلط؛ ويمكن أن تكون سمّاً مميتاً. لكن حين جفّت الأرض بالمذهب العقلي والمادية الإلحادية، حين صارت الأرض البور، كما يحدث بين الفينة والفينة، من المناسب عندئذ أن نجعل قليلاً من الماء يرطب الأرض. وأحد سادة هذا العالم المائي كان الملك سليمان، الذي شكّل، مع زوجه، سفينة الزمان، مستخدماً الخشب من الشجرة الأصلية في جنة عدن.

سر الزمردة:

كما اكتشف يعقوب ومحمد، فإن الحجر هو أيضاً المكان الاستهلالي لمعراج شهير داخل العوالم الروحانية العليا. الحجر ذاته ـ الإيفين ها ـ شتياه الحقيقي ـ هو السلّم إلى العوالم الأعلى.

إنه الزمردة، الأساس الحقيقي وحجر الأساس للقدس. إنه حجر أخضر جاءت به الملائكة من السماء إلى الأرض، الحجر الذي أحرق به

الفينيق وصار رماداً ثم عاد إلى الحياة، الحجر الذي "لا يفسد أبداً" والذي "جوهره هو الأنقى"، المعروف باسم غريل، كما كتب فولفرام فون إشنباخ Wolfram von Eschenbach.

بكلمات عملية، الزمردة كشكل نوراني فائق تجلس على نحو رائع على حجر الأساس المادي ضمن قبة الصخرة على جبل الهيكل. الحجم غير ذي صلة بالموضوع وهي لدنة؛ ومن السهل التفاعل معها إذا سمحت لنفسك أن تنظر إليها باعتبارها بحجم ناطحة سحاب. من السهل الدخول بتلك الطريقة، والتي يمكنك القيام بها من خلال أي من جدرانها السائلة، القابلة للنفوذ.

مكان حبس لوسيفر:

بالتزامن مع إلغاء مهمة هيكل القدس كان حبس لوسيفر، رب النور، تحت حجر الأساس. إن مؤسسة الزهرة، القدس الجديدة، القديمة، والبدئية، هي عالم النور.

في موضع ما من المسيحية، كان الميل لدفن لوسيفر تحت الثقل الغرانيتي لكاتدرائية قوطية هائلة، مثل تلك التي في لنكولن في إنكلترا. ومن أجل أن تُشفى القدس كمدينة، يجب أن يفك أسر لوسيفر، أساسها، ومن أجل أن تُكشف القدس الجديدة على الكوكب، يجب أن يُسترد ربّ النور إلى موقعه ما قبل السقوط كملاك لله.

عودة إلى الواقع:

الصخرة متوضعة باتجاه مركز جبل الهيكل، مكان بني واتسع عبر قرون عديدة. والشكل الحالي هو نتيجة توسيع قام به هيرودوس الكبير على قمة قناطر فوق هضبة، يعتقد عموماً أنها جبل مورياه. والصخرة تشكّل قمّة هذه الهضبة المخفية الآن، التي هي أيضاً الأعلى في القدس الكتابية القديمة، حيث تشرف على مدينة داوود.

هنالك نوع من الجدل بين الباحثين العلمانيين بشأن تحديد مكان جبل موريا، جبل الهيكل وحجر الأساس باعتبارها المكان الذي جرت فيه الأحداث بحسب الرواية التوراتية.

تساعد الكتابات اليهودية الأولى في التأكيد على أن قبة الصخرة، التي اكتملت عام 691، هي موقع قدس الأقداس وبالتالي فهي موقع حجر الأساس. يقول نص من *بيرقي ده -رابي اليعيزر*، وهو رواية مدراشية لأهم حوادث أسفار التوراة الخمسة الأولى والذي يعتقد أنه جمع في إيطاليا بعد عام 833 مباشرة: "قال حاخام يشمائيل: في المستقبل، سيعمل أبناء اسماعيل [العرب] خمسة عشر أمراً في أرض إسرائيل ... سوف يسيجون في ثلوم جدران الهيكل ويشيدون بناء في موقع المزار".

الباحثون المتدينون اليهود ناقشوا فيما بينهم مكان الصخرة على وجه الدقة. رادباز مقتنع أنها "تحت القبة على جبل الهيكل، التي يسميها العرب الصخرة، يقع دون شك حجر الأساس". في رحلات

كل من الحاخام بتاحياه الذي من راتيسبون، 1180 تقريباً، وبنيامين الذي من توديلا وتلميذ الرامبام [موسى بن ميمون]، يتم التأكيد على أنه "على جبل الهيكل يقوم مزار جميل بناه ملك عربي منذ زمن طويل، على موقع مزار الهيكل والباحة". أما الحاخام عوباديا بن أبراهام الذي كتب رسالة من القدس عام 1488، فيقول إنه "فتش عن مكان حجر الأساس حيث وضع تابوت العهد، وقد أخبرني كثير من الناس أنه تحت قبة طويلة وجميلة حيث بنى العرب في فناء الهيكل".

غيرهم يخالفونهم الرأي، فيقولون إنه إذا كان الحائط الجنوبي لجبل الهيكل هو في الواقع ذلك الذي كان موجوداً حين كان الهيكل قائماً، فالمقاييس التي يعطيها التلمود لا يمكن التوفيق بينها. إن قدس الأقداس ينتهي في موضع بعيد جداً شمالاً وهم بالتالي يجعلون حجر الأساس على أنه يقابل مباشرة الجزء المكشوف حالياً من الحائط الغربي، حيث لا يقوم بناء الآن. وهذا هو رأي أريزال والماهاراشا، حيث يوردان النبوءة التي تقول: إن "صهيون سوف تصبح حقلاً محروثاً"؛ والتي تشير إلى أنه لن يقيم أحد هناك حتى زمن الخلاص. من هنا نستنتج أن منطقة باحة الهيكل وقدس الأقداس موجودة في المنطقة غير المبنية بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

يعتقد بعضهم إن الموقع شمال قبة الصخرة، مقابل بوابة الرحمة، التي يقول الحاخام إيمانويل حاي ريقي إنها بوابة شوشان المذكورة في التلمود. وقد وصفت هذه البوابة على أنها مقابل فتحة المزار.

أخيراً فإن الأكاديميين اليهود المعاصرين يقدّمون أربعة مواقع ممكنة للحجر الأساس:

1 - الحجر الواقع تحت تابوت العهد هو الحجر الذي تحت قبة الصخرة.

2 -الحجر الذي كان تحت المذبح هو الآن الحجر تحت قبة الصخرة.

3 -الحجر الذي كان تحت تابوت العهد هو الآن قرب نبع إيل كاس جنوب قبة الصخرة.

4 -الحجر الذي كان يقع تحت تابوت العهد داخل قبة الأرواح الواقعة جنوب قبة الصخرة.

قسم يشوع جبل موریاه في حصة سبطي يهوذا وبنيامين. منطقة الجبل، القاعات، وحجرات البلاط أعطيت ليهوذا؛ لكن الردهة ("أولام")، الهيكل، وقدس الأقداس بنيت في حصة بنيامين. مع ذلك، فإن شريط الأرض الذي يجري ضمن الهيكل، الذي أقيم عليه المذبح، كان من حصة يهوذا. وبحسب مرجع آخر، لم تقسّم القدس بين الأسباط، وصار جبل موریاه ملكية عامة.

كعب الأحبار وعمر والصخرة

"كعب الأحبار، هو من جنوب جزيرة العرب، عاش زمن عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني (634 -644)، وعثمان بن عفّان، الخليفة الثالث (644 - 656)، وينحدر كعب على الأرجح من الحميريين المتهودين. اعتنق الإسلام أثناء حكم عمر. وتشير صفة الأحبار (جمع حبر חבר = عالم ديني غير مسلم) إلى أنه كان مصنفاً بين العلماء، وفي الأدب الإسلامي تُذْكر باسمه فعلاً أقوال عديدة للحاخامين وأقوال من الهاغاداه، وهو ما يجعلنا نستنتج أنه كان يعرف التقليد الشفوي [التلمود والمدراش]. كان كعب أحد أتباع عمر حين دخل الأخير القدس، وبناءً على طلبه، حدّد له [كعب] الموضع الذي كان الهيكل مبنياً عليه. وبحسب التقاليد، فقد حاول المسيحيون إخفاءه عن الفاتحين. عندما كُشف عن هذا الموقع، حاول كعب حثّ عمر على بناء المسجد (مسجد عمر) شمال الصخرة، بحيث توجّه إليها القبلة [في الصلاة] بدلاً من مكة. لكن عمر رفض هذا الاقتراح، معتبراً أنه موحى بميول يهودية. وما لبث أن وبخّ كعباً بقسوة وجعل قبلة المسجد في مقدمة جبل الهيكل (جنوب الصخرة). وينسب الجغرافي الهمذاني

لكعب قولاً يشهد على توقيره للصخرة. "قال الله للصخرة : أنتِ عرشي ومنك صعدت إلى السماء...". وبحسب الطبري وابن الأثير، ظلّ كعب مع عمر حتى قتل[1]. وكان قد حذّر عمر قبل الهجوم عليه من أنه سيموت قريباً. كان كعب حاضراً في بلاط الخليفة الثالث. وهناك كانت له بعض المشاحنات مع مسلم تقوي، هو أبو ذر. يقول البلاذري : "إنَّ عثمان سأل كعباً ما إذا كان يُسمح للحاكم أن يأخذ نقوداً من بيت مال المسلمين إذا كان بحاجة لذلك على أن يردها فيما بعد ولم يجد كعب غضاضة في هذا العمل. فقال له أبو ذر عندئذ : أتعلّمنا يا ابن اليهود"[2].

روى الطبري والمسعودي حوادث مشابهة. وهذه الحوادث (إضافة إلى القصة المذكورة آنفاً والمتعلّقة بالقبلة) تظهر أن موقف المؤرخين من كعب لم يكن متجانساً. لكن مؤلّفي قصص الأنبياء لايقرّون بذلك إذ يعتبرونه مرجعاً رئيساً[3]. ينظر إليه كأنموذج بدئي "للإنتهازية اليهودية"[4].

---

(1) انظر مناقشة مقتل عمر في كتابنا، *يوم انحدر الجمل من السقيفة*.

بالنسبة للنص المتعلق بعمر في المرجع اليهودي، انظر مقدمة الطبعة الثالثة من كتابنا، *يوم انحدر الجمل من السقيفة*.

(2) انظر : *أنساب الأشراف* : 4 : 542.

(3) انظر : *Encyclopedia Judaica*, 10: 488.

(4) *E. Judaeca* 10/488.

لماذا كعب ؟

رغم أهمية عبد الله بن سلام ووهب بن منبه اللذين يتردد اسميهما باستمرار كمصدرين لتفاصيل ذات صبغة حاخامية في التراث الميثولوجي الإسلامي، فإنّ كعب الأحبار هو الأكثر جدارة بالانتباه لدوره البارز على الصعيدين الميثولوجي والسياسي، فكيف عُرِّفت بعض المصادر الإسلامية التاريخية هذا الرجل؟

يقول الذهبي : "كعب بن ماتع الحميري اليماني، العلاّمة الحبر... الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر (رض). فجالس أصحاب محمد ﷺ، فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية ويحفظ عجائب، ويأخذ السنن عن الصحابة، وكان حسن الإسلام، متين الديانة، من نبلاء العلماء"[1].

تتناقض الروايات التاريخية في مسألة إسلام كعب: هل حدث في المدينة أم خارجها؟ هل كان قبل غزو القدس أم بعده؟ وفق حدود علمنا، ينفرد ابن أعثم في رواية قصة إسلام كعب، فيقول : "ثم دخل عمر (رض) إلى بيت المقدس، ونزل في كنيستها... وأقبل إليه كعب الأحبار يريد الإسلام، فعرض عليه عمر الإسلام، وقرأ عليه : "يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا مما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن

(1) *سير أعلام النبلاء*، مؤسسة الرسالة، 1983، 3: 489.

نطمس وجوه فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمرا مفعولاً" [4: 47]. فلما سمع كعب ذلك أسلم في ساعته، ثم قال : يا أمير المؤمنين، مكتوب في التوراة : "إنّ هذه البلاد التي كان بنو إسرائيل أهلها يفتحها الله عزّ وجلّ على يد رجل من الصالحين، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، سرّه مثل علانيته، قوله لا يخالف فعله، القريب والبعيد عنه في الحق سواء، أتباعه قوم من أهل التوحيد، رهبان الليل، فرسان النهار، متراحمون متواصلون متباذلون، يغسلون فروجهم ويتزرون على أوساطهم، أناجيلهم في صدورهم وصدقاتهم في بطونهم، ألسنتهم رطبة بالتكبير والتقديس والتهليل، وهم الحامدون الذين يحمدون الله عزّ وجل على كل حال، وفي سهول الأرض والجبال، أول أمة تدخل الجنة يوم القيامة".[1] فقال عمر : ويحك يا كعب، أحق ما تقول؟ فقال كعب : أي والذي يسمع ما أقول. فخرّ عمر ساجد"[2].

إذن : مما سبق ـ وغيره كثير ـ يمكن أن نستنتج أن إسلام كعب حدث عام 638 م تقريباً، أي بعد خلافة عمر بنحو من أربع سنين.

---

(1) هذا الكلام المسكوب بعربية فصيحة، لم نجده في أي مرجع يهودي حتى الآن. والأرجح أنّ كعباً اخترعه، ليس إلا.

(2) *كتاب الفتوح*، ذكر إسلام كعب، دار الندوة الجديدة، بيروت، ط1، 1 : 296 – 270.

لكن كعب، "كعب الأحبار"، الذي لم يكن شاباً يافعاً آنئذٍ، فالعلوم الهاغادية التي يختزنها في رأسه برأينا بحاجة إلى سنوات خبرة طويلة، لا بد أن يدفعنا إلى التساؤل: لماذا لم يحصل إسلامه هذا في عهد النبي أو أبي بكر؟

يتناول هذه المسألة أحد المصادر، فيذكر معللاً: "قال العبّاس لكعب، ما منعك أن تُسلم في عهد النبي وأبي بكر؟ فقال [كعب]: إنَّ أبي كتب لي كتاباً من التوراة، فقال: أعمل به! وختم على سائر كتبه، وأخذ عليّ بحق الوالد على الولد ألاّ أفضَّ الختم عنها، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت: لعلّ أبي غيب عني علماً؟ ففتحتها، فإذا صفة محمد وأمته. فجئت الآن مسلماً"[1].

هذا هو التفسير المنسوب إلى كعب الأحبار: لكن، إذا صحَّ، فلماذا لم يفتح تلك الكتب إلا في زمن عمر، وفي زمن غزوه للقدس على وجه التحديد؟

في اعتقادنا، أن التفسير المحتمل الوحيد، النابع من فهمنا الدقيق للعقلية اليهودية كما تقدّمها لنا الأسفار الحاخامية، التلمودية والمدراشية، أن كعباً لم يكن واثقاً في البداية من أنَّ الإسلام سيكون دولة تهز العالم، خاصة وأنَّ المشاكل حاقت بأبي بكر ودولته الوليدة

---

(1) محمود أبو ريّة، *أضواء على السنة المحمدية أو دفاعٌ عن الحديث*، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص ص 148 -149.

بعد وفاة النبي مباشرةً: فمن جهة الصراع الداخلي على الخلافة والذي وصل إلى قمته في أحداث سقيفة بني ساعدة، ومن جهة أخرى الصراع الخارجي مع الذين ارتدّوا عن الإسلام أو الرافضين لخلافة أبي بكر. لكن بمجيء عمر، ترسّخت دعائم الدولة، وتوجّهت جموع الفاتحين تدك عرشي الفرس والروم، ألد أعداء اليهود.

يقول التلمود البابلي، *رسالة عبدة الأوثان*، على سبيل المثال: "في الزمن الآتي، سيأخذ القدّوس المبارك الكتاب بيده، ويقول: من كان منشغلاً بهذا سيظهر للعيان وينال أجره... اجتمعوا يا كل الأمم... ستدخل روما في البداية، بسبب عظمتها... ويصدد روما، قيل: فتأكل الأرض وتدوسها وتسحقها.. وبعدما تذهب روما، ستدخل فارس... ويخرجون هم أيضاً خائبين... لأنهما الأمّتان اللتان استعبدتا إسرائيل"[1]. - وكالعادة، ينتقم اليهود لأنفسهم من الذين أذلوهم، بتخيل إذلال لهؤلاء في العالم الآخر؛ لكن مع عمر بن الخطاب، تهيأ لليهود أن يستمتعوا بإذلال الفرس والروم في هذا العالم!

(1) ترجمة وتقديم، نبيل فياض، دار الغدير، ط1، ص 19 وما بعد.

الصخرة المقدسة:

لقد جاء كعب الأحبار عارضاً إسلامه وعمر يستعد لأخذ بيت المقدس سلمياً: كانت الفرصة ذهبية. فالمسيحيون كانوا قد أنهوا الوجود اليهودي في القدس، وكوّموا الزبالة فوق مقدّساتهم، لطمس معالمها - خاصة الصخرة. فلماذا الصخرة، مع ملاحظة أنه لا ذكر لهذا الموضع بأية حال في القرآن؟

نضيف إلى ما سبق وقلناه عن الصخرة ما تقوله المشنا الرابعة في *رسالة يوما* في التلمود البابلي: "حين أُخِذ تابوت العهد، كانت هنالك صخرة من أيام الأنبياء الأوائل، تدعى شيتياه [الأساس]، فوق الأرض بثلاثة أصابع. عليها كان يوضع البخور"[1].

من المراجع المعاصرة، تقدم لنا *الموسوعة اليهودية* مسحاً شاملاً للآراء المتعلقة بتلك الصخرة: "إفن شيتياه אבן השתייה، تعبير من الأزمنة التنائية فُهِم في الأزمنة التلمودية بطريقتين مختلفتين: الصخرة التي نُسِج العالم منها وصخرة الأساس. ويفترض المعنيان ما مضمونه أنّ العالم خُلِق من الصخرة والتي كونها تموضعت في وسط العالم في قدس أقداس (دفير = محراب) الهيكل في القدس، فهي تشكل بؤرة العالم. لقد وضع التابوت المقدس على هذه الصخرة، وخلال حقبة الهيكل الثاني وضع الكاهن الأكبر عليها حوض النار حين دخل قدس

(1) The Babylonian Talmud, *Tract Yoma* (*Day of Atonement*), P.76.

الأقداس في يوم الغفران. [وكما رأينا]، فالمشنا تقول، إنَّ الصخرة في موقع الدفير منذ زمن الأنبياء الأوائل[1] (أي: داود وسليمان). وإنها دعيت شيتياه. لكن ح. يوسي بن حلافتا يفسّر المصطلح باعتباره يمتلك أهمية نشوء كونية[2]. والمدراش الذي جاء بعد ذلك يعتمد هذا الرأي. ترجع المشنا بوضوح تاريخ وضع الصخرة إلى زمن إعادة بناء الهيكل وتتجاهل الأبعاد الميثولوجية، وعلى نحو مشابه، تنكر آراء تنائية أخرى أن الخليفة بدأت من صهيون. قد يكون المرجع المشنائي سبق زمنياً الاعتقاد النشوء كوني، وربما أنه جاء بعده ورفضه، أو ربما افترض أن الصخرة التي نشأ منها الكون هي التي أُحْضِرت إلى موقع الهيكل. لكن المدراش الذي جاء بعد ذلك يقول إن الهيكل كله مؤسس على الصخرة، وإنَّ للصخرة صفات سحرية.

إنَّ العلاقة بين الإفن والصخرة القابعة حالياً تحت قبة الصخرة (مسجد عمر) المبنية على جبل الهيكل غير واضحة تماماً. لكن التقليد الإسلامي يطابق بين الاثنتين. وهذا هو الرأي الأكثر انتشاراً اليوم. إنما المشكلة هنا هي حجم الصخرة: فالصخرة القابعة تحت قبة الصخرة تساوي تقريبية 51×58 قدماً، وهي مساحة أكبر من كل قدس الأقداس الذي كانت الصخرة فيه. لكن المدراش الذي جاء بعد ذلك يقول إن الهيكل بأكمله أُقيم على هذه الصخرة الأمر الذي يعني أنَّ قدس

(1) Ibid.
(2)Tosef. ; *Yoma*, 3: 6.

الأقداس احتل مكاناً صغيراً فيها ليس إلا[1]. وقد اعتقد في القرون الوسطى أن الأرض تآكلت بعوامل الحت كاشفة عن حجمها الكبير الحالي[2]. تقول نظرية أخرى إنّ الصخرة كانت أساس مذبح المحرقة

---

(1) يقول محمود أبو ريّة: "ظلّت الصخرة مكشوفة في خلافة عمر وعثمان مع حكمهما على الشام، وكذلك في خلافة علي (رض)، وإن لم يحكم عليها، ثم كذلك في إمارة معاوية وابنه وابن ابنه، فلما كان في زمن عبد الملك وجرى بينه وبين إبن الزبير ما جرى، كان هو الذي بنى القبة على الصخرة وعظّم شأن الصخرة... ليكثر قصد الناس البيت المقدس فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير". (*أضواء على السنّة المحمدية*، 166 -167).

لكنّ *الموسوعة اليهودية* - النسخة الإنكليزية – (15 : 1529)، تقول "إنّ عبد الملك هو الذي بدأ بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس مكان الهيكل عام 700م. لكنّ القطعة المتينة الواقعة في مزار الصخرة بُنيت بين عامي 690 - 691 م. وتقول بعض المصادر إنّ الذي أكمل بناء المسجد هو الوليد بن عبد الملك عام 795. لقد كان بناء القبة، كما تشير إلى ذلك نقوشٌ داخلها، موجهاً إلى حدٍّ ما ضد الجماعات المسيحية القوية آنذاك. وأدى تجديد موضع الهيكل في وضعية رائعة إلى تأثير سرائي في دوائر ذات توجه يهودي.

يفترض غولدتسيهر أنّ بناء [القبة] العظيم كان يهدف إلى تحويل الحجاج من مكة إلى القدس 38 - 37 ، *Mohammedanische Studien*2(1890) ، لكن غويتاين Goitein يقول إنّ الهدف منه كان إكمال موضع الذخائر المقدسة".

وتكمل *الموسوعة* ذاتها (15 : 989) الحديث، فتقول: "لقد تمّ بناء المبنى الحالي عام 1033 م. فبعد غزو الصليبيين للقدس، حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة وأسموها Templum Domini [هيكل الرب]، وصار المسجد الأقصى كنيسة دعيت Templumn Solomonis [هيكل سليمان]. لكنهما أعيدا كمكاني عبادة إسلاميين بعد احتلال صلاح الدين للقدس عام 1187م".

(2)Rad baz, *Respona*, 2 (1882) no, 639, 691

الكبير، والكهف تحت الصخرة كان يستعمل بالتالي لجمع الرماد وبقايا القرابين الأخرى. في تلك الحالة سيكون قدس الأقداس قرب الصخرة الحالية، وهو ما يؤدي إلى صعوبات أركيولوجية وطبوغرافية"[1].

من ناحية أخرى، تنسب بعض المصادر الإسلامية إلى كعب الأحبار آراء فيما يخصّ الصخرة والقدس، تشبه كثيراً المفاهيم اليهودية السابقة – وكلها ميثولوجية. ورد، مثلاً، في *نهاية الأرب* للنويري: "يقول الله لصخرة بيت المقدس في التوراة: أنت عرشي الأزلي ومنك ارتفعت إلى السماء.. من مات فيك فكأنما مات في السماء... [ويقول كعب أيضاً]: إنّ العرض والحساب في بيت المقدس، وإنّ مقبور بيت المقدس لا يعذّب"[2]. – والفكرة الأخيرة، كما سنوضح في حديثنا عن عذاب القبر، يهودية بالكامل.

بالنسبة للعلاقة بين الصخرة والهيكل، يقول دافيد بن سلومون بن أبي زعيرا، إنّ قبّة الصخرة هي مكان الهيكل تحديداً"[3]. وابن ميمون يذكر أن القداسة ظلت في جبل الهيكل حتى بعد دمار الهيكل. لذلك فهو يُحظّر على من هو غير طاهر دخول جبل الهيكل.

---

(1)*Encyclopedia Judaica*, 6:985
انظر: H.Albeck,*Shishah Sidrei Midrash*,(1958), 469.
. S. Lieberman, *Tosefta ki-Feshutah*, 4 (1962). 772 - 773

(2) 1 : 332.

(3)*Responsa*, 2 no.691

يستمد جبل الهيكل مكانته الخاصة في الهالاخاه من كونه موقعاً للهيكل، الذي أقيم في وسطه تقريباً. وهذه المكانة الخاصة لا تنطبق على الموقع الفعلي الهيكل وما يحيط به فحسب، بل على الجبل كلّه أيضاً. وبحسب [المصادر القديمة]، فالقدس، المقدسة كلها، تعتبر مماثلة "لمخيم إسرائيل" الذي أحاط بالحرم في البرّية، وجبل الهيكل ككل يعادل مخيم اللاويين". أما الهيكل مع محيطاته، من مدخل ساحة الإسرائيليين وما بعد، فيعتبر مماثلاً "لخيمة الحضور الإلهي"[1].

مع ذلك، يذكر مصدر يهودي معاصر، أنه "عام 638 م، صلّى الخليفة عمر بن الخطاب على جبل الهيكل بعد فتح القدس، بصحبة اليهودي اليمني المرتد [عن اليهودية طبعاً]، كعب الأحبار"[2].

كعب مهدداً:

تُقدِّم موسوعة *الإسلام* - الطبعة الإنكليزية، مسحاً شاملاً لشخصية هذا الرجل، يمكن أن تضيف أشياء هامة، رغم الصبغة الاختصارية للفقرة: "يهودي يمني تحول إلى الإسلام ربما عام 638/17 (الطبري، 1 : 2514)، ويعتبر أقدم مرجع في التقاليد اليهودية الإسلامية. حِبر/ حَبر من العبرية حابر، وهو لقب لعالم يأتي مباشرةً بعد الحاخام وكان متداولاً بين علماء اليهود البابليين، ويفترض أنه

(1) Sif. Naso 1; Zev. 116 b

من أجل فهم هذه المصطلحات؛ انظر : سفر الخروج.

(2) *Encyclopedia Judaica*, 15 : 988

يعادل عالم العربية (الخوارزمي، *مفايح*، 35): "يفترض ليدزبارسكي... أن كعب كان يدعى أصلاً عقيبا أو يعقوب، لكن ما نعرفه عن هذا الرجل، الذي جاء إلى المدينة أثناء خلافة عمر بن الخطاب ورافق الأخير إلى القدس عام 15هـ/363م. (الطبري، 1: 2408)، قليل جداً، وبعد اعتناقه [الإسلام]، صار على علاقة حميمة بالخليفة، حيث تنبأ بموته قبل أن يحدث بثلاثة أيام (الطبري، 1: 2722). كان [كعب] نصيراً شديداً لعثمان [ابن عفان]، وهو ما أدى في إحدى المناسبات إلى معاقبته جسدياً من قبل أبي ذر التقي (الطبري، 1: 2946 -2947). بعد ذلك حاول معاوية جذبه إلى دمشق كي يصبح مستشاره، لكن يبدو على الأكثر ترجيحاً أنه أنسحب إلى حمص، حيث مات عام 652/32 -653 [راجع مثلاً: ابن الجوزي، *المنتظم*، وفيات عام 32هـ]، أو عام 34هـ (الطبري، 3: 2474 - 2475) أو عام 35هـ (ابن العماد، *شذرات* 1: 40). ووفقاً للهروي (*زيارات*، 9: 20 -21)، فإنّ قبره ومقامه موجودان في هذه البلدة، لكن ياقوت (2: 595) وابن بطوطة (1: 222؛ ترجمة جيب 1: 139) يجعلان ديماسه في دمشق (حيث ما تزال موجودة شاهدة قبر تحمل اسمه؛ جيب، *المرجع السابق*، يعتبر ابن جبير (55) والمقريزي (تحرير Wiet 4: 6) أنّ [قبره] موجود في الجيزة في مصر، في حين يقول الهروي (14: 35) إنّ بعض الناس يعتقدون أنه مدفون في المدينة وأنّ (39: 94) قبر أحد أولاده في الجيزة.

رغـم صـعوبة تحديـد شخصـيته الحقيقيـة، لأنهـا ملفوفـة كـثيراً بالشـرابيش الأسـطورية، يعتبر كعب أنه يمتلك معرفة عميقة بالكتاب المقدس والتقاليد اليهودية في جنوب شبه الجزيرة، إضافة إلى حكمة شخصية تشهد عليها العبارات الكثيرة التي تعزا له دون نقاش لأنه كان يوحي بالكثير من الثقة (النووي، *تهذيب*، 523)، [وكعب] هو الذي خلق أيضاً التقاليد المتعلقة بعمر بن الخطاب والتي تعتبر موثوقة. الجاحظ (*حيوان*، 4: 202 -203) يؤمن بأنه أهل للثقة وسوف يظهر كمدافع عنه بالإشارة الضمنية إلى أن [كعباً]، في نقاشه للمعلومات الخاصة بالتوراة، لم يقل "مكتوب في التوراة" بل "نجده في أسفار الأنبياء". يتهم أحياناً بإدخال عناصر يهودية في الإسلام، مثل القصة التي احتفظ بها الطبري (1: 2408 -2409)، والتي اتهم فيها عمر [بن الخطاب] كعباً بالتهود حين عامل جبل الهيكل في القدس كموضع مقدس.

حاولت الأجيال اللاحقة أن تضفي على اسمه بريقاً عبر نسب عدد عظيم من التقاليد إليه، خاصة تلك التي تحكي عن الأنبياء، وتحديداً حديث "ذو الكفل"، المطبوع في بولاق عام 1283 (بروكلمان، 1: 1010) أو أسطورة يوسف في Aljamiado المحررة في ترجمة لاتينية من قبل F.Guillen والتي درسها M. Schmidt ، والمأخوذة في الواقع عن الثعالبي (*قصص الأنبياء*). السكاني يذكر اسم كعب في قصة عن يوسف وهو أيضاً مذكور كمرجع في *يوسف وزليخة* للفردوسي[1].

---

(1)*Encyclopedia of Islam*, art. Ka'b .

كعب في خلافة عمر:

وأسلم كعب، كعب الأحبار؛ واخترق شعباً، لم يكن آنذاك، كما ذكر ابن خلدون، "أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، [لذلك كانوا] إذا تشوفوا إلى معرفة شيء مما تتشوف إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون فيه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم... وتساهل المفسّرون في مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا من التوراة، أو مما كانوا يفترون"[(1)].

وهكذا، بعدما أسلم كعب "في الدولة العمرية، جعل يحدث عمر (رض)، فربما استمع له عمر، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده من غثٍّ وسمين"[(2)]. ووصل الأمر إلى أن كعباً "كان يلقي دروساً في المسجد"[(3)].

إلى بيئة غير مثقفة، دخل هذا الرجل المثقف بثقافات عصره، واستطاع في فترة قياسية، بفضل علومه وقدراته، أن يصل إلى الواجهة.

---

(1) *المقدمة*، 9.

(2) *تفسير ابن كثير*، 4: 17.

(3) انظر: محمود أبو ريّة، *شيخ المضيرة*، 91. *طبقات ابن سعد*، 7: 89. *فجر الإسلام*، 2: 198.

وكي يرفع من قيمته في تلك البيئة، راح يخترع أحاديث، ينسبها — زوراً - إلى التوراة، يرفع فيها من قيمة نبي المسلمين. قال كعب مرة: "أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل، أناجيلهم في صدورهم، ينطقون بالحكمة، ويضربون الأمثال، لا نعلمهم إلا العرب"[1]. وقال أيضاً إنه جاء في التوراة: "يا محمد، إني [الله] منزّل عليك توراة حديثة، تفتح أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غفلاً"[2]؛ "أسماء النبي في الكتب السالفة: محمد وأحمد وحمياط ـ أي حامي الحرم"[3]؛ وقوله عن التوراة: "في السطر الأول [منها]: محمد رسول الله عبده المختار، لا فظ ولا غليظ ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكنه يعفو ويغفر، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام"[4]. و"في السطر الثاني: محمد رسول الله، أمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء"[5].

لكن عمر لم يلبث، متأخراً ربما، أن فطن إلى كيد كعب وتبين له سوء دخلته، فنهاه عن الحديث، وتوعده إن لم يترك الحديث عن

---

(1) *العمادة* لابن رشيق، 8.

(2) السيوطي، *الإتقان*، 1: 53.

(3) *أضواء على السنة*، 152.

(4) وهذه هامة جداً كما سنرى لاحقاً.

(5) رواه ابن سعد في *طبقاته* عن ابن عباس؛ وقريب منه في البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

الأول أو ليحلقنّه بأرض القرود[1]. وفي هذا يقول الأستاذ أبو رية :

"وعلى أن عمر ظلّ يترقب هذا الداهية بحزمه وحكمته، وينفذ إلى أغراضه الخبيثة بنور بصيرته، كما ترى في قصة الصخرة[2] - فإنّ شدة دهاء هذا اليهودي قد تغلّبت على فطنة عمر وسلامة نيته، فظلّ يعمل بكيده في السر والعلن، حتى انتهى الأمر بقتل عمر، وتدلّ القرائن كلها على أن هذا القتل كان بمؤامرة من جمعية سرية، وكان هذا الدهي من أكبر أعضائها، وعلى رأسها الهرمزان ملك الخوزستان الذي كان قد جيء به إلى المدينة أسيراً، وعهدوا بتنفيذها إلى أبي لؤلؤة الأعجمي"[3].

ويخبرنا مصدر إسلامي أن عمر بن الخطاب، دخل "على أم كلثوم بنت علي وهي زوجته، فوجدها تبكي، فقال: ما يبكيكِ ؟ قالت: هذا اليهودي - أي كعب الأحبار - يقول إنك على باب من أبواب جهنم! فقال عمر: ما شاء الله. ثم خرج فأرسل إلى كعب، فجاءه، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تعجّل عليّ، والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجّة حتى تدخل الجنة! فقال عمر: ما هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار! فقال كعب: يا أمير المؤمنين، والذي نفسي بيده إنا لنجدك في

(1) انظر : *أضواء على السنة*، 153 ؛ *البداية*، 8: 206 ؛ وفي *سير أعلام النبلاء*، يقول الذهبي : "لتتركنّ الحديث أو لألحقنك بأرض القرود" (2: 433).
(2) أنظر كتابنا، *يوم انحدر الجمل من السقيفة*.
(3) *أضواء على السنة*، 153.

كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها ، فإذا متُّ لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة! ولما طعن عمر جاء كعب فجعل يبكي بالباب ، ويقول : والله لو أنَّ أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخّره لأخّره"(1).

في مصدر إسلامي آخر ، يقول كعب لعمر : "أجدك في التوراة تقتل شهيداً! قال عمر : وأنّى لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب؟... قال كعب : كان في بني إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر ، وإذا ذكرنا عمر ذكرناه ، وكان إلى جانبه نبي يوحى إليه ، فأوحى الله إلى النبي أن يقول له : أعهد عهدك واكتب لي وصيتك ، فإنك ميتٌ إلى ثلاثة أيام [نلاحظ أن كعباً قال لعمر الشيء ذاته ، كما تزعم معظم المصادر الإسلامية]. فأخبره النبي بذلك. فلما كان اليوم الثالث ، وقع بين الجدار والسرير ، ثم جاء إلى ربّه ، فقال : اللهم إن كنت تعلم أني كنت أعدل في الحكم وإذا اختلفت الأمور اتبع هاداك ، وكنت... وكنت... فزد في عمري حتى يكبر طفلي ، وتربو أمتي ، فأوحى الله إلى النبي أنه قد قال كذا وكذا وقد صدق وقد زدته في عمره خمس عشرة سنة ، ففي ذلك ما يكبر طفله وتربو أمته. فلما طُعن عمر ، قال كعب : لئن سأل عمر ليبقيه الله. فأُخبر بذلك عمر ، فقال : اللهم اقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم"(2).

---

(1) انظر : *فتح الباري*، 13 : 14. *طبقات* ابن سعد، 2: 3: 253 -263.

(2) انظر : *تاريخ الخلفاء*، 90 -98. *كامل* ابن الأثير، 2 : 357.

كعب بعد عمر:

كما أخبرنا سابقاً، فقد كان كعب "حاضراً في بلاط الخليفة الثالث"، عثمان بن عفان، حيث اشتهر بمشاحناته مع المسلم التقي، أبي ذر الغفاري. لكننا في زمن عثمان، نجده وقد تحوّل إلى الشام، حيث اصطفاه معاوية وجعله من مستشاريه[1]: ولن ننسى طبعاً المشاحنات بين معاوية وأبي ذر أيضاً.

كان عمر بن الخطاب قد ولّى يزيد بن أبي سفيان على الشام، فلما أصيب الأخير بالطاعون، وأحسّ أنه مائت لا محالة (مات عام 187هـ)، عين مكانه أخاه معاوية.

يذكر أحمد أمين أن معاوية جعله [كعب] من مستشاريه لكثرة علمه (المقصود بالعلم هنا ليس العلم الوضعي طبعاً، بل الحكايا الربانية)، وهو الذي أمره أن يقصّ في بلاد الشام[2]، وصار بالتالي أقدم الإخباريين في مسألة الأحاديث اليهودية[3]. وكيف لا يصفه معاصروه بكثرة العلم، وهو يدعي أمامهم: "ما من شبر في الأرض إلا هو مكتوب في التوراة التي أنزل الله على نبيه موسى، ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة"[4]. إنّ دور كعب الأحبار في بلاط معاوية

---

(1) كرد علي، *الإسلام والحضارة العربية*، 164.

(2) *الإصابة*، 5: 323.

(3) *ضحى الإسلام*، 2: 97.

(4) ابن عبد البر، *الاستيعاب*، 2: 533.

يمكنه أن يفسّر الحديث الذي نسبه كعب إلى التوراة، والذي زعم فيه أنه مكتوب في التوراة، إنّ النبي "مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام".

يذكر أحد المصادر الإسلامية، إنه بعد مقتل عثمان بن عفان في يوم الدار، راح الحادي يحدو به، "ويقول :

إنّ الأمـــير بعـــده علـــي   وفي الــزبير خلـــق رضـــي

فقـال كعـب الأحبـار: بـل هـو صـاحب البغلـة الشـهباء (يعـني معاوية)، وكان يركب بغلة، فبلغ ذلك معاوية، فأتاه، فقال : يا أبا إسحق، ما تقول هذا، وهاهنا علي والزبير وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم! قال : أنت صاحبها"[1].

لكن الحقيقة أن علي بن أبي طالب هو الذي امتلك زمام الخلافة بعد عثمان الشهيد. مع ذلك، فما كاد الخليفة الرابع يتصدّر واجهة الدولة آنذاك، حتى تفجرت المصاعب في طريقه: حرب الجمل، فصفين فالنهروان. وكانت كل هذه الحروب في زمن قياسي 656 - 658 م. لينتهي الخليفة الرابع غيلة على يد أحد الخوارج عام 661 م. لكن ما يلفت نظرنا هنا هو "أن معاوية أعلن خليفة في القدس عام 660"[2]، أي قبل أن يقتل الخليفة الشرعي. "لكنه لم يصبح خليفة فعلاً

(1) المقريزي، *رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم*، 51.

(2) انظر 3 ,(1894) ,*Midrashot* Wetheiner,Battet ؛ *مدراش قيامي*. *Encyclopedia Judaica*, 15:1528

إلا عام 661 م. حين قتل علي وأزيح ابنه الحسن". ويخبرنا المصدر ذاته أن "معاوية بنى مسجداً خشبياً على جبل الهيكل... ويقول مجير الدين (القدس 1456 -1521)، إنّ مجموعة من الخدم اليهود كانت مسؤولة عن النظافة في المسجد وفي جبل الهيكل وكذلك عن النور، ولأجل هذه الخدمة كانوا معفيين من الضرائب. وقد احتكر هؤلاء هذه الخدمة بشكل متوارث حتى ألغى عمر الثاني ذلك[1]... حيث يفترض أن عمر الثاني هو الذي أبعد اليهود عن جبل الهيكل وقصر صلواتهم على بوابة واحدة فقط (سالمون بن يهورام في تعليقه على المزمور 30: 10)"[2].ويقال أيضاً، إنه حين عيّن "معاوية ابنه يزيد خليفة، دعم هذا التعيين معظم رؤساء أسباط"[3] اليهود.

لقد "كان هنالك العديد من اليهود في بلاط معاوية"[4]، لكن "عدد المسيحيين كان أكبر بكثير من عدد اليهود"[5]، وهو ما يفسّر ذكرهم من قبل المؤرخين العرب دون اليهود.

إذن، لقد سقطت كلّ الحواجز أمام كعب الأحبار. بل إنّ رأس إقليم الدولة الشامي، معاوية، كان يقول: "ما رأينا أمثل في هؤلاء

---

(1) هل يمكن أن نفهم بالتالي، لماذا تصرّ *الموسوعة اليهودية* على إلصاق الشروط العمرية بعمر ابن عبد العزيز.

(2)*Encyclopedia Judaica*, 15: 1528
(3)*Encyclopedia Judaica*, 15: 641
(4)*Encyclopedia Judaica*, 15: 641
(5)*Encyclopedia Judaica*, 15: 641

المحدثين عن أهل الكتاب أمثل من كعب، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدّثوكم بباطل فتصدّقوه، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذّبوه"[1].

كان كعب يعمل على بث أحاديث داعمة للحكم الأموي، مثل: أهل الشام سيف من سيوف الله ينتقم بها ممن عصاه؛ أو الحديث الذي يزعم معاوية فيه أن النبي قاله له: "إنك ستلي الخلافة بعدي! فاختر الأرض المقدسة (الشام) ففيها الأبدال"[2]. وانتشرت أحاديث كعب الخرافية إلى درجة أنّ عالماً إسلامياً شهيراً، هو ابن عباس، وقد سأل رجلاً مقبلاً من الشام: "من لقيت؟ قال: كعباً، قال: وسمعته يقول؟ قال: سمعته يقول، إنّ السموات تدور على منكب ملاك! فقال: كذب كعب، أما ترك يهوديته بعد"[3]. وهكذا، يقول المفكر الكبير، رشيد رضا: "لا تجد خرافة دخلت في كتب التفسير والتاريخ الإسلامي في أمور الخلق والتكوين والأنبياء وأقوامهم، والفتن والساعة

(1) ابن تيمية، *اقتضاء الصراط المستقيم*، 208.

(2) ابن أبي الحديد، *شرح النهج*، 1: 361. ويعلّق السيد رشيد رضا على هذا الحديث (*المنار* 24: 747 -754)، فيقول: "إن هذه الأحاديث باطلة... وإنما راجت في الأمة بعناية المتصوفة، ورواة الإسرائيليات ككعب".

(3) ابن حجر، *الكافي الشاف وتخريج أحاديث الكشاف*، 139.

والآخرة، إلا وهي منهما"[1]، أي، كعب ووهب. لذلك، فإنَّ أكثر ما قدّمه كعب، برأي السيد رشيد رضا، هو "خرافات إسرائيلية شوّهت كتب التفسير وغيرها من الكتب، وكانت شبهاً على الإسلام يحتج بها أعداؤه الملاحدة أنه كغيره دين خرافات وأوهام، وما كان فيها غير خرافة قد تكون الشبهة فيه أكبر، كالذي ذكره كعب في صفة النبي في التوراة"[2].

إذن، لقد استطاع كعب ـ وأمثاله ـ ترويج "أقاصيص التلمود [والمدراش] - الإسرائيليات [التي لم تلبث] أن أصبحت جزءاً من الأخبار الدينية والتاريخية"[3] الإسلامية. "وقد راجت دسيسته حتى انخدع به بعض الصحابة ورووا عنه، وصاروا يتناقلون قوله بدون إسناد إليه، حتى ظنَّ بعض التابعين ومن بعدهم أنها مما سمعوه عن النبي"[4]. وهكذا، لم يروا بأساً "من أن يقصوها بجانب آيات القرآن، فكانت منبعاً من منابع التضخّم"[5].

---

(1) المنار، 27: 783.
(2) المنار، 27: 618.
(3) أحمد أمين، ضحى الإسلام، 2: 97.
(4) رشيد رضى، المنار، 27: 752.
(5) أحمد أمين، ضحى الإسلام، 2: 119.

ابو هريرة:

يحدثنا الصحابي أبو هريرة عن ذاته، فيقول: "نشأت يتيماً وهاجرت مسكيناً وكنت أجيراً لبسرة بنت غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي... وكنيت بأبي هريرة بهرة صغيرة كنت ألعب بها"[1]، وقد "غلبت عليه كنيته كمن لا اسم له... (إذ) اختلفوا في اسمه واسم أبيه اختلافاً كبيراً"[2].

أبو هريرة هو رجل من قبيلة دوس، قدم مع قومه إلى النبي في غزوة خيبر، فأشهر إسلامه، وانضم لفقره إلى أهل الصفة[3]. وأهل الصفة أناس فقراء لا منازل لهم ولا عشائر، وكان إذا تعشى النبي دعا طائفة منهم يتعشون معه، ويفرّق طائفة منهم على الصحابة ليعشوهم[4]. وقد أخذوا اسمهم عن الصفة، وهو موضع تجمع الفقراء في مؤخرة مسجد النبي في المدينة.

إذن: لقد التقى أبو هريرة النبي للمرة الأولى في غزوة خيبر، التي حدثت برأي ابن سعد، في جمادى الأولى عام 8هـ، وفي 28 رمضان من السنة ذاتها، برأي أبي سعيد الخدري، وفي شهر صفر من العام

(1) انظر ترجمته في *معارف* ابن قتيبة؛ وأيضاً: *سير الأعلام*، 2: 44؛ *طبقات* ابن سعد، 2: 4: 53.

(2) ابن عبد البر، *الاستيعاب*، 718 - 719.

(3) انظر: *طبقات* ابن سعد.

(4) انظر: *تاريخ أبي الفداء المختصر*.

ذاته، برأي الأستاذ أبو رية. ثم أرسله النبي إلى البحرين في شهر ذي القعدة من العام الثامن للهجرة. إذن: إن مجموع ما أمضاه أبو هريرة مع النبي، وفق المراجع الثلاثة السابقة، هي: سنة ونصف، سنة وشهران، سنة وتسعة أشهر على الترتيب.

أبو هريرة، أغزر راوية في الإسلام، "هو أشهر من سكن الصفة"[1]. "وأهل الصفة... ما منهم رجل عليه رداء، وإنما عليه... كساء ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته"[2]. وكان أبو هريرة، الصحابي الجليل، يقول: "لقد رأيتني وأني لأخر فيما بين منبر رسول الله إلى حجرة عائشة مغشياً عليّ، فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون وما بي من جنون: ما بي إلا الجوع"[3]. وكان بالتالي يصحب النبي "على ملئ"[4] بطنه، أو يستقرئ كبار رجالات[5] لدعوة القرآن حتى يطعموه[6].

1) *فتح الباري*، 7: 376.

2) البخاري، 11: 426.

3) *فتح الباري*، 13: 259 -260.

4) *فتح الباري*، 7: 61؛ 13: 271.

5) كان أكثرهم استجابةً له، جعفر بن أبي طالب. وكان أبو هريرة يقول: "ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطئ التراب، بعد رسول الله، أفضل من جعفر بن أبي طالب" (*فتح الباري*، 7: 62).

6) *فتح الباري*، 11: 236 -237.

حين توفي النبي، كان أبو هريرة مع العلاء بن الحضرمي في البحرين[1]. وعام 20هـ، ولاه عمر بن الخطاب على البحرين بعد وفاة العلاء بن الحضرمي[2]. لكنه سرعان ما عزله وولى مكانه عثمان بن أبي العاص الثقفي. وتخبرنا المصادر الإسلامية عن سبب ذلك فتقول، إنه لما عاد أبو هريرة وجد معه عمر لبيت المال أربعمئة ألف؛ فقال له عمر: أظلمت أحداً؟ فقال: لا! قال: فما جئت لنفسك؟ قال: عشرين ألفاً، قال: من أين جئتها؟ قال: كنت أتجر[3]، فقال له عمر: عدواً لله وللإسلام، عدواً لله ولكتابه، سرقت مال الله، [أو] أسرقت مال الله[4]؛ حين استعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين... ما رجعت بك أميمة[5] إلا لرعاية الحمير[6]. وضربه بالدرة حتى أدماه.

---

(1) راجع في ذلك: *طبقات* ابن سعد؛ *تاريخ* الطبري، *سيرة ابن هشام*؛ *الاستيعاب*؛ *أسد الغابة*؛ *سير أعلام النبلاء*.

(2) انظر: *كامل* ابن الأثير، ط لايدن، 3: 16. *تاريخ* الطبري، ط لايدن، 5: 294 *طبقات* ابن سعد، ط لايدن، 2: 77 -79. *سير أعلام النبلاء*، 1: 116، 189، 192. *أنساب الأشراف*، 1: 529. *أسد الغابة*، 1: 31. *الإصابة*، 4: 7، 259؛ 5: 233. *البداية والنهاية*، 7: 120.

(3) *سير أعلام النبلاء*، 2: 444؛ *تاريخ الذهبي الكبير*، 2: 338.

(4) *طبقات* ابن سعد، 2: 4: 59 -60؛ *فتوح البلدان*، ط أوروبا، 82.

(5) أي: ماتغوطت بك أمك أميمة إلا لرعاية الحمير.

(6) *العقد الفريد*، 1: 53.

كان الخليفة قاسياً للغاية على الصحابي الشهير. فقد كان يمنعه عن أكثر ما يحب: رواية الأحاديث النبوية. وكان يقول له، ككعب الأحبار تماماً، "لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القرود"[1] ؛ أو، "لتتركنّ الحديث أو لألحقنك بأرض دوس"[2] ـ موطن أبي هريرة الأصلي. ويؤكد أبو هريرة ذلك شخصياً حين يقول: "ما كنا نستطيع أن نقول، قال رسول الله ﷺ، حتى قبض عمر"[3]. وحين سئل مرة: "أكنت تحدّث في زمان عمر هذا؟ قال: لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدّثكم، لضربني بمخفقته"[4]. لكن أبا جعفر الإسكافي يؤكد أن عمر ضربه فعلاً بسبب روايته للحديث النبوي: "أبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضي الرواية، ضربه عمر، وقال: ما أكثرت من الحديث وأحرِّ بك أن تكون كاذباً على رسول الله"[5]. وهكذا، يستنتج العلامة رشيد رضا بحق، أنه "لو طال عُمْرُ عُمَرَ حتى مات أبو هريرة، لما وصلت إلينا تلك الأحاديث الكثيرة"[6].

---

(1) *البداية والنهاية*، 8: 206؛ *سير أعلام النبلاء*، 2: 431.

(2) *أضواء على السنة*، 54.

(3) *سير أعلام النبلاء*، 2: 433.

(4) *أضواء على السنة*، 59.

(5) ابن أبي الحديد، *شرح النهج*، 1: 360.

(6) *المنار*، 10: 851.

أبو هريرة في ظلّ معاوية:

انضم أبو هريرة إلى جانب معاوية في الصراع بين الخليفة الرابع وأول ملوك بني أمية. وقد فُسِّر هذا من قبل بعض المؤرخين المسلمين بأنه مجرد بحث عن المنفعة الشخصية. من ذلك ما قاله الثعالبي، على سبيل المثال:

تـولى أبـو هريـرة عـن نصر علي ليستفيد الثريدا
ولعمري إن الثريد قليلٌ للذي ليس يستحق الهبيدا[1]

كان الصراع السياسي بحاجة أيضاً إلى صراع ميثولوجي لإرضاء شبق العامة. وهنا، قام الصحابي بدوره المرسوم على أفضل وجه، فروى مع غيره أخباراً قبيحة عن علي تقتضي الطعن فيه والبراءة منه[2]؛ وبالمقابل، نسب للنبي أحاديث من نمط: "الأمناء ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية"[3]؛ "ناول النبي ﷺ معاوية سهماً، فقال: خذ هذا السهم حتى تلقاني به في الجنة"[4]؛ حتى أنَّ أبا هريرة قال لعائشة بنت طلحة: "والله ما رأيت وجهاً أحسن منك إلا وجه معاوية على منبر رسول الله"[5].

(1) *ثمار القلوب*، ط نهضة مصر 1965، 111 -112.

(2) *شرح النهج*، 1: 358.

(3) ابن كثير، *البداية والنهاية*، 8: 120.

(4) *أضواء على السنة*، 215.

(5) *العقد الفريد*، 6: 109.

كانت النتيجة مذهلة، فبعد أن كان الصحابي الشهير زمن النبي من أهل الصفة لا يكاد يجد ما يسد رمقه أو يستر عورته، نجده زمن معاوية وقد صار يلبس الخزّ والكتان الممشق[1]. بل حين مات أبو هريرة عام 59هـ، مات في قصر له بالعقيق. ولما كتب الوليد، حاكم المدينة آنذاك ينعى إلى معاوية وفاة أبي هريرة، رد معاوية: "أنظر إلى من ترك، وادفع إلى ورثته عشرة آلاف درهم وأحسن جوارهم وافعل لهم معروفاً"[2].

كعب وأبو هريرة:

والتقت العبقريتان: كعب وأبو هريرة. كان كعب بحاجة إلى أبي هريرة، الصحابي والراوية الموثوق، كي يمرر عبره ما لم يكن يستطيع تمريره هو ذاته كمحدث يهودي مشكوك بأمره، وكان أبو هريرة بحاجة إلى كعب في مسألة تجارة الحديث، كعالم يهودي يمتلك من الأخبار والتفاصيل ما كان يفتقده أبو هريرة. وهكذا، يحدثنا غير مصدر إسلامي من أن أبا هريرة "قد حمل عن كعب الحبر"[3]. فأبو هريرة كان يجتمع بكعب، "فجعل أبو هريرة يحدث كعباً عن النبي، وكعب يحدث أبا هريرة عن الكتب"[4]. وأبو هريرة ذاته، يقول: "وافقت كعباً

---

(1) *أضواء على السنة*، 213.

(2) *أضواء على السنة*، 218.

(3) *الإصابة*، 5: 205؛ *سير أعلام النبلاء*، 2: 418.

(4) *سير أعلام النبلاء*، 2: 436.

فحدثني عن التوراة ، وحدثته عن رسول الله حديث يوم الجمعة ؛ فقال كعب : فيه خُلِق"[1]. ويشك ابن كثير في أنَّ حديث يأجوج ومأجوج : "لعل أبا هريرة تلقاه من كعب الأحبار فإنه كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه ، فحدث به أبو هريرة فتوهم بعض الرواة إنه مرفوع"[2]. وقال أيضاً عن حديثه حول خروج الرايات السود من خراسان لا يردها شيء حتى تنصب بإيليا : "إنه من كعب الأحبار"[3]. وهكذا ، ظهرت مشكلة فعلية في تشوش الناس بين حديث أبي هريرة وحديث كعب ، يلخصها بسر بن سعد ، بقوله : "لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة يتحدث عن رسول الله ﷺ ، ويحدثنا عن كعب ، ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب ، ويجعل حديث كعب عن رسول الله"[4].

عبر كعب ، برأينا ، تعمقت معرفة أبي هريرة بالتوراة ، وشروحها ، حتى قال الحبر السابق : "ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة"[5]. مقابل ذلك فالمخلصون للعقيدة الصافية من القلة القليلة الباقية ، كالسيدة عائشة مثلاً ، أخذوا موقفاً سلبياً من

(1) أبو القاسم البلخي ، *قبول الأخبار معرفة الرجال* ، 57.
(2) *تفسير ابن كثير*، 3: 104 -105.
(3) *البداية والنهاية* ، 10 : 51.
(4) *سير أعلام النبلاء* ، 2: 436.
(5) مسند أحمد، 2: 275.

أبي هريرة. قال ابن قتيبة: "لما أتى أبو هريرة من الرواية منه ﷺ ما لم يأت بمثله من صحبه من جلّة أصحابه والسابقين الأولين، اتهموه وأنكروا عليه، وقالوا: كيف سمعت هذا وحدك؟ ومن سمعه معك؟ وكانت عائشة (رض) أشدهم إنكاراً عليه لتطاول الأيام بها وبه"[1]. وهكذا، كان أبو هريرة "أول راوية اتهم في الإسلام"[2].

نماذج صغيرة:

ثمة أمثلة ذات طابع ميثولوجي، جمعناها ضمن إطار بحثنا، تحمل نوعاً من التأكيد على شيء من التطابق بين ما كان يرويه كعب، وما نسبه أبو هريرة إلى النبي: وهي غيض من فيض.

نسب أبو هريرة للنبي قوله: "إن الشمس والقمر ثوران في النار يوم القيامة"[3]. وقال كعب: "يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في جهنم فيراهما من عبدهما"[4].

وينسب أبو هريرة للنبي قوله: "إنَّ الله أذن لي أن أحدث عن ديك رجلاه في الأرض وعنقه مثبتة تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما

(1) *تأويل مختلف الحديث*، 48.

(2) مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، 1: 278.

كان علي بن أبي طالب يقول: "أكذب الناس أبو هريرة الدوسي"، (*شرح النهج*، 1: 360).

(3) *فتح الباري*، 6: 229. *تفسير ابن كثير* 4: 475.

(4) الدميري، *حياة الحيوان*، 232.

أعظم شأنك"[1]. ويقول كعب: "إن لله ديكاً عنقه تحت العرش، وبراثنه في أسفل الأرض، فإذا صاح صاحت الديكة، فيقول: سبحان القدوس الملك الرحمن لا إله غيره"[2].

وحين نسب أبو هريرة للنبي قوله: "إنَّ في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام"، عقَّب كعب بسرعة: "صدق"[3].

من ناحية أخرى، فإن ثمة حديثاً غريباً، ينسبه أبو هريرة للنبي، ويقول: "إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين"[4]. ويمكن أن نجد له أصلاً في الحكايات الحاخامية، فالشوفار، وهو قرن حيوان يستعمل صفيره للأذان عند اليهود، هو بحسب رسالة *روش هاشناه* التلمودية، يخيف بصوته الشيطان وأرواح الشر فتهرب[5].

---

(1) *نهاية الأرب* للنويري، 1: 220.

(2) *النجوم الزاهرة*، 1: 34.

(3) *تفسير ابن كثير*، 4: 513 -514.

(4) انظر مثلاً: صحيح البخاري، 1: 115.

(5) *روش هاشاناه*، 16 ب. من أجل معلومات إضافية حول الشوفار، راجع: *Encyclopedia Judaica*, 14: 1442

عود على بدء:

بعد أن قدمنا شواهد كثيرة من التاريخ الإسلامي ذاته حول إمكانية تسلّل أجزاء كبيرة من الهاغاداه إلى التقاليد الإسلامية ما بعد القرآنية ، نذكر هنا بعض الأمثلة حول طرائق معالجتنا لبحثنا الموسّع الذي يحكي عن العلاقة بين الهاغاداه وتلك التقاليد.

باختصار : لقد حاولنا أن لا نفترض تعسفياً ، حين ترى تطابقاً شبه تام بين قصة هنا وقصة هناك ، إن الأحدث مأخوذة عن الأقدم. فهذا ما لا تمتلك دليلاً عليه. لكن بالمقابل ، ثمة قصص دليلها القطعي واضح ، خاصة حين نقوم بالموازاة بين التراثين لجعل الصورة في أكمل أشكالها.

من النوعية الأخيرة ، نذكر ميثة عذاب القبر. و"عذاب القبر" حكاية إسلامية متداولة بشدة ، وتمتلك الدليل القطعي على أنها "هاغاداه" حاخامية أُدْخِلت في التقاليد الإسلامية ما بعد القرآنية في مرحلة ما ، خاصة وأنّ تدوين تلك الأخبار جاء بعد زمن طويل من الإخبار بها ـ هذا إذا تمّ ذلك الإخبار فعلاً.

تقول *الموسوعة اليهودية* ـ النسخة الإنكليزية : "يُقال إنّ عائشة ، زوجة محمّد ، سمعت التقليد المتعلّق بعذاب القبر (حبوط ها قبر) من عجوزين يهوديتين في المدينة"[1]. وتقليد عذاب القبر الحاخامي ، كما يعرّفه يهودا غور في معجمه العبري – العبري هو التالي:

---

(1)*Encyclopedia Judaica*, 5:102

"חבוט הקבר והי סורים שאחרי המות (שמלאכי חבל המכי מאת גופה אדמא חרימו תובק ברלפי ספרי המוסר)" :

"عذاب القبر: مبادئ ما بعد الموت (حيث ملائكة التدمير تعذب جسد بني آدم بعد الموت في القبر، وذلك وفقا لسفري ها موسار)".

وتشرح *الموسوعة اليهودية* - النسخة الإنكليزية، المسألة بإسهاب، فتقول: "חבוט הקבר أو الضرب في القبر، هو عذاب مذكور في هاغاداه قديمة، توسّع فيها القباليون [جماعة يهودية]. وبحسب هذا الاعتقاد، لا يُعاقب الميت على خطاياه بعذاب جهنم والتقمّص فحسب، بل إنّ ملاك الموت يضربه بسلسلة حامية كالنار بعد موته مباشرةً (وربما أن الذي يضربه هو الملاك المدعو دوما؛ قارن رسالة *بيراخوت* التلمودية 18 ب). ولا يُستَبعد من هذا العذاب إلا الذين ماتوا في فلسطين، أو الذين يدفنون خارجها بعد ظهر يوم الجمعة قبل غياب الشمس. ومن أجل تجنب عذاب القبر، ينصح القباليون بفعل الخير وأداء الصلوات بحرارة. يفيد في هذا المجال بشكل خاص تذكّر المرء اسمه العبراني [لليهودي في المجتمع غير اليهودي اسمان عموماً: اسمه العبراني واسمه غير العبراني المرتبط بذلك المجتمع] حين يسأله عنه ملاك الموت. ومن أجل نقش الاسم في ذاكرتهم، يضيف أتقياء اليهود بعد الانتهاء من تلاوة العميداه [في الصلاة اليهودية] آية من الكتاب المقدس، يتوافق حرفاها الأول والأخير مع الحرفين الأول والأخير من اسمهم العبراني"(1).

---

(1)*Encyclopedia Judaica*, 5, 102

على الصعيد اليهودي، يعتبر الكاتب القبالي موريس بن مردخاي زاكوتو (1620 - 1697)، أشهر من تناول هذا الموضوع بالتفصيل. وفي عمله الشهير *L,inferno preparto* طبعة عام 1819، يتحدث بإسهاب عن عذاب القبر، وكيف تجرّ الملائكة الموتى في أقسام جهنم السبعة، حيث تظهر للعيان العذابات الرهيبة التي يعاني منها الخاطئون. والعمل مكوّن من 185 مقطعاً شعرياً موزوناً، كل مقطع مؤلّف بدوره من خمسة أبيات. ولهذا العمل شعبية ضخمة في أوساط اليهود، القباليين. وقد نُشر للمرة الأولى في البندقية عام 1715.

من الجانب الإسلامي، فقد وجدنا في البخاري، إذا صحت الرواية، ما يدعم الرأي بأن هذه الحكاية مأخوذة فعلاً عن هاغاداه حاخامية. فقد روي عن السيدة عائشة قولها: "دخلت عليّ عجوزان، من عجز يهود المدينة، فقالتا: إنّ أهل القبور يعذّبون في قبورهم. فكذبتهما. ولم أنعم أن أصدقهما. وخرجتا، ودخل علي النبي، فقلت له: يا رسول الله، وذكرت له [الحديث]... فقال: صدقتا، إنهم يعذّبون عذاباً تسمعه البهائم كلها. فما رأيته من بعد في صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر"[1]. ويضيف البخاري، بأن النبي خرج يوماً "وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً، فقال: يهودٌ تعذّب في قبرها"[2].

(1) 4: 108.

(2) 1: 239.

من النوعية الأولى التي لا تمتلك دليلاً مباشراً على أن الأحدث مأخوذة عن الأقدم، نقدّم الأمثلة التالية:

ذكر ابن كثير في *قصص الأنبياء* الحكاية التالية: "قال في سورة طه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، قال [موسى]: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [24 -28]. قيل إنه أصابه في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه والتي كان فرعون أراد اختبار عقله [بها]، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهمّ بقتله، فخافت عليه آسية، وقالت: إنه طفل فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه، فهمّ بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابته لثغة بسببها. فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية"[1].

بغض النظر عن معقولية القصة منطقياً، لأن الطفل كان سيحرق أصابعه قبل أن تصل الجمرة إلى فمه، فالحكاية موجودة بشكل حرفي تقريباً في هاغاداه قديمة وردت في *مدراش راباه* على سفر الخروج (1: 26)، نقدمها هنا باختصار: "لقد أسر جمال [موسى] الفريد البيت الملكي، فتبنته ابنة فرعون، والتي كانت تظهر حبها له باستمرار.

---

(1) ابن كثير، *قصص الأنبياء*، تحقيق وتعليق عبد القادر أحمد عطا، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1982، 2: 29.

كان الصبي يلعب مع فرعون، وغالباً ما أخذ تاجه ووضعه على رأسه. ارتاع مستشارو الملك من هذا التصرف ونصحوا فرعون بقتله. لكن يثرو [شعيب] الذي كان من بين مستشاري الملك ألحّ أولاً على اختبار الطفل. فأحضر أمام موسى إناء ذهب وإناء جمر، فكاد [الطفل] أن يمدّ يده إلى الذهب حين جاء الملَك جبريل وحوّل يده إلى الجمر. فوضع الطفل جمرة في فمه، فأحرق لسانه، وصار نطقه صعباً"[1].

من القصص الإسلامية المتقاطعة بقوة مع الهاغاداه، ما رواه أبو هريرة وأورده البخاري في صحيحه، والذي يتعلّق أيضاً بشخص موسى: "أرْسِل مَلَك الموت إلى موسى، فلما جاءه صكه [لطمه موسى على عينيه]، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت! فردّ الله عليه عينه، وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطّت يده بكل شعرة سنة"[2].

ويضيف الثعالبي تفاصيل أخرى، فيقول إنَّ المَلَك أتى موسى "بصورة آدمي، وأخبره بالأمر، فما زال يحاجّه ويلاجّه، وحين رآه نافذ العزيمة في ذلك، لطمه لطمةً فذهبت منها إحدى عينيه. فهو إلى الآن أعور. وفيه قيل:

---

(1)*Encyclopedia Judaica*, 12:396

(2) ك. الجنائز، باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة.

انظر أيضاً: الطهطاوي، *هداية الباري*، دار الرائد العربي، بيروت، 1 : 82.

يا ملك الموت لقيت منكراً   لطمة موسى تركتك أعوراً"[1]

لكن الثعالبي ينهي الحكاية بقوله: "وأنا بريء من هذه الحكاية"[2].

من ناحية أخرى، يتحدث *بتراث موشيه* عن صَمئيل، مَلَك الموت، الذي جاء ليأخذ نَفْس موشيه [موسى]، لكن الأخير يضربه ويرده على أعقابه، فيعد الله موشيه بأنه هو ذاته الذي سيأخذ نَفْسه، الأمر الذي يغوي النبي بأن ينقش على عصاه اسم الله المحرَّم لفظه [יְהֹוָה (يهوه) محرَّم لفظه عند اليهود المتدينين]، مما جعل ملاك الموت يفر هارباً[3]. ويخبرنا *مدراش راباه* على التثنية، بأن موسى مات حين قبَّله الله. وتعلِّق رسالة *سوتاه*[4] التلمودية، بأنَّ الله ذاته هو الذي دفنه. وتقول رسالة *بساحيم*[5] التلمودية، إنَّ الله ذاته حضَّر قبر موسى منذ أمسية سبت الخليقة.

---

(1) عبد الملك الثعالبي، *ثمار القلوب في المضاف والمنسوب*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط نهضة مصر، 1965، 53.

(2) *المرجع السابق.*

(3) *Encyclopedia Judaica*, 12: 954

(4) a14.

(5) a54.

كعب الأحبار وأساطير الصخرة:

مما لاشك فيه أن الأساطير اليهودية تسللت إلى التراث الإسلامي عبر قنوات كثيرة؛ وقد وجدنا في كثير من المراجع الإسلامية روايات تتعلّق بالصخرة، مصدرها كعب الأحبار؛ بالنسبة لتاريخ الصخرة والمسجد الأقصى تنسب لكعب بعض روايات لا تخلو من رائحة الأسطورة: يروى "أن كعباً قال: بنى سليمان بن داود بيت المقدس على أساس قديم"[1]؛ "وعن كعب (رض): لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس وضع القربان في رحبة المسجد ثم قام على الصخرة ... ...وسأله أن لا يأتي أحد هذا البيت يصلي فيه لرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[2].

يرفض كعب الاسم المسيحي للقدس، إيلياء: "عن كعب أنه قال: لاتسموا بيت المقدس إيلياء ولكن سموه باسمه فإن إيلياءَ امرأة بنت المدينة... وقال كعب: من زار البيت المقدس شوقاً إليه دخل الجنة، ومن صلى فيه ركعتين خرج عن ذنوبه كَيوم ولدَته أمه وأعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، ومن تصدق فيه بدرهم كان فداءه من النار، ومن صام فيه يوماً واحداً كتبت له براءة من النار، وقال كعب: معقِل

(1) فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، 39.
(2) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، 2.

المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرهم فيه حتى يأكلوا أوتار قِسِيهم من الجوع فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتاً من الصخرة ؛ فيقولون : هذا صوت رجل شبعان فينظرون ، فإذا عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ فإذا رآه الدجال هرب منه فيتلقاه بباب لد فيقتله"[1] ؛ وفي نص : "سمعت كعباً يقول : مقبور بيت المقدس لا يعذب"[2].

يورد ابن الجوزي في *تاريخ بيت المقدس* أحاديث كثيرة تنسب لكعب ، لها علاقة بأساطير الصخرة : "وعن كعب قال : يقول الله تعالى في التوراة لبيت المقدس : من مات فيك فكأنما مات في السماء ومن مات حول بيت المقدس فكأنما مات فيها. وعن كعب الأحبار قال : من دفن في بيت المقدس فقد جاز الصراط. وعنه قال : مقبور بيت المقدس لا يعذب.

وعن كعب ان النبي ﷺ ليلة أسري به وقف البراق في موضع الموقف الذي يقف الأنبياء فيه ثم دخل النبي ﷺ وجبرائيل أمامه فاضلاً له فيه ضوء كما تضيء الشمس ، ثم تقدم جبريل أمامه حتى كان من شامي الصخرة ، فأذن جبريل وحشر الله تعالى الأنبياء والمرسلين وصلى النبي ﷺ بالنبيين والمرسلين والملائكة ، ثم تقدم قدام ذلك فوضعت له

(1) ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* ، 1635.
(2) *نهاية الأرب* ، 96.

مرقاة[1] من فضة وهو المعراج حتى عرج إلى السماء"[2] ؛ " وعن كعب قال: باب مفتوح من السماء من أبواب الجنة ينزل من الجنات الرحمة على بيت المقدس كل صباح حتى تقوم الساعة والظل الذي ينزل على بيت المقدس شفاء من كل داء من جنان الجنة"[3] ؛ وفي عمل آخر للمؤلف ذاته: "عن كعب قال: إن الله عز وجل ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مرتين"[4].

من أساطير الصخرة الأخرى التي تنقل عن كعب، ما أورده النويري، حيث يقال: " وروي أيضاً بسنده عن كعب، قال: إن في التوراة أنه يقول [الله] لصخرة بيت المقدس "أنت عرشي الأدنى ومنك ارتفعت إلى السماء، ومن تحتك بسطت الأرض وكل ما يسيل من ذروة الجبال من تحتك؛ من مات فيك فكأنما مات في السماء، ومن مات حولك فكأنما مات فيك، لا تنقضي الأيام والليالي حتى أرسل عليك ناراً من السماء فتأكل آثاراً أكف بني آدم وأقدامهم منك،

---

(1) هذا النص من أهم ما اطلعنا عليه من نصوص، وهو يؤكّد رأينا بأن النبي، كما ورد في ميثة المعراج، استخدم المرقاة، أي السلّم، وهو المعراج، حتى عرج إلى السماء. وهذا يؤكّد قولنا المأخوذ عن هوروفيتس بأن "معراج" مأخوذة عن الإثيوبية التي تعني "سلّماً". وهنا نجد تطابقاً كبيراً أيضاً مع سلّم يعقوب الشهير، حيث لا وجود للبراق، الحيوان الأسطوري المستخدم في الروايات في نقل النبي إلى السماء.

(2) 6.

(3) 7.

(4) 4.

وأرسل عليك ماء من تحت العرش فأغسلك حتى أتركك كالمرآة، وأضرب عليك سوراً من غمام غلظه اثنا عشر ميلاً، وسياجاً من نار؛ وأجعل عليك قبة جبلتها بيدي، وأنزل فيك روحي وملائكتي يسبحون لي فيك؛ لا يدخلك أحد من ولد لآدم إلى يوم القيامة؛ فمن بر ضوء تلك القبة من بعيد، يقول: طوبى لوجه يخر فيك لله ساجداً، وأضرب عليك حائطاً من نار وسياجاً من الغمام، وخمسة حيطان من ياقوت ودرر وزبرجد؛ أنت البيدر، وإليك المحشر، ومنك المنشر... "

"ثم أتي بي إلى الصخرة فقال: من هاهنا عرج ربك إلى السماء.

عن كعب الأحبار، قال: يقول الله عز وجل لبيت المقدس: أنت عرشي الذي منك ارتفعت إلى السماء، ومنك بسطت الأرض، ومن تحتك جعلت كل ماء عذب يطلع في رؤوس الجبال.

أن رسول الله ﷺ قال: من أهل من بيت المقدس، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر...

روي عن كعب الأحبار قال: لا تقوم الساعة حتى يزور بيت الحرام بيت المقدس، فينقادان جميعاً إلى الجنة وفيهما أهلوهما. وروي عن خالد بن معدان قال: يحشر الله الكعبة إلى الصخرة زفاً إليها زفاً، متعلقين بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا: بالزائرة والمزور إليها"[1].

(1) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، 98.

عن خلق الكون، نجد التالي: "عن كعب الأحبار (رض) قال: كان البيت غثاء على الماء قبل أن يخلق الله تعالى الأرض بأربعين عاماً ومنه دحيت الأرض"[1]؛ و"روي عن كعب أن باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل باب بيت المقدس، قال: وهو أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً"[2].

ينقل إلينا الشامي نصوصاً أخرى لا تخلو من الأسطورة: "عن كعب الأحبار أن سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء المسجد خر ساجدا شكر لله؛ وقال: يا رب من دخله من خائف فأمنه أو من داع فاستجب له أو مستغفر فاغفر له، فأوحى الله تعالي إليه: "إني قد أجبت لآل داود الدعاء". قال فذبح أربعة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاة، وصنع طعاماً كثيراً ودعا بني إسرائيل إليه"[3]؛ "وروي أيضاً عن كعب قال: "في بيت المقدس، اليوم فيه كألف يوم والشهر فيه كألف شهر والسنة فيه كألف سنة، ومن مات فيه كأنما مات في السماء"[4]؛ "روى عن كعب الأحبار، أن الجنة في السماء السابعة بحيال بيت المقدس والصخرة، ولو وقع حجر منها لوقع على الصخرة

---

(1) شمس الدين الشامي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، 59.
(2) *السابق*، 1235 .
(3) 1278.
(4) 1278.

ولذلك دعيت: أروى شلم، ودعيت الجنة: دار السلام"[1]؛ "وحدثنا أن كعباً قال: يكره استقبال بيت المقدس واستدباره بالبول والغائط ولا يحرم قاله في الروض"[2].

يبدو أن كعب الأحبار هو أكثر من قدّم روايات للتراث الإسلامي تحكي عن قداسة الصخرة. "وعن كعب قال: بنى سليمان بيت المقدس على أساسٍ قديم كما بنى إبراهيم الكعبة على أساس قديم، قال: والأساس القديم الذي كان لبيت المقدس أسسه سام بن نوح. ثم بناه داود، وسليمان -عليهما السلام- على ذلك الأساس". [ثم يضيف المرجع ذاته نقلاً عن راوٍ آخر من أصول يهودية]، وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جيرانٌ الله عز وجل. وحق على الله تعالى أن لا يعذب جاره"[3].

"وقال كعب الأحبار: بيت المقدس... وقيل سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة وقبلة الأنبياء قبل محمد ﷺ، وإليه يحشر الخلق يوم القيامة؛ وسمي بيت القدس مقدساً لأنه يطهر فيه من الذنوب ولأن الماء العذب ينبع أصله من تحت صخرة بيت المقدس؛ قال وهب: أوحى الله إلى صخرة المقدس عليك أضع عرشي وإليك أحشر

---

(1) 1288.

(2) 1290.

(3) ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*، ص. 94.

خلقي وفيك جنتي وناري ولأفجرن أنهارك لبناً وعسلاً وخمراً ؛ طوبى لمن زارك. وقال غيره أن الله يحول صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماء والأرض ثم يضع عليها عرشه وميزانه ؛ وعن عبادة بن الصامت (رض) عن النبي ﷺ : صخرة بيت المقدس على نخلة من نخيل الجنة والنخلة على نهر من أنهار الجنة"[1]. " وعن كعب، قال: من أتى بيت المقدس فصلى عن يمين الصخرة وشمالها ودعا عند موضع السلسلة وتصدق بما قل أو كثر استجيب دعاؤه وكشف عنه حزنه وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[2].

"وروي عن كعب أن جميع الأنبياء عليهم السلام زاروا بيت المقدس تعظيماً له ؛ وروي عن أبي بن كعب، قال: أوحى الله تعالى إلى داود: ابنِ لي بيتاً! قال: يا رب وأين من الأرض؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه ؛ فرأى داود ملكاً على الصخرة واقفاً وبيده سيف"[3].

"أول شيء حُسر عنه بعد الطوفان صخرة بيت المقدس وفيه ينفخ في الصور يوم القيامة وعلى صخرته ينادي المنادي يوم القيامة. ... وإن الصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في غيره، وأقربُ بقعة في

---

(1) الصفوري، *نزهة المجالس ومنتخب النفائس*، ص. 291.
(2) أبو عبيد البكري، *المسالك والممالك*، ص 130.
(3) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ص. 1635.

الأرض من السماء البيت المقدس ويُمنع الدجال من دخولها ويهلك يأجوج ومأجوج دونها وأوصى آدم عليه السلام أن يدفن بها وكذلك إسحاق وإبراهيم وحمل يعقوب من أرض مصر حتى دفن بها، وأوصى يوسف عليه السلام حين مات بأرض مصر أن يُحمل إليها، وهاجر إبراَهيم من كُوثى إليها، وإليها المحشر ومنها المَنشَر، وتاب الله على داود بها، وصدق إبراهيم الرؤيا بها، وكلم عيسى الناس في المهد بها، وتقاد الجنة يوم القيامة إليها، ومنها يتفرَق الناس إلى الجنة أو إلى النار"[1].

"ويتفق الربانيون والقراؤون على أنهم يستقبلون صخرة بيت المقدس في صلاتهم، يوجهون لها موتاهم"[2].

"وعن كعب قال: العرض والحساب من بيت المقدس. قال كعب ومقاتل: هي أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وقال ابن السائب: باثني عشر ميلاً. وعن كعب قال: من أتى بيت المقدس فصلى عن يمين الصخرة وشمالها، ودعا عند موضع السلسلة، وتصدق بما قل أو كثر، استجيب دعاؤه، وكشف الله حزنه، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه؛ وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها"[3].

---

(1) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ص. 1635

(2) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ص. 2270

(3) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. 9؛ راجع: ابن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، ص. 40، ابن الجوزي، *فضائل القدس*، ص.16.

"وعن كعب أن الكعبة بازاً عنه البيت المعمور في السماء السابعة الذي تحجه الملائكة لو وقعت منه أحجار وقعت على الكعبة وأن الجنة من السماء السابعة بازاً بيت المقدس لو وقع مهنا حجر لوقع على الصخرة"[1].

"فقال كعب: قام سليمان ابن داود على هذه الصخرة، ثم استقبل القدس كله ودعا الله عز وجل بثلاث، فأراه الله عز وجل تعجيل إجابته في دعوتين، وأرجو أن يستجيب في الآخرة. فقال: اللهم هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب، فأعطاه الله عز وجل ذلك، وقال: اللهم هب لي ملكاً وحكماً يوافق حكمك. ففعل الله عز وجل ذلك به، ثم قال: اللهم لا يأت هذا المسجد أحد يريد الصلاة فيه إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه"[2].

"وعن كعب قال: باب مفتوح من السماء من أبواب الجنة ينزل من الجنات الرحمة على بيت المقدس كل صباح حتى تقوم الساعة، والظل الذي ينزل على بيت المقدس شفاء من كل داء من جنان الجنة"[3].

(1) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص. 4
(2) ابن الجوزي، *فضائل القدس*، ص. 16.
(3) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص.7.

ووهب بن منبه:

يهودي آخر غير كعب الأحبار، امتلأت صفحات التراث الإسلامي برواياته المنقولة عن التراث اليهودي؛ وهنا بعض منها من تلك المتعلقة بالصخرة. "وعن وهب قال: يقول الله تعالى: الصخرة بيت المقدس فيك جنتي وناري وفيك جزائي وعقابي فطوبى لمن زارك"[1]؛ "أتى رجل من أهل اليمن خرجت أريد هذا البيت فمررت بوهب بن منبه فقال: أين تريد؟ قلت: بيت المقدس. قال: إذا دخلت المسجد فأدخل الصخرة من الباب الشامي ثم تقدم إلى القبلة فإن عن يمينك عموداً أو أسطوانة، وعن يسارك عموداً وأسطوانة فأنظر بين ذلك تجد رخامة سوداء، فإنها على باب الجنة فضل فيها وأدع الله عز وجل فإن الدعاء عليها مستجاب. وعن عثمان الأنصاري أنه كان يجيء الليل بعد انصرافه من القيام في شهر رمضان على البلاطة السوداء"[2]؛ "وعن وهب: لما كثر الشر وشهادات الزور أعطى الله تعالى لداود عليه السلام سلسلة من ذهب، وقيل من نوف لمفضل الخطاب وكانت معلقة من السماء إلى الأرض بجبال الصخرة شرقي الصخرة وهي القبة التي لقي النبي ﷺ ليلة الإسراء فيه الحور والعين"[3]؛ "وعن وهب قال:

(1) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، 4.

(2) *السابق*، 5.

(3) *السابق*، 6.

من دفن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقه"[1] ؛ "عن وهبَ بن منبه قال: "إن الله تعالى قال لصخرة بيت المقدس""[2] ؛ نص آخر هام للغاية، يمكن أن يوصلنا إلى الحلقة التي ساهمت في إدخال كل هذا الكم من التراث اليهودي في مثيله الإسلامي: "عن وهب بن منَبه ؛ قال: أمر إسحاق ابنه يعقوب أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين وأن ينكح من بنات خاله لابان بن تاهرُ بن أزر وكان مسكنه فلسطين، فتوجه إليها يعقوب وأدركه في بعض الطريق الليل فبات متوسداً حجراً فرأى فيما يرى النائم كأن سلماً منصوباً إلى باب السماءِ عند رأسه والملائكة تنزل منه وتعرج[3] فيه ؛ وأوحى الله إليه إني أنا الله لا إله إلا

(1) *السابق.*

(2) شمس الدين الشامي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، 1290

(3) معنى عرج في *لسان العرب*: العَرَجُ والعُرْجة الظَّلَعُ والعُرْجة أيضاً موضع العَرَج من الرِّجل والعَرَجان بالتحريك: مِشْية الأعرج، ورجل أعرج من قوم عُرج وعُرجان وقد عَرَج يَعْرُج وعَرُج وعَرِج عَرَجاناً مشى مِشْية الأعرج بعَرَضٍ فغمز من شيء أصابه وعَرَج لا غير صار أَعْرَجَ وأعرج الرجلَ جعله أَعْرَج. قال الشماخ:

فبِتُّ كأني مُتَّقٍ رأسَ حَيَّةٍ   لحاجتها إنْ تُخْطِئ النَّفس تَعْرُجِ

وأعرجه الله وما أَشدَّ عرجه ولا تقل ما أَعْرَجَه لأن ما كان لَوْناً أو خِلقة في الجسد لا يقال منه ما أفعله إلاَّ مع أشدَّ وأَمرٌ عَرِيجٌ إذا لم يُبرَم وعرَّج البناءَ تَعْريجاً أي ميَّله فتعرج ؛ وقوله أنشده ثعلب ألم تَرَ أن الغَزْوَ يَعْرِجُ أهلَه مِراراً وأَحْياناً يُفِيدُ ويُورِقُ ؟ لم يفسره وهو من ذلك كأنه كناية عن الخَيْبة ؛ وتعارَج حكى مِشْيَةَ الأَعرج والعَرْجاء الضَّبع خلقة فيها والجمع عُرْجٌ والعرب تجعل عُرْجَ معرفة لا تنصرف ==

تَجْعَلُها بمعنى الضباع بمنزلة قبيلة ولا يقال للذكر أَعْرَج ويقال لها عُرَاجُ معرفة لعَرَجِها وقول أبي مكعَّب الأسدي: أفكان أوَّلَ ما أُثِبْتَ تَهارَشَتْ أبناءُ عُرْجَ عليك عند وِجارِ يعني أبناء الضباع وترك صرف عُرْجَ لأنه جعله اسماً للقبيلة؛ وأما ابن الأعرابي فقال: لم يجر عُرْجَ وهو جمع لأنه أراد التوحيد والعُرْجة فكأنه قصد إلى اسم واحد وهو إذا كان اسماً غير مسمى نكرة والعَرَجُ في الإبل كالحَقَب وهو أن لا يستقيم مخرج بَوْلِهِ فيقال حَقِب البعير حَقَباً وعرج عَرَجاً فهو عَرِجٌ ولا يكون ذلك إلاّ للجمل إذا شدّ عليه الحَقَب يقال أَخْلِفْ عنه لئلاّ يَحْقَبَ وانْعَرَج الشيءُ مال يُمْنَة ويَسْرة وانعَرَج انعطَف وعَرَّج النهرَ أماله والعَرَج النَّهر (◆ قوله « والعرج النهر» هو في الأصل بفتح العين والراء) والوادي لانعراجهما؛ وعَرَّج عليه عطف وعرَّج بالمكان إذا أقام والتعريجُ على الشيءِ الإقامة عليه وعَرَّج الناقة حبسها؛ وما لي عندك عِرْجَة ولا عَرْجَة ولا عَرَجة ولا عُرْجة ولا تَعْريج ولا تَعَرُّج أي مُقام وقيل مجلِس؛ وفي ترجمة عرض تَعَرَّضْ يا فلان وتَهَجَّسْ وتَعَرَّجْ أي أقم والتَّعريجُ أن تحبس مطيَّتك مُقيماً على رُفْقتك أو لحاجة. يقال: عَرِج فلان على المنزل. وفي الحديث: فلم أُعَرِّج عليه أي لم أُقِمْ ولم أحتبس؛ ويقال للطريق إذا مال: قد انْعَرَجَ وانعرج الوادي وانعرج القوم عن الطريق مالوا عنه وعَرَجَ في الدَّرَجة والسُّلَّم يعرُج عُرُوجاً أي ارتقى وعَرَج في الشيءِ وعليه يعرِج ويَعرُج عُرُوجاً أيضاً رَقِيَ وعَرَج الشيءُ فهو عَريج ارتفع وعَلا؛ قال أبو ذؤيب: كما نَوَّر المِصْباحُ للعُجْم أمرَهُم بُعَيْدَ رُقادِ النائمين عَريجُ؛ وفي التنزيل: تَعْرُج الملائكة والروح إليه أي تصعد؛ يقال: عَرَج يَعْرُج عُرُوجاً وفيه من الله ذي المَعارج المَعارج المَصاعِد والدَّرَج؛ قال قتادة: ذي المَعارج ذي الفواضل والنِّعَم؛ وقيل: معارج الملائكة وهي مَصاعِدها التي تَصْعَد فيها وتعرج فيها؛ وقال الفراءُ: ذي المَعارج من نعت الله لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك والقرّاءُ كلهم على التاء في قوله تعرج الملائكة إلاّ ما ذكر عن عبد الله وكذلك قرأ الكسائي والمَعْرَج المَصْعَد والمَعْرج الطريق الذي تصعَد فيه الملائكة والمِعْراج شبه سُلَّم أو دَرَجة تعرُج عليه الأرواح إذا قُبِضت؛ يقال: ليس شيءٌ أحسن منه إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرُج؛ قال:
==

ولو جُمع على المَعاريج لكان صواباً فأما المَعارِج فجمع المِعْرَج ؛ قال الأزهري ويجوز أن يجمع المِعْرَاج مَعارِجَ والمِعْراج السُّلَّم ومنه ليلة المِعْراج والجمع مَعارِج ومَعاريج مثل مَفاتح ومَفاتيح ؛ قال الأخفش: إن شئتَ جعلت الواحد مِعْرَجاً ومَعْرَجاً مثل مِرْقاة ومَرْقاة والمَعارِج المَصاعد وقيل المِعْرَاج حيث تصعَد أعمال بني آدم وعُرِج بالرُّوح والعمل صُعِد بهما ؛ فأما قول الحسين بن مطير: زارَتْكَ سُهْمَةُ والظَّلْماءُ ضاحيةٌ والعينُ هاجعةٌ والرُّوحُ مَعْرُوجُ (قول « سهمة » لم تتضح صورة هذه الكلمة في الأصل وإنما فهمناها بالقوة) فإنما أراد مَعْرُوج به فحذف والعَرْج والعِرْج من الإبل ما بين السبعين إلى الثمانين وقيل هو ما بين الثمانين إلى التسعين وقيل مائة وخمسون وفويق ذلك وقيل من خمسمائة إلى ألف ؛ قال ابن قيس الرقيات:

أنزلُوا مِن حُصُونِهِنَّ بَنَاتِ التُّرْكِ يأتون بعد عَرْجٍ بعَرْجِ

والجمع أعْرَاج وعُرُوج قال يومَ تُبْدِي البيضُ عن أَسْوُقِها وتَلُفُّ الخيلُ أعْراجَ النَّعَمْ وقال ساعدة بن جؤية: واستدبروهم يُكفِئون عُروجَهم مَوْرَ الجَهامِ إذا زَفَتْه الأزْيَبُ أبو زيد العَرْج الكثير من الإبل أبو حاتم إذا جاوزت الإبل المائتين وقاربت الألف فهي عَرْج وعُرُوج وأعْراج وأعرَجَ الرجل إذا كان له عَرْج من الإبل ؛ ويقال: قد أعْرَجْتُك أي وهبتك عَرْجاً من الإبل والعَرَجُ غيبوبة الشمس ؛ ويقال: انعراجُها نحو المغرب ؛ وأنشد أبو عمرو:

حتى إذا ما الشمس هَمَّتْ بِعَرَجْ

والعُرْج ثلاث ليال من أول الشهر ؛ حكى ذلك عن ثعلب والأُعَيْرِج حيَّة أصَمُّ خبيث والجمع الأُعَيْرِجات والأُعَيْرِج أخبث الحيَّات يَثِبُ حتى يصير مع الفارس في سَرْجه قال أبو خيرة هي حيَّة صمَّاء لا تقبل الرُّقْيَة وتَطْفِر كما تَطْفِرُ الأفعى والجمع الأُعَيْرِجات ؛ وقيل: هي حيَّة عَريض له قائمة واحدة عَريض مثل النبث والراب نبثه من ركنه أو ما كان فهو نَبْث (قوله « مثل النبث إلى قوله فهو نبث » هكذا في الأصل المنقول من نسخة المؤلف ولم نهتد إلى اصلاح ما فيها من التحريف) وهو نحو الأَصَلَة والعارج العائب والعُرَيْجاء أن ترد الإبل يوماً نصف النهار ويوماً غُدْوَة

==

أنا إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وقد ورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك وباركت فيك وفيهم وجعلت فيكم الكتاب والحكمة والنبوة ثم أنا معك حتى تدرك إلى هذا المكان فاجعله بيتاً تعبدني فيه أنت وذريتك؛ فيقال: إنه بيت المقدس! فبناه داود وابنه سليمان ثم أخربته الجبابرة بعد ذلك فاجتاز به شعياً وقيل عزير عليه السلام فرآه خراباً فقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ

وقيل هو أن ترد غُدوة ثم تَصدُر عن الماء فتكون سائر يومها في الكلإ وليلَتها ويومَها من غَدِها فترِدُ ليلاً الماء ثم تصدر عن الماء فتكون بقية ليلتها في الكلإ ويومَها من الغد وليلَتها ثم تصبح الماءَ غُدْوَةً وهي من صفات الرِّفْهِ وفي صفات الرِّفْهِ الظاهِرةُ والضَّاحِيةُ والآبِيَّةُ والعُرَيْجَاءُ؛ ويقال إن فلاناً ليأكل العُرَيْجاء إذا أكل كل يوم مَرَّةً واحدة والعُرَيْجاء موضع (قوله « والعريجاء موضع » هكذا في الأصل بالتعريف وعبارة ياقوت عريجاء تصغير العرجاء موضع معروف لا يدخله الالف واللام اه وعبارة القاموس وشرحه وعريجاء بلا لام موضع)؛ وبنو الأَعْرَج قبيلة وكذلك بَنو عُرَيْج والعَرْج بفتح العين وإسكان الراء قرية جامعة من عمل الفُرْع وقيل هو موضع بين مكة والمدينة وقيل هو على أربعة أميال من المدينة ينسب إليه العَرْجِيّ الشاعر (قوله « ينسب إليه العرجيّ الشاعر إلخ » عبارة ياقوت في معجم البلدان إليها ينسب العرجي الشاعر وهو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان إلخ وعبارة القاموس وشرحه منه عبج الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العرجي الشاعر وفي بعض النسخ عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان) والعَرْجِيّ عبد الله بن عَمرو بن عثمان بن عفان والعَرَنْجَجُ اسم حِمْيَر بن سَبَأ وفي الحديث من عَرَج أو كُسِرَ أو حُبِسَ فليَجزِ مثلَها وهو حِلٌ أي فَلْيَقْضِ يعني الحجَّ المعنى من أحصَرَه مَرَضٌ أو عَدُوٌّ فعليه أن يبعث بِهَدْيٍ ويواعدَ الحامل يوماً بعينه يذبَحُها فيه فإذا ذبحت تَحلَّلَ فالضمير في مثلها للنَّسِيكَةِ

بَعَثَهُ﴾ البقرة: 259، كما قص عز وجل في كتابه الكريم ثم بناه من ملوك فارس يقال له كوشك وكان قد اتخذ سليمان في بيت المقدس أشياء عجيبة ... وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود عليه السلام ... منمقة من برا وداخل بالفسيفساء مطبقة بالرخام الملون قائم ومسطح وفي وسط هذا الرخام قبة أخرى وهي قبة الصخرة التي تزار وعلى طرفها أثر قدم النبي ﷺ"[1]. ويضيف المطهر بن طاهر المقدسي إلى النص السابق عن وهب: "وخربه [الهيكل] بخت نصر فأوحى الله عز وجل إلى كوشك ملك من ملوك فارس فعمرها ثم خربها ططس الرومي الملعون فلم يزل خراباً إلى أن قام الإسلام وعمره عمر بن الخطاب (رض) ثم معاوية بن أبي سفيان وبه بايعوه للخلافة"[2].

يتناول أبي بن كعب، وهو أيضاً من أصل يهودي، وفق الرواية، بناء الصخرة من منظور آخر، لا يخفى فيه الأثر اليهودي: "عن أبي بن كعب: أن الله تعالى أوحى إلى داود: ابن لي بيتاً. فقال: يا رب؛ أين؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه! فرأى داود ملكاً على الصخرة بيده سيف، فبنى هناك، ولما فرغ سليمان من بنائها أوحى الله تعالى

(1) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، 1636.
(2) المطهر بن طاهر المقدسي، *البدء والتاريخ*، 21.

إليه: سلني أعطك! فقال: يا رب أسألك أن تغفر لي ذنبي! فقال: لك ذلك! قال: وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد! فقال: لك ذلك! قال: وأسألك لمن جاءه فقيراً أن تغنيه!

قال: ولك ذلك! قال: وأسألك إن جاءه سقيماً أن تشفيه! قال: ولك ذلك...

..وفي وسطها الصخرة التي تزار، وعلى طرفها أثر قدم النبي ... وذكر أن طول قبة الصخرة كان اثني عشر ميلاً في السماء، وكان على رأسها ياقوتة حمراء كان في ضوئها تغزل نساء أهل بلقاء. وبها مربط البراق الذي ركبه النبي، عليه السلام، تحت ركن المسجد"[1].

"وعن أبي بن كعب أنه قال: ما من ماء عذب إلا يخرج من تحت صخرة بيت المقدس. وعن نوفل البكالي قال: يخرج من تحت صخرة بيت المقدس أربعة أنهار من الجنة: سيحان وجيحان والنيل والفرات.

وعن أبي بن كعب قال: يقول الله تعالى لصخرة بيت المقدس: أنت عرشي الأولى ومن تحتك بسط الأرض ومن تحتك جعلت عذب الماء يطلع إلى رؤوس الجبال"[2].

---

(1) القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد*، 63.

(2) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص. 5.

من هؤلاء أيضاً أبو مالك القرظي، الذي ينقل عنه قوله: "في كتاب اليهود الذي لم يُغيّر أن الله تعالى خلق الأرض فنظر إليها وقال أنا واطيء: على بقعتك فشمخت الجبالُ"[1].

أشهرهم طبعاً هو عبد الله بن سلام، الذي يُزعم أنه "قال: من صلى في بيت المقدس ألف ركعة عن يمين الصخرة وعن يسارها، دخل الجنة قبل موته؛ يعني يراها في منامه. وعن الحوشي قال: إذا دخلتم الصخرة يصنعوها عن أيمانكم.

[و]عن محمد بن كعب القرظى قال: ما خالف نبي نبياً قط في قبلة إلا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس، أي فهو مخالف لغيره من الأنبياء في ذلك"[2].

(1) ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ص. 1635
(2) نور الدين الحلبي، *السيرة الحلبية*، ص. 503.

الصخرة في الميثولوجيا الإسلامية

في البداية، لا بد أن نلحظ أن كلّ ما ورد في التراث الإسلامي من أخبار بشأن الصخرة مأخوذ بشكل أو بآخر عن مثيله اليهودي؛ فحول العلاقة بين كوكب الزهرة والصخرة، الذي أشرنا إليه آنفاً؛ يقول ابن خلدون: "أما بيت المقدس وهو المسجد الأقصى فكان، أول أمره أيام الصابئة، موضعاً لهيكل الزهرة، وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، ويصبونه على الصخرة التي هناك. ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلاتهم"[1].

روايات إسلاميّة كثيرة تحكي عن الصخرة خصوصاً، والمسجد الأقصى عموماً؛ وإذا ما أهملنا تلك الروايات التي تصف الصخرة ماديّاً، لأنها أبعد ما تكون عن الواقع، فإن ما تبقى من روايات، التي ينسب كثير منها للنبي، لا يمكن تصنيفه إلا تحت عنوان أوحد: "ميثولوجيا". من ذلك ما يقوله ابن عبد ربّه الأندلسي: "عن أنس بن مالك (رض) عن النبي ﷺ أنه قال: من زار بيت المقدس محتسباً لله عزّ وجلّ حرم الله لحمه وجسمه على النار...

(1) *تاريخ ابن خلدون*، 216.

فضائل بيت المقدس ثلاث

... وعن عبد الله بن عمر، قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: لما فرغ سليمان بن داود من بنيان بيت المقدس سأل الله ثلاث خصال: سأل الله أيما عبد خرج من بيته لا يعمد إلا الصلاة في هذا المسجد أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فنرجو أن الله قد أعطاه ذلك، وسأله حُكماً يوافق حكمه فأعطاه ذلك، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه. وعن أبى العالية، "إلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَاَ فِيهَا لِلْعَالَمِين"؛ قال: من بركتها أن كل ماء عذب إنما يخرج من أصل صخرة بيت المقدس يعنى عين سماميح. والله إن مخرجها لمن تحت صخرة بيت المقدس وهي عين في وسط البحرين.

وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن خديج ...، فقيل لهما: أرأيتما ما يقول الناس في هذه الصخرة؟ أشيء له أصل فنأخذ به أم شيء إنما يؤخذ من أهل الكتاب فندعه؟ فقال كلاهما: سبحان الله فمن يشك في أمرهما؟ إن الله تعالى لما استوى إلى السماء؛ قال: بصخرة بيت المقدس هذا مقامي وموضع عرشي يوم القيامة ومحشر

عبادي، وهنا موضع جنتي عن يمينها، وهذا موضع ناري عن يسارها، وأنا ديان الدين، ثم استوى العرش إلى عليين".[1]

من الأمور الغريبة ما يقوله ابن عبد ربّه الأندلسي: "كان طول صخرة بيت المقدس في السماء اثني عشر ميلاً، وكان أهل أريحاء، يستظلون بظلها، وأهل عمواس مثل ذلك".[2]

"وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: فلمّا فرغ سليمان[3] من بناء بيت المقدس سأل الله حكماً يوافق حكمه وملكاً لا

---

(1) أبو عبيد البكري، *المسالك والممالك*، صفة مسجد بيت المقدس، ص. 130. راجع: وروي أيضا بسنده إلى هانئ بن عبد الرحمن، ورديح بن عطية عن إبراهيم ابن أبي عبلة أحسبه كذا قال: وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن خديج وكانا عقبيين بدريين، فقيل لهما: أرأيتما ما يقول الناس في هذه الصخرة أحقاً هو فنأخذ به، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندعه؟ فقال كلاهما: سبحان الله! ومن يشك في أمرها، إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء، قال لصخرة بيت المقدس: "هذا مقامي وموضع عرشي يوم القيامة، ومحشر عبادي، وهذا موضع ناري عن يسارها وفيه وأنصب ميزاني أمامها، وأنا الله ديان يوم الدين"؛ ثم استوى إلى عليين. (النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. 97).

(2) *العقد الفريد*، ص. 992

(3) راجع: "كان داود عليه السلام ابتدأ بعمارة بيت المقدس، فتوفي قبل إتمامه فاستتمه سليمان، وأتم بناء مدينة "إيليا". وكان أبوه ابتدأها قبله. وبنى المسجد بناء لم يرى الناس مثله. وكان يضيء في ظلمة الليل "الحندس" إضاءة السراج الزاهر، لكثرة ما جعل فيه من الذهب والجواهر. وفرغ منه في سبع سنين. وجعل اليوم الذي فرغ منه عيداً في كل سنة".(ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*، ص.94.)

ينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله ذلك، وعن ابن عباس قال: البيت المقدس بَنَته الأنبياءُ وسكنته الأنبياءُ ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبيٌّ أو قام فيه ملك، وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: أيُ مسجد وُضع على وجه الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام؛ قلت: ثم أي؟ قال: البيت المقدس وبينهما أربعون سنة"[1].

حول مسألة تحويل القبلة؛ يقول ياقوت الحموي أيضاً: "عن الفضيل بن عياض، قال: لما صُرفت القبلة نحو الكعبة قالت الصخرة: إلهي لم أزل قبلة لعبادتك حتى بعثت خير خلقك صرفت قبلتهم عني؛ قال: ابشري فإني واضع عليكِ عرشه وحاشر إليكِ خلقي وقاضٍ عليك أمري، وناشر منك عبادي"[2].

حول الآيات المتعلّقة ببيت المقدس وصفات الصخرة، يقول *المرجع السابق*: "قال مُقاتل بن سليمان قوله تعالى: "ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين"، الأنبياء: 71، قال: هي بيت المقدس.. وقوله تعالى لبني إسرائيل: "وواعدناكم جانب الطور الأيمن"، طه: 80، يعني بيت المقدس. وقوله تعالى: "وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين"، المؤمنون: 50، قال البيت المقدس وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى

(1) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ص. 1635.
(2) *معجم البلدان*، ص. 1635.

الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ ، الإسراء: 1 ، هو بيت المقدس. وقوله : "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه" ، النور: 36، البيت المقدس. وفي الخبر من صلّى في بيت المقدس فكأنما صلّى في السماء ، ورفع اللّه عيسى ابن مريم إلى السماء من بيت المقدس وفيه مهبطه إذا هبط ؛ وتزف الكعبة بجميع حجاجها إلى البيت المقدس يقال لها : مرحباً بالزائر والمزور ؛ وتزف جميع مساجد الأرض إلى البيت المقدس. أول شيء حُسر عنه بعد الطوفان صخرة بيت المقدس ، وفيه ينفخ في الصور يوم القيامة وعلى صخرته ينادي المنادي يوم القيامة. وقد قال الله تعالى لسليمان بن داود عليه السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سلني أعطك! قال : يا رب أسألك أن تغفر لي ذنبي ؛ قال : لك ذلك ؛ قال : يا رب وأسألك أن تغفر لمن جاءَ هذا البيت يريد الصلاة فيه وأن تخرجه من ذنوبه كيوم وُلد ؛ قال : لك ذلك ؛ قال : وأسألك من جاءَ فقيراً أن تُغنيَه ؛ قال : لك ذلك ؛ قال : وأسألك من جاءَ سقيماً أن تشفيه ؛ قال : ولك ذلك. وعن النبي ﷺ إنه قال : لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد البيت المقدس ، وإن الصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في غيره ، وأقربُ بقعة في الأرض من السماء البيت المقدس ، ويُمنع الدجال من دخولها ، ويهلك يأجوج ومأجوج دونها ، وأوصى آدم عليه السلام أن يدفن بها وكذلك إسحاق وإبراهيم ، وحمل يعقوب من أرض مصر حتى دفن بها ، وأوصى يوسف عليه السلام حين مات بأرض مصر أن يُحمل

إليها، وهاجر إبرَاهيم من كُوثى إليها، وإليها المحشر ومنها المَنشَر، وتاب الله على داود بها وصدق إبراهيم الرؤيا بها وكلم عيسى الناس في المهد بها، وتقاد الجنة يوم القيامة إليها، ومنها يتفرَق الناس إلى الجنة أو إلى النار"[1].

"قالوا: ومن أعاجيب ما اتخذ سليمان ببيت المقدس أنه بنى بيتاً وطّين حيطانه بالخضرة وصقله؛ ولما فرغ من بناء بيت المقدس قرب قرباناً على الصخرة...: فنزلت نار من السماء فسدت ما بين الخافقين ثم امتد منها عنق فاحتمل القربان وصعد به إلى السماء.

وقال سعيد بن المسيب: لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلقت أبوابه، فعالجها سليمان فلم تنفتح حتى قال في دعائه: بصلوات أبي داود إلا ما فتحت الأبواب، ففتحت. ففرغ له سليمان (ع) عشرة آلاف من قراء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل أو نهار إلا والله عز وجل يعبد فيها فيه.

وحكى الكسائي في خبر بناء بيت المقدس، قال: فأوحى الله تعالى إلى سليمان (ع) أن تبني بيت المقدس وترفع قواعده كما رفع إبراهيم قواعد البيت العتيق، وأن تبنيه على صخرة المعراج. فأمر سليمان الجان

(1) ص. 1635.

أن تقطع الصخور. وتنقل الرخام والأحجار والعمد وآلات العمارة إليه"[1].

"عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾؛ قال: من صخرة بيت المقدس.

وعن يزيد بن جابر يوم ينادي المناد من مكان قريب؛ قال: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور، فيقول: أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة؛ إن الله تعالى أمرك أن تجتمعي للحساب.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ، هو أن إسرافيل يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس، هلموا إلى الحساب، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، وهذه هي النفخة الأخيرة.

والمكان القريب صخرة بيت المقدس.

وعن ابن عمر (رض) في قوله تعالى "فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب"، قال: هو حائط بيت المقدس الشرقي الذي من ورائه واد يقال له وادي جهنم، ومن دونه باب يقال له باب الرحمة.

---

(1) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. 1436.

وأما ورد في فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها فقد روي عن أنس بن مالك، قال: إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس، وهي سرة الأرض.

وعن أبي إدريس الخولاني، قال: يحوّل الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماء والأرض، ثم ينصب عليها عرشه، ثم يقضي بين عباده: يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار.

وعن أبي العالية في قوله تعالى: "إلى الأرض التي باركنا فيها" قال: من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.

وعن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ، قال: الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس. وقال ابن عباس (رض): صخرة بيت المقدس من صخور الجنة. قال الزجاج: يقال إنها في وسط الأرض.

وأما ما ورد في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء، فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده إلى سوادة بن عطاء الحضرمي، قال: نجد في الكتاب مكتوباً أن الله عز وجل لما أن خلق الأرض وشاء أن يعرج إلى السماء وهي دخان، استشرف لذلك الجبال أيها يكون ذلك عليه؟ وخشعت صخرة بيت المقدس تواضعاً لله عز وجل، فشكر الله لها ذلك وجعل المعراج عنها. وكان عليها ما شاء الله أن يكون. قال: فمد الجبار يديه حتى كانتا حيث يشاء أن تكونا، ثم قال: "هذه جنتي غرباً، وهذه

ناري شرقا، وهذا موضع ميزاني طرف الجبل، وأنا الله ديان يوم الدين"؛ وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة"[1]. – وهذا الكلام نجده عموماً في الأغاداه اليهودية.

(1) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. 97. راجع: "كيف يميت [الله] الخلائق إذا قامت الساعة؟ قال: يأمر ملك الموت فيقف على صخرة بيت المقدس ويضع يمينه على السموات ويده اليسرى تحت الثرى، ويصيح بهم صيحة عظيمة، وينفخ صاحب الصور في صوره فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا إنس ولا جان ولا طير ولا وحش إلا خر ميتاً ميتة رجل واحد، فتبقى السموات خالية من سكانها والأرض عاطلة من قطانها، والعشار معطلة والبحار جامدة والجبال مدكدكة، والشمس منكسفة والنجوم منطمسة". (سراج الدين ابن الوردي، *خريدة العجائب وفريدة الغرائب*، ص. 112).
"ورُوِيَ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قال: من صخرة بيت المقدس. وقال يزيد بن جابر في الآية: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس، فينفخ في الصور، فيقول: أيتها العظام النخرة، والجلود المتمزقة، والأشعار المتقطعة، إن الله تعالى أمرك أن تجتمعي للحساب! وروى ابن منده بسنده عن أنس بن مالك، قال: إن الجنة لَتحنّ شوقا إلى بيت المقدس. وبيت المقدس من جنة الفردوس، وهي سرة الأرض. "يعني الصخرة".
وبه عن أبي إدريس الخولاني قال: يحوّل الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماوات والأرض. ثم ينصب عليها عرشه. ثم يقضي بين عباده، يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار. وقال أبو العالية في قوله تعالى: "إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا"؛ قال: من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.
قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ قالوا: هو إسرافيل. يقف على صخرة بيت المقدس فينادي: يا أيها الناس، هلموا إلى الحساب! إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء! " وهذه هي النفخة الأخيرة. والمكان القريب صخرة بيت المقدس". (ابن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، ص. 40).

قدم النبي أم قدم الله؟

"وقد وجدنا في صدر المغارة التي تحت الصخرة، قبالة الوجه الذي ينزل من الدرج على جانبه اليمين، مصطبة متصلة بحايطها الشرقي لها، عمود لطيف متصل بالصخرة، يقال إنّ هناك مقام الخضر عليه السلام، وفي نفس الصخرة خرق واسع نافذ إلى الجهة العليا، يضعون فيه قنديلاً مشعولاً كل ليلة، فلعلّه هو الخرق المذكور الوارد في الحدث، وفي داخل المغارة قناديل كثيرة، يقِدُونها بين العِشائين ويفتحون الباب للزايرين كل ليلة أيضاً، وهو باب يُفتح إلى جهة القبلة؛ ثم صعدنا إلى زيارة القدم الشريف(1)، قدم النبي ﷺ، الذي

(1) "حقيقة أثر قدم النبي ﷺ؟
وحسب رئيس مركز المخطوطات في المسجد الأقصى رضوان عمرو أن بناء الخابية كان في العهد الأيوبي بعد تحرير القدس من الصليبيين، وسميّ بذلك لاستخدامه في "التخبئة"، ويؤكد لكيوبرس أن بناءها حينها كان جزءا من حركة الإحياء لقبة الصخرة والمسجد الأقصى وإعمارهما وجذب الناس إليهما. كما ويتداول العامة أن داخل هذه الخابية أثرا لقدم النبي ﷺ ليلةَ عرج إلى السماء من المسجد، لكن عمرو يرد على هذا الأمر بقوله: "لا دليل علمي أو مادي على أن هذا الأثر لقدم النبي وقد انتشرت البدع والأحاديث المكذوبة حول قبة الصخرة حتى قال العالم ابن القيم في ذلك: "كل حديث في الصخرة مكذوب مفترى". ويتوقع عمرو أن الأيوبيين لم يقصدوا أن يكرسوا بدعة في الإسلام، وإنما كان بناء الخابية بهدف تكريم المكان، وإضافة قطعة جمالية له". الرابط:
https://ramallah.news/post/62986/%D9%87%D8%B0%D9%87-%D9%87%D9%8A-%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%A3%D8%AB%D8%B1-%D9%82%D8%AF%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%8A-
==

أثر في الصخرة، قال الحنبلي: موضع القدم الشريف في حجر منفصل عن الصخرة، محاذٍ لها آخراً من جهة الغرب من جهة القبلة، وهو على عَمدٍ من رخام، قلت: ومراده بكونه منفصلاً عن الصخرة نفسها، بدليل ما سبق من قول ابن العربي المالكي، في أعلاها، يعني في أعلى الصخرة من جهة الجنوب قدم النبي، ومعلوم الآن أنّ موضع القدم أعلى من الصخرة، فهو في جانب منها مرتفع، وقد جعلوا على هذا المكان من الفضة على شكل الخزانة، له قبة صغيرة وباب بمصراعين، كل ذلك مصنوع من الفضة، ثم خافوا على ذلك من السارق فجعلوا على ذلك شبكة من النحاس الأصفر، لها باب بمصراعين أيضاً يفتح للزائرين، ففتحوه لنا والتمسنا من أثر ذلك القدم البركة، وضعوا فيه ماء الورد فأخذنا منه ووضعناه على وجوهنا، ودفعنا للخادم ما تيسر من الدراهم، كما هو عادتهم، ثم زرنا أيضاً قدم نبي الله إدريس، وهو في الجهة الشرقية ليس عليه قبة ولا شيء من ذلك، وقال الحلبي في سيرته: إن قدم النبي ﷺ أثّر في صخرة بيت المقدس حين ركب البراق"[1].

%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%B5%D9%84%D9%89-
%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-
%D8%B9%D9%84%D9%8A%D9%87-
%D9%88%D8%B3%D9%84%D9%85--%D9%81%D9%8A-
%D9%82%D8%A8%D8%A9-
%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%AE%D8%B1%D8%A9-
%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B4%D8%B1%D9%81%D8%A9\

(1) عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، *الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية*، ص. 0

"وقرأت في "تاريخ محبوب قسطنطين المنبجي" ؛ قال : مكتوب أن بعد ما خرج نوح من السفينة بزمان قبل أن سكن إبراهيم في أرض الموعِد، من بلاد الشام بنى "ملكزدق" [الأرجح، ملكيصادق ؛ راجع : تكوين 14 : 18] الحبر على قبر آدم بيت المقدس. وأن الله تبارك وتعالى خصه، وعرّفه، مكان قبر آدم عليه السلام"[1].

لابن الجوزي أكثر من عمل حول القدس والصخرة، لكن رواياته عموماً أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق التاريخية : "عن مكحول أيضاً (رض)، قال : من زار بيت المقدس شوقا إليه دخل الجنة مدللاً ورفادة جميع الأنبياء في الجنة وهبطوه بمنزلته عند الله عز وجل وإنما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس شيعهم عشرة آلاف ملك يستغفرون لهم ويصلّون عليهم ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاة بسبعين ملك، ومن دخل بيت المقدس طاهراً من الكبائر تلقاه بمائة رحمة ما بها رحمة إلا لو قسمت على جميع الخلائق لوسعتهم، ومن صلّى في بيت المقدس ركعتين خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وكان له بكل شعره في جسده حسنة، ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات مر على الصراط كالبرق الخاطف وأعطى أماناً من الفزع الأكبر يوم القيامة، ومن صلّى في بيت المقدس ست ركعات أعطى مائة دعوة مستجابة أدناها براءة من النار ووجبت له الجنة، ومن صلّى في بيت المقدس ثمان

(1) ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*، ص. 94.

ركعات كان رفيق إبراهيم الخليل ﷺ، ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات كان له مثل حسناتهم ودخل على كل مؤمن ومؤمنة سبعون مغفرة ذنوبهم كلها.

وعن محمد بن أبي شعيب قال: قلت لعثمان بن عطاء الخراساني ما يقول في بيت المقدس؟ قال: أنه فضل فيه فإن داود أسسه وسليمان عليهما السلام، بنائه مخلطة بالذهب لبنة ذهب ولبنة فضة، وليس فيها شبراً إلا وقد سجد له ملك أو نبي فلعل أن تنال جبهته جبهة ملك أو نبي.

وعن سفيان الثوري أنه سأله رجل بمكة فقال: يا أبا عبد الله ما تقول في الصلاة في هذه البلدة؟ قال: بمائة ألف صلاة. قال: ففي مسجد رسول الله ﷺ؟ قال: بخمسين ألف صلاة، قال: ففي بيت المقدس؟ قال: بأربعين ألف صلاة، قال: ففي دمشق؟ قال: بثلاثين ألف صلاة.

وعن ابن عباس (رض)، قال: من حج وصلّى في المدينة والمسجد الأقصى في عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

عن أم سلمة (رض)، قالت: قال رسول الله ﷺ: من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة. وفي رواية عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: من أحرم من بيت المقدس بحج أو عمرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته

أمه. وفي رواية: غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر. رواه أبو داود والقزويني.

وعن أم حكيم: من أهل بعمرة من بيت المقدس عدلت عشر غزوات مع رسول الله ﷺ.

وعن جابر بن عبد الله (رض) أن رجلاً قال: يا رسول الله: أي الخلق دخولاً الجنة؟ قال: الأنبياء؛ قال يا نبي الله: ثم من؟ قال: مؤذنوا المسجد الحرام. قال: يا نبي الله: ثم من؟ قال: مؤذنوا مسجدي هذا. قال يا رسول الله: ثم من؟ قال: سائر المؤذنون على قدر أعمالهم.

عن الحسن البصري قال: من تصدق في بيت المقدس بدرهم كان فداؤه من النار ومن تصدق برغيف كان كمن تصدق بجبال الأرض ذهباً. وعن مقاتل قال: من صام يوماً في بيت المقدس كان له براءة من النار. وقال السدي رحمه الله: إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس ويوافيان الموسم كل عام.

عن رافع أن عمر المزني (رض) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الصخرة من الجنة. وعن علي بن أبي طالب (رض) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيد البقاع بيت المقدس. وعن وهب قال: يقول الله تعالى: الصخرة بيت المقدس فيك جنتي وناري وفيك جزائي وعقابي فطوبى عن زارك. وعن عبادة بن الصامت قال: قال

رسول الله ﷺ : صخرة بيت المقدس على نخلة، والنخلة على نهر من أنهار الجنة، وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ينظمان سموطاً لأهل الجنة إلى يوم القيامة"[1].

وعن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ : الأنهار كلها والرياح من تحت صخرة بيت المقدس. وعن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله ﷺ لما أسرى به إلى بيت المقدس: أتاني جبريل عليه السلام إلى الصخرة فصليت ثم عرج بي إلى السماء.

وعن البحتري القاضي قال: تكره الصلاة في سبعة مواطن على ظهر الكعبة وعلى الصخرة وعلى طور سيناء وعلى الصفا والمروة وعلى الحمرة وعلى جبل عرفات.

وعن أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ، بدعوة إسرافيل من صخرة بيت المقدس حين ينفخ في الصور بأمر الله للبعث وبعد الموت.

وعن أبي سعيد الخدري (رض)، قال: قال رسول الله ﷺ : صليت ليلة أسرى بي إلى بيت المقدس غربي الصخرة"[2].

(1) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص. 4. راجع: ابن البديع الشيباني، *مكفرات الذنوب وموجبات الجنة*، 5؛ القابوني، *بشارة المحبوب بتكفير الذنوب*، 10؛ مثله أيضاً: شمس الدين الشامي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، 1289؛ *البداية والنهاية*، 937.

(2) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص. 4.

من المرجع ذاته، نقرأ: "قال المشرق بن المرجا: يستحب لمن دخل الصخرة أن يجعلها عن يمينه حتى يكون بخلاف الطواف حول البيت، ويضع يده ولا يقبلها ثم يدعو وأن أحب أن ينزل إلى تحت الصخرة فليفعل ولكن يجتهد في الدعاء ... ويكون ذلك تحت الصخرة، فإن الدعاء في ذلك الموضع مستجاب إن شاء الله تعالى"[1].

"وعن معاذ قال: قال الله تعالى: يا روشلم أنت صفوتي من بلادي وأنا سايق إليك صفوتي من عبادي من كان مولده بك فأختار عليك فنبذت بصبيه ومن كان مولده في غيرك وأختار على مولده فرحمة مني.

وفي الخبر المقدسي أيضاً: روشلم أنت مقدس بنورك وفيك محشر عبادي أذقك يوم القيامة كالعروس إلى خدرها ومن دخلك استغنى عن الزيت والقمح.

وعن معاذ قال: يقول الله تعالى لبيت المقدس: أنت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي من سكنك فترحمه مني، ومن خرج منك فسخط مني عليه؛ وعن ابن عباس قال: باب مفتوح من أبواب الجنة يخرج من خلاله من جنات الجنة فيسقط على مسجدها وجبالها وصخورها، وصخرة بيت المقدس من صخور الجنة.

---

(1) ص. 5.

وعن مقاتل: كل ليلة ينزل سبعون ألف ملك من السماء إلى الأرض إلى مسجد بيت المقدس يهللون الله ويسبحونه ويقدسونه ويحمدون الله لا يعودون إلى يوم القيامة.

وعن أنس بن مالك (رض) أنه قال: أن الجنة تحن شوقاً إلى صخرة بيت المقدس، وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس وهي صخرة الأرض السابقة.

وعن مقاتل إذ قال لعبد لصاحبه انطلق بنا إلى بيت المقدس يقول الله تعالى: "يا ملائكتي أشهدوا أني غفرت لهما قبل أن يخرجا هذا إذا كانا لا يعدان على الذنوب"[1].

"وعن مقاتل قال: أن الله تعالى تكفل لمن سكن بيت المقدس بالرزق إن فاته المال، ومن مات مقيماً محتسباً في بيت المقدس فكأنما مات في السماء، ومن مات حولها فكأنما مات فيها، وما نقص من الأرض زيد في بيت المقدس، والماء العذبة كلها تخرج من تحت صخرة بيت المقدس والأرض المقدسة التي قال الله تعالى: "التي باركَنا فِيها لِلعالَمِين"، هي أرض بيت المقدس فإن فيها ناري ونوري وتنوري: وأعطى الله تعالى البراق للنبي ﷺ فحمله إلى بيت المقدس، وأوصى آدم عليه السلام حين مات بأرض الهند أن يدفن في بيت المقدس

(1) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص. 7.

وأوصى إبراهيم إسحاق إذا ماتا أن يدفنا في أرض بيت المقدس، الأرض التي يرثها عبادي الصالحون هي بيت المقدس وقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا ﴾، هو بيت المقدس؛ وقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾، هي بيت المقدس وقرب نوح القربان على صخرة بيت المقدس، وقوله تعالى: "ادخُلوا الأرضَ المُقدَّسَة التِي كَتَبَ اللهُ لَكُم"، هي بيت المقدس، وقرب آدم القربان ببيت المقدس وشرد الله تعالى لداود الملك ببيت المقدس، وتقبل الله تعالى من امرأة عمران نذرها ببيت المقدس، ووهب لداود ملكه ببيت المقدس وحرة الأرض ببيت المقدس، وتخرب الأرض كلها إلا ببيت المقدس، ويحشر الله تعالى الأنبياء إلى بيت المقدس، وينفخ في الصور في بيت المقدس، وتصف الملائكة حول بيت المقدس، ويغفر الله تعالى لمن أتى بيت المقدس وتشجر النار في بيت المقدس وباب السماء مفتوح إلى بيت المقدس، وتطير أرواح المؤمنين إلى أجسادهم في بيت المقدس، وقال ﷺ: أن خيار أمتي هاجر هجرة بعد هجرة إلى بيت المقدس ومن توضأ وصلّى ركعتين أو أربعة فيه غفر له ما كان قبل ذلك ومن صلّى فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وكان له بكل شعرة مائة نور يوم القيامة عند الله تعالى وكان له حجة مبرورة متقبلة"[1].

---

(1) *السابق*، ص. 8.

في عمل آخر لابن الجوزي حول القدس، نقرأ: "في ذكر صلاة رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قال الزهري: لم يبعث الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقد صلّى إليها نبينا ﷺ. ... عن البراء، قال ﷺ: إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يتوجه إلى الكعبة. أخرجاه في الصحيحين. وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: وددت أن ربي عز وجل صرفني عن قبلة اليهود إلى قبلة آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب"[1].

"وعن عبد الملك الجزري أنه قال: إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية. وإذا كان الشام في بلاء وقحط كانت فلسطين في رخاء وعافية. وإذا كانت فلسطين في بلاء وقحط كان بيت المقدس في رخاء وعافية. وقال خالد بن معدان: "مقبور بيت المقدس لا يعذب". عن ابن عباس (رض)، قال صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة. وعن أبي هريرة (رض)، قال: قال رسول الله -ﷺ- لما أسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل عليه السلام إلى قبر إبراهيم ﷺ، وقال: انزلْ فصلّ ها هنا ركعتين فإن ها هُنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مرّ بي ببيت لحم، فقال: انزلْ فصلّ ها هنا ركعتين فانَّ ها هنا ولد

(1) ابن الجوزي، *فضائل القدس*، ص. 11

أخوك عيسى. ثم أتي بي إلى الصخرة فقال: من ها هُنا عرج أمر ربك إلى السماء، فألهمني الله عزّ وجلّ أن قُلتُ: نحن بموضع عرج منه أمر ربي فصليت بالنبيين، ثم عرج بي إلى السّماء"[1].

أخيراً، يقول عَبد الغَني بن اسمَاعيل النَابلسي: "صخرة بيت المقدس من عجايب الله تعالى فإنها صخرة شعثاء، في وسط المسجد الأقصى، قد انفصلت من كل جهة، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، في أعلاها من جهة الجنوب، قدم النبي ﷺ، وفي الجهة أصابع الملايكة التي أمسكتها لما مالت، ومن تحتها المغارة التي انفصلت الأخرى من كل جهة، فهي معلقة بين السماء والأرض، وامتنعتُ لهيبتِها أن ادخل من تحتها...

وأخذَ الإفرنج لبيت المقدس الأخذ الأول سنة 492، بعد دخول ابن العربي بسبع سنين فيُحتمل أن يكونوا هم الذين بنوا هذا البنيان، حول الصخرة وأخفوا هذه الآية الواضحة على شرف الإسلام، خصوصاً وقد بلغهم أنّ نبيّنا محمداً ﷺ، لما صعد إلى السماء ليلة المعراج صعدت الصخرة إلى السماء خلفه فأمسكتها الملايكة فوقفت بينَ السماء والأرض"[2].

---

(1) ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*، ص. 94.

(2) *الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية*، ص. 0

في تلك البيئة البعيدة عن المعرفة بمعناها الحقيقي، يبدو أن ثقافة الميثات اليهودية كانت المرجع المعرفي شبه الأوحد للعرب المسلمين في تلك الآونة. وكان أشهر هؤلاء ابن عبّاس، الذي اتُهم دائماً بأنه أكثر من أقحم "الإسرائيليات" في التراث الإسلامي. من ذلك قوله، على سبيل المثال: "صخرة بيت المقدس من صخور الجنة"[1]. "وعن ابن عباس قال: البيت المقدس بَنَته الأنبياءُ وسكنته الأنبياءُ ما فيه موضع شبر إلا وقد صلى فيه نبيٌ أو قام فيه ملك، وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: أيُ مسجد وُضع على وجه الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام؛ قلت: ثم أي؟ قال: البيت المقدس وبينهما أربعون سنة"[2].

"وعن قتادة في قوله تعالى: "يوم ينادي المناد من مكان قريب"؛ قال: من صخرة بيت المقدس"[3].

ابن الجوزي، في عمله المعروف باسم *تاريخ بيت المقدس*، يقدّم لنا كتلة روايات حول الصخرة، واضح أنها صياغة إسلامية لنصوص يهودية أقدم منها: "عن أبي هريرة (رض) عن النبي ﷺ: الأنهار كلها والرياح من تحت صخرة بيت المقدس.

---

(1) ابن الجوزي، *تاريخ بيت المقدس*، ص. 4.

(2) ياقوت الحموي، معجم *البلدان*، ص. 1635.

(3) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص.97.

وعن أبي هريرة (رض) ؛ قال: قال رسول الله ﷺ لما أسرى به إلى بيت المقدس: أتاني جبريل عليه السلام إلى الصخرة فصليت ثم عرج بي إلى السماء ... وعن البحتري القاضي ؛ قال: تكره الصلاة في سبعة مواطن على ظهر الكعبة وعلى الصخرة ... [يقول] الواحدي في قوله تعالى: (ثُم إذا دعاكُم دَعَوة مِن الأرض إذا أنتُم تخرُجُون): بدعوة إسرافيل من صخرة بيت المقدس حين ينفخ في الصور بأمر الله للبعث وبعد الموت."[1].

"وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء"[2].

"ومن مات مقيماً محتسباً في بيت المقدس فكأنما مات في السماء، ومن مات حولها فكأنما مات فيها...

...ورفع التابوت والسكينة من أرض بيت المقدس ... وينفخ إسرافيل في الصور ببيت المقدس على الصخرة ... وقرب نوح القربان على صخرة بيت المقدس... وتخرب الأرض كلها إلا ببيت المقدس... وتطير أرواح المؤمنين إلى أجسادهم في بيت المقدس"[3].

---

(1) *السابق*، 5.

(2) *السابق*، 6.

(3) *السابق*، 8.

في علم نشوء الكون كما رواه السيوطي، لا يمكن أن نخطئ أبداً في ملاحظة الأصل اليهودي: "إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء، لم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والإثنين، فخلق الأرض على الحوت، والحوت هو النون الذي ذكره تعالى في القرآن بقوله: (ن وَالْقَلَمِ)، والحوت في الماء، والماء على صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على الصخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان، ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض، فأرسل عليها الجبال فقرت، فالجبال تفخر على الأرض وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين: الثلاثاء والأربعاء ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين: الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾ قال: خلق في كل سماء خلقا من الملائكة، والخلق الذي فيها من البحار والجبال وجبل البرد، وما لا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحفظا يحفظ من

الشياطين"[1] ؛ ويضيف ابن شداد معلومة يهودية أخرى ؛ فيقول: "وتحت قبة الصخر مغارة الأرواح ، ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله فيها ، ويُنزَلُ في هذه أربع عشرة درجة"[2].

بالنسبة لبناء الصخرة ، يمكن القول إن المسلمين أخذوا أيضاً هنا رواياتهم عن أساطير اليهود: "... فأما البيتُ المقدَّسُ فان أول من بناه وأرى موضعه يعقوب ، وقيل داود على اختلاف من الناس ، وكان من بناه داود عليه السلام له إلى وقت تخريب بخت نصر إياه وانقطاع دولة بني إسرائيل أربعمائة سنة أربع وخمسون سنه ، فلم يزل خرابا إلى أن بناه ملك من ملوك طوائف الفرس يقال له كوشك"[3].

نص آخر ؛ يقول: "ويقال: إن أول من أسسه يعقوب عليه السلام بعد أن بنى الخليل المسجد الحرام بأربعين سنة ، كما جاء في "الصحيحين" ؛ ثم جدد بناءه سليمان بن داود عليهما السلام ... وسأل سليمان عليه السلام الله عند فراغه منه خلالاً ثلاثاً ، حكماً يصادف حكمه ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وأنه لا يأتي أحدٌ هذا المسجد لا ينهزه إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"[4].

---

(1) السيوطي ، *أسرار الكون* ، 4

(2) ابن شداد ، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة* ، 111.

(3) أبو عبيد البكري ، *المسالك والممالك* ، 125.

(4) *البداية والنهاية* ، 937.

ويضيف ابن كثير؛ فيقول: "وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله. وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو اسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء"[1].

يضيف ياقوت الحموي تفاصيل أسطورية أخرى: "كانت الصخرة أيام سليمان بن داود عليه السلام ارتفاعها اثنا عشر ذراعاً وكان الذراع ذراع الأمان ذراع وشبر وقبضَة وكانت عليها قبة من البلنجوج وهو العود المَندلي وارتفاع القُبة ثمانية عشر ميلاً وفوق القبة غزال من الذهب بين عينيه كرَّة حمراء يقعد نساءُ البلقاءِ ويغزلن في ضوئها ليلاً وهي على ثلاثة أيام منها وكان أهل عموَاس يستظلون بظل القبة إذا طلعت الشمس وإذا غربت استظل بها أهل بيت الرامة وغيرها من الغور بظلها هكذا وجدت هذا الخبر كما تراه مسنداً وفيه طول وهو أبعَدُ من السماءِ عن الحق والله المستعان"[2]. "أول شيء حُسر عنه بعد الطوفان صخرة بيت المقدس وفيه ينفخ في الصور يوم القيامة وعلى صخرته ينادي المنادي يوم القيامة.

---

(1) *البداية والنهاية*، 130.

(2) *معجم البلدان*، 378.

وأقربُ بقعة في الأرض من السماء البيت المقدس ويُمنع الدجال من دخولها ويهلك يأجوج ومأجوج دونها...

ونقرأ أيضاً: "وكان طول صخرة بيت المقدس في السماء اثني عشر ميلاً، وكان أهل أريحاء، يستظلون بظلها، وأهل عمواس مثل ذلك. وكان عليها ياقوتة حمراء تضئ لأهل البلقاء، وكان يغزل في ضوئها نساء أهل البلقاء"[1].

ثمة أقوال كثيرة لها ما يماثلها في الإسكاتالوجيا اليهودية، تربط بين الموت في منطقة المسجد الأقصى وعدم إمكانية الحساب في يوم القيامة: "... عن يزيد بن جابر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق 41]، قال: "يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول: "يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الخطاب". وروى ابن جرير وابن أبي حاتم والواسطي عن قتادة في الآية قال: "كنا نتحدث أنه ينادى من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض الثانية عشرة: روي أنه من دفن في بيت المقدس وفي فتنة القبر وسؤال المكلين ومن دفن في زيتون الملة [يعني بإيلياء] فكأنما دفن في السماء الدنيا... عن أبي

---

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، 992؛ ابن الأثير المؤرخ، *الكامل في التاريخ*، 2178.

هريرة (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء""[1].

وفي نص غيره: "وفي الأرض المقدسة تحشر الخلائق يوم العرض، ويبسط الله تعالى الصخرة الشريفة حتى تكون كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب"[2].

وفي نصوص أخرى: "من خرج إلى بيت المقدس بغير حاجة إلى الصلاة فيه فصلى فيه خمس صلوات صبحا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاء خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، وبه من أبى يزيد قال لما خلق الله بيت المقدس حزنت! فقال لها الرب جل جلاله: ما يحزنك، وقد سميتك من حبي باسمي، أنا المقدس وأنت المقدسة؟ قالت: ربي فإذا فعلت هذا فمن أتاني فصلى في فتقبل منه، ومن سكنني فأرزقه، ومن مات في فاغفر له وارحمه، فقال لها الرب: لك ما سألت!! وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: قد سال سليمان عليه السلام ربه أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ألا تصرف بصرك عنه ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه، وان تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فأعطاه الله ذلك"[3]؛ "وتواضعت الصخرة فشكرَ الله لها وقال هذا

(1) شمس الدين الشامي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، 1290.

(2) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، 94.

(3) البلوي، *تاج المفرق في تحلية علماء المشرق*، 48.

مقامي وموضع ميزاني وجنتي وناري ومحشر خلقي وأنا ديان يوم الدين"[1].

من أغرب الأحاديث ذلك الوارد في السيرة الحلبية، حول عروج النبي من عند قبة المعراج؛ لأنها ببساطة لم تكن موجودة وقتها: "عرج به من عند القبة التى يقال لها قبة المعراج من عند يمين الصخرة؛ وقد جاء صخرة بيت المقدس من صخور الجنة وفى لفظ سيدة الصخور صخرة بيت المقدس وجاء صخرة بيت المقدس على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنة وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ينظمان سموط أهل الجنة إلى يوم القيامة ... أبو بكر بن العربي: ... صخرة بيت المقدس من عجائب الله تعالى فإنها صخرة قائمة شعثاء في وسط المسجد الأقصى قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه في أعلاها من جهة الجنوب قدم النبي ﷺ حين ركب البراق وقد مالت من تلك الجهة لهيبته ﷺ وفى الجهة الأخرى أصابع الملائكة التي أمسكتها لما مالت ومن تحتها المغارة التي انفصلت من كل جهة"[2].

(1) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، 1636.

(2) نور الدين الحلبي، *السيرة الحلبية*، 347.

يبدو أن المسلمين أخذوا عن اليهود أيضاً فكرة أن الصخرة مركز المسجد الأقصى، وشبهوا ذلك بالحجر الأسود والمسجد الحرام: "أن الصخرة في المسجد الأقصى كالحجر الأسود في المسجد الحرام"[1].

عمر بن الخطّاب: الصخرة وكعب!

الحقيقة أن الصخرة غير مذكورة في القرآن؛ وأنّ أول تماس بين الإسلام كمؤسسة حكم والصخرة كان في زمن عمر بن الخطاب على يد اليهودي الذي ادعى الإسلام، كعب الأحبار. فما هي تفاصيل هذه القصة؟

لقد سبق وأوردنا ما ذكرته *الموسوعة اليهودية* حول كعب والصخرة وعمر بن الخطّاب؛ ونضيف هنا ما تقوله "*موسوعة الإسلام*، النسخة الانكليزية": إن كعب الأحبار "جاء إلى المدينة أثناء خلافة عمر بن الخطاب، ثم رافقه إلى القدس عام 636 م (الطبري 2408/1). وبعد تحوله (إلى الإسلام) صار على علاقة وطيدة بالخليفة، حيث تنبأ له بموته قبل ثلاثة أيام. حاول معاوية جذبه إلى دمشق ليكون مستشاراً له، لكن يبدو أنه انسحب إلى حمص حيث مات (طبري 2473/3). اتهم عمر كعباً بالتهود حين تعامل مع جبل الهيكل في القدس كمكان مقدس (طبري 2408/1 - 2409)"[2].

---

(1) شمس الدين الشامي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، 1290.
(2) *E. of Islam.*

لكن ما الذي يقوله الكتّاب العرب المسلمون المعاصرون عن كعب الأحبار؟

يقول أحمد أمين، على سبيل المثال: "كعب الأحبار، أو كعب بن ماتع، يهودي من اليمن، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المدينة ثم إلى الشام، وقد أخذها عنه اثنان، هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس – وهذا يعلل ما في تفسيره من اسرائيليات – وأبو هريرة... كل تعاليمه كانت شفوية، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها. جاء في *الطبقات الكبرى* (7 : 79) حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن عبد القيس جالساً إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ. وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقاة كابن قتيبة والنووي لا يروي عنه أبداً... ويروي ابن جرير أنه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام، وقال له: اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام. قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة. قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟! قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك وهذه القصة، إن صحت، دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية"[1].

---

(1) *فجر الإسلام* 160 - 161.

روى الطبري أن عمر بن الخطاب، حين دخل القدس، قال أحد اليهود: "أتاك الفاروق[1] في جندي المطيع، ويدركون لأهلك بثأرك من الروم"[2].

ويكمل الطبري: "لما شخص عمر إلى إيلياء (القدس)، فدنا من باب المسجد، فقال: ارقبوا لي كعباً!

فلما انفرق به الباب، قال: لبيك اللهم لبيك، بما هو أحب إليك!

---

(1) إن لقب الفاروق الذي اشتهر به عمر، يثير إشكالات عديدة: فمن أطلق عليه هذا اللقب، وماذا يعني أصلاً؟ إن سياق النص السابق، يظهر دون لبس، أن يهوديين على الأقل، قالا حين دخل عمر القدس: "أتاك الفاروق في جندي المطيع! ابشري أوري شلم! أتاك الفاروق بنفيك مما فيك". ويخبرنا ابن كثير أن لقب الفاروق، برأي عائشة، أطلقه النبي على عمر! لكنه يضيف، "بل سماه أهل الكتاب" (*الكامل* 53/3)؛ ويورد الطبري (*تاريخ* 195/4 - 196) رواية عائشة المذكورة آنفاً، لكنه يقول، "إن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر: الفاروق. وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم ولم يبلغنا أن رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئاً". مع ذلك، فكثير من المصادر المعاصرة تغفل تماماً الرواية الثانية، وتركز على رواية عائشة فحسب. لكننا نتساءل: كيف عرف ذلك اليهودي الذي دخل عمر مدينته، أن لقب هذا الفاتح هو "الفاروق"؟ وأين - ومتى - سمى النبي عمر بالفاروق، "كمفرّق" بين الكفر والإيمان؟ إن "فاروق" بالعبرية، من (פרק فارق)، وتعني: "حرر، خلص، أنقذ، أعتق"، واليهود، كما رأينا اعتبروا عمر "محرر القدس ومعتقها ومنقذها".

(2) *الطبري* 612/3.

ثم قصد المحراب، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً، فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذن بالإقامة، فتقدم وصلى بالناس، وقرأ بهم "ص"، وسجد فيها، ثم قام، وقرأ بهم في الثانية صدر "بني إسرائيل" (الإسراء)، ثم ركع ثم انصرف، فقال: عليّ بكعب.

فأُتي به، فقال (عمر): أين ترى أن نجعل المصلى؟

فقال: إلى الصخرة!

فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك!

فقال: أحببت أن أباشره بقدمي.

فقال: قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك، فإننا لم نؤمر بالصخرة، ولكن بالكعبة".[1]

يكمل الطبري، فيقول: "ثم قام (عمر) من مصلاه إلى كناسة قد كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل؛ فلما سار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها، وقال: يا أيها الناس! اصنعوا كما أصنع!

---

(1) تاريخ الطبري 611/3.

وجثا في أصلها (...) فسمع التكبير خلفه، وكان يكره سوء الرّعة في كل شيء، فقال: ما هذا؟

فقال (بعضهم): كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره!

فقال: عليّ به!

فأُتي به، فقال (كعب): يا أمير المؤمنين، إنه قد تنبأ على ما صنعت الروم نبي منذ خمسمئة سنة!

فقال (عمر): وكيف؟

فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم، فدفنوه، ثم أديلوا عليهم، فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني اسرائيل، ثم أديلوا الروم عليهم إلى أن وليت، فبعث الله نبياً على الكناسة، فقال: أبشري أوري شلم (القدس)! عليك الفاروق ينقيك مما فيك؛ ويبعث إلى القسطنطينية نبي، فقال: يا قسطنطينية! ما فعل أهلك ببيتي! أخربوه وشبهوك كعرشي! وتأولوا علي! فقد قضيت أن أجعلك جلحاء (خالية من الشجر) يوماً ما، لا يأتي إليك أحد[1].

لابد أن نذكر أخيراً، أن ألد أعداء اليهود، كانوا: الرومان والفرس[2]، ومعروف أن عمر بن الخطاب، الذي ارتبط بكعب بعلاقة

---

(1) *تاريخ الطبري* 612/3.

(2) انظر: *التلمود البابلي*، ترجمة نبيل فياض، الفصل الأول.

"استشارية"، هز عرشي هاتين الإمبراطوريتين: فهل يمكن أن نربط بين المسألتين، خاصة وأن الكثير من خفايا التاريخ الإسلامي ما تزال غامضة؟ ولماذا قرأ عمر في صلاته مقاطع من سورتي (ص) و(الإسراء) في بيت المقدس، على وجه التحديد؟

يعرض ابن كثير الموضوع ذاته بإضافات أخرى، فيقول: "إن عمر حين دخل بيت المقدس سأل كعب الأحبار عن مكان الصخرة، فقال: يا أمير المؤمنين: اذرع من وادي جهنم كذا وكذا ذراعاً فهي ثم.

فذرعوا فوجدوها وقد اتخذها النصارى مزبلة، والغرض أنهم اتخذوا مكان قبلة اليهود مزبلة. استشار عمر كعباً أين يضع المسجد، فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة، فضربه في صدره، وقال: يا ابن أم كعب، ضارعت اليهود!

وأمر ببنائه في مقدم بيت القدس"[1].

"عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب (رض) يقول لكعب (رض): أين ترى أن أصلي إن أحدث عني صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر: ضاهيت اليهودية لا، ولكن أصلي حيث صلى النبي ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى ثم جاء فبسط رداءه فكنس الكناسة في ردائه وكنس الناس"[2].

---

(1) تاريخ الطبري 612/3.

(2) المتقي الهندي، كنز العمال، ص. 2110

يؤكد ابن اسحق في سيرته ما سبق: "سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ الْخَطَّاب يَقُولُ لِكَعْبٍ: أَيْنَ تَرَى أَنْ أُصَلِّي؟ فَقَالَ: إنْ أَخَذْتَ عَنِّي صَلَّيْت خَلْفَ الصَّخْرَة فَكَانَتْ الْقُدْس كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْك؛ فَقَالَ عُمَر (رض): ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ وَلَكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُول اللَّه ﷺ؛ فَتَقَدَّمَ إلى الْقِبْلَة فَصَلَّى؛ ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ وَكَنَسَ الْكُنَاسَة فِي رِدَائِهِ وَكَنَسَ النَّاس؛ فَلَمْ يُعَظِّم الصَّخْرَة تَعْظِيمًا يُصَلِّي وَرَاءَهَا وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا أَشَارَ كَعْبُ الْأَحْبَار؛ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَهَا حَتَّى جَعَلُوهَا قِبْلَتَهُمْ؛ وَلَكِنْ مَنَّ اللَّه عَلَيْهِ بِالإِسْلَامِ فَهُدِيَ إلى الْحَقّ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أَشَارَ بِذَلِكَ؛ قَالَ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَر: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّة؛ وَلَمَّا أَهَانَهَا إهَانَة النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا قَدْ جَعَلُوهَا مَزْبَلَة مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا قِبْلَة الْيَهُود؛ وَلَكِنْ أَمَاطَ عَنْهَا الْأَذَى وَكَنَسَ عَنْهَا الْكُنَاسَة بِرِدَائِهِ"[1].

"وعن سعيد بن عبد العزيز قال: "لما فتح عمر بن الخطاب (رض) بيت المقدس وجد على الصخرة زبلاً كثيراً مما طرحه الروم غيظاً لبني إسرائيل، فبسط عُمر رداءه، وجعل يكنس ذلك الزبل، وجعل المسلمون يكنسون معه.

(1) سيرة ابن إسحاق، 104 ؛ أنظر: "عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب (رض) يقول لكعب (رض): أين ترى أن أصلي إن أخذت عني صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر: ضاهيت اليهودية لا، ولكن أصلي حيث صلى النبي ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى ثم جاء فبسط رداءه فكنس الكناسة في ردائه وكنس الناس". (المتقي الهندي، *كنز العمال*، ص. 2110).

وعن شيخ من ولد شدّاد بن أوس عن أبيه عن جده قال: فتقدّم عمر (رض) حتى ملأ أسفل ثوبه من المزبلة التي كانت في بيت المقدس، فحمل وحملنا في ثيابنا مثل ما حمل حتى ألقيناه في الوادي"[1].

الحقيقة أن كعباً لم يكن يعرف التفاصيل الجغرافية للمكان: كيف عرفها؟ "رُويَ أن كعبا قدم إيليا فَرَشَا "حبراً" من أحبار يهود بضعة عشر ديناراً على أن دله على الصخرة التي قام عليها سليمان بن داود لما فرغ من بناء المسجد. وصلّى مما يلي ناحية باب أسباط. فقال كعب: قام سليمان بن داود على هذه الصخرة ثم استقبل بيت المقدس كله"[2].

ويؤكّد مرجع آخر: "أن كعباً قدم إيلياء مرةً فرشى من أحبار يهود بضعة عشر ديناراً، على أن دله على الصخرة التي قام عليها سليمان ابن داود التي قام عليها حين فرغ من بناء المسجد، وهي مما يلي ناحية الأسباط، فقال كعب: قام سليمان ابن داود على هذه الصخرة، ثم استقبل القدس كله ودعا الله عز وجل بثلاث، فأراه الله عز وجل تعجيل إجابته في دعوتين، وأرجو أن يستجيب في الآخرة. فقال: اللهم هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب، فأعطاه الله

---

(1) ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*، ص. 94.

(2) فضل الله العمر، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*، 41.

عز وجل ذلك، وقال: اللهم هب لي ملكاً وحكماً يوافق حكمك. ففعل الله عز وجل ذلك به، ثم قال: اللهم لا يأت هذا المسجد أحد يريد الصلاة فيه إلا أخرجته من خطيئته كيوم ولدته أمه"[1].

عند محمد بن عبد المنعم الحميري، نجد بعض تفاصيل أخرى هامة: "وسخر عمر (رض) أنباط أهل فلسطين في كنس بيت المقدس، وكانت فيه مزبلة عظيمة، وجاء عمر (رض) ومعه كعب فقال: يا أبا إسحاق أتعرف موضع الصخرة؟ فقال: اذرع من الحائط الذي يلي موضع كذا، كذا وكذا ذراعاً ثم احفر فإنك تجدها، قال: وهي يومئذ مزبلة، فحفروا فظهرت، فقال عمر (رض) لكعب: أين ترى أن نجعل قبلة المسجد؟ قال: اجعلها خلف الصخرة فتجمع القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد صلى الله عليهما وسلم، قال: ضاهيت اليهود يا أبا إسحاق، خير المساجد مقدمها. قال: فبنى القبلة في مقدم المسجد، ثم بنى عبد الملك بن مروان مسجد بيت المقدس سنة سبعين، وحمل إلى بنيانه خراج مصر سبع سنين، وبنى القبة على الصخرة"[2].

---

(1) ابن الجوزي، *فضائل القدس*، ص. 16 : "أن كعباً قدم إيلياء مرةً فرشى من أحبار يهود بضعة عشر ديناراً، على أن دله على الصخرة التي قام عليها سليمان ابن داود التي قام عليها حين فرغ من بناء المسجد، وهي مما يلي ناحية الأسباط" (*فضائل القدس* لابن الجوزي، ص. 16).

(2) محمد بن عبد المنعم الحميري، *الروض المعطار في خبر الأقطار*، 71.

يقدّم لنا أبو عبيد البكري تفاصيل أخرى: "ثم تغلبت ملوك غسان على الشام بتمليك ملوك الروم لهم ودخولهم في نصرانيتهم إلى أن جاء الله بالإسلام، وملك الشام منهم جبلة بن الأيهم، ففتح الله الشام على المسلمين زمن عمر بن الخطاب (رض) وكان أبو عبيدة قد كتب إلى بطارقة إيليا يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية فانتووا عليه، فنزل عليهم وحاصرهم حصاراً شديداً، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح على الجزية، فأجابهم إلى ذلك. قالوا: فأرسل إلى خليفتك عمر فيكون هو الذي يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان فانا لا نرضى إلا به، فاستوثق منهم أبو عبيدة بالأيمان المغلطة إن قدم أمير المؤمنين فأعطاهم الأمان ليقبلوا ذلك منه، وخاطب عمر (رض) بما دعوا إليه وباستيثاقه منهم، قال: ثم سار عمر. فخرج إليه أبو الجعيد فصالحه، وكتب لهم عمر كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم وكنائسهم واشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها. فلما قبضوا كتاب الصلح فتحوا للمسلمين أبواب إيليا، فدخل عمر (رض) والمسلمون معه، وسخر عمر (رض) أنباط أهل فلسطين في كنس بيت المقدس وكانت فيه مزبلة عظيمة.

وجاء عمر ومعه كعب فقال: يا أبا إسحاق أتعرف موضع الصخرة؟ فقال: اذرع من الحائط الذي يلي وأدي جهنم كذا وكذا ذراعا ثم احضر فانك تجدها. قال: وهي يومئذ مزبلة، قال فحفروا فظهرت، فقال عمر لكعب: أين ترى أن نجعل قبلة المسجد. قال:

اجعلها خلف الصخرة فتجمع القبلتين قبلة موسى وقبلة محمد (ﷺ). قال: يا أبا إسحاق: ضاهيت اليهود، خير المساجد مقدمها. قال: فبنى القبلة في مقدم المسجد"[1].

نص أخير هام للغاية يقول إن عمر "سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء.

ويقال: إنه لبى حين دخل بيت المقدس، فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الأولى بسورة ص، وسجد فيها والمسلمون معه، وفي الثانية بسورة بني إسرائيل، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، فأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه، فقال: ضاهيت اليهودية، ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس وهو العمري اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه في ذلك وسخّر أهل الأردن في نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة لأنها قبلة اليهود، حتى أن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها من داخل الحوز لتلقى في الصخرة، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب، فجعلوا يلقون على قبره القمامة فلأجل ذلك سمي ذلك

---

(1) أبو عبيد البكري، *المسالك والممالك*، 125.

الموضع القمامة، وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك.

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي وهو بإيلياء وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكناسة على الصخرة حتى وصلت إلى محراب داود، قال لهم: إنكم لخليق أن تقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد كما قتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا، ثم أمروا بإزالتها، فشرعوا في ذلك فما أزالوا ثلثها حتى فتحها المسلمون، فأزالها عمر بن الخطاب"[1].

ونقرأ أيضاً: "وأمَرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة، وبني مكانها كنيسة هايلة مزخرفة بأنواع الزينة، وهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كانت من قبل، ويسمُّونها القيامة، يعنون التي يقوم حينئذٍ المسيح منها، ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناستها وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فكنَس عنها القمامة بردائه وطهّرها من الأجناث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراها، ولكن أمامها حيث صلّى النبي ﷺ ليلة الإسراء، بالأنبياء، وهو الأقصى انتهى. فعلى ما ذُكر هنا يكون اسم

(1) *البداية والنهاية*، 2688.

الكنيسة بالقمامة، باعتبار أنها كانت من قبل ذلك تلقي اليهود قماماتهم فيها"[1]. ثم يضيف *المرجع السابق* ذاته: "وقال الحنبلي: لما فرغ عمر، وعزّل الصخرة من القمامة، وأبقى النصارى على حالهم بأداء الجزية، فسمى المسلمون كنيسة النصارى العظمى عندهم قمامة تشبيهاً بالمزبلة وتعظيماً للصخرة الشريفة انتهى. وقال المسعودي في تاريخه مروج الذهب، وذكر ابن كثير في تاريخه بعد ترجمة عيسى عليه السلام، وذكر صلب اليهود لذلك الرجل المشبّه بعيسى، وأنهم جعلوا مكانه قمامة لهم، قال: ومن ثم اتخذوا الصلبانات وقبلوها".

هنا نطرح المعطيات التالية:

1 - لم يشارك كعب الأحبار في أي من معارك المسلمين، سوى ذهابه مع عمر بن الخطاب، لتسلم القدس "سلمياً"؛ 2 - شك عمر الدائم بكعب الأحبار، باعتباره يهودياً: الطلب بمراقبة كعب بعد دخول القدس؛ قوله لكعب: ضاهيت اليهودية؛ قوله له أيضاً: خلعت النعل، وهي عادة يهودية عند دخول مكان مقدس عندهم؛ 3 - اكتفاء عمر بن الخطاب، وهو المعروف بالصرامة وبدرته الشهيرة، بتعنيف كعب شفوياً، رغم محاولة الأخير تغيير قبلة المسلمين إلى القدس - هيكل سليمان؛ 4 - تكبير كعب حين نظف عمر مكان الهيكل، وكان المسيحيون في القدس قد حولوه إلى مزبلة؛

(1) عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، *الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية*، ص.

5 - رغم شك عمر الواضح في تصرفات كعب اليهودية التي لا لبس فيها، فهو اختار أن يسأله عن موضع الصخرة "ويستشيره" في شأن بناء المسجد، مسجد عمر؛ 6 – قول ابن اسحاق، وهو هام جداً، إن عمر لَمْ يُعَظِّم الصَّخْرَة تَعْظِيمًا يُصَلِّي وَرَاءَهَا؛ وإن كعباً مِنْ قَوْم يُعَظِّمُونَهَا حَتَّى جَعَلُوهَا قِبْلَتهمْ. والسؤال: كيف استطاع كعب أن يكون له هذا الدور في عهد عمر، وهو الرجل الأقوى في زمانه؟ لقد استطاع كعب، بذكائه الحاد وثقافته اليهودية العميقة، أن يلبي غرور عمر عن طريق اختلاق أحاديث عن أنبياء يهود تنبأوا بأن "الفاروق سينقي أوري شلم مما هو فيها". لكن كل من له معرفة كافية بالشرعين اليهوديين، المكتوب والشفوي، تنفي تماماً حكايات كعب المختلقة تلك. مثلاً: إرسال نبي إلى القدس ليخبرها بمجيء عمر! تنبؤ نبي على ما صنعت الروم قبل خمسمئة سنة من وصول عمر إلى القدس! إرسال نبي إلى القسطنطينية، ينذرها بأن الله سيجعلها جلحاء، الأمر الذي لم يحدث حتى الآن. لقد استغل كعب جهل العرب بثقافات الآخرين فكان يختلق من الأخبار والأحاديث، وينسبها إلى كتب اليهود المقدسة، دون أدنى دليل - وكانوا يصدقونه، لأنه لا يوجد فيهم من اطلع، أو بشكل أدق، سمح له بالاطلاع، على تلك الكتب[1].

(1) يقول المتقي الهندي في *كنز العمال*، ص. 96، "عن ميمون بن مهران قال: أتى عمر بن الخطاب رجل، فقال: يا أمير المؤمنين إنا فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب؛ قال: أمن كتاب الله؟ قلت: لا، فدعا بالدرة فجعل يضربه بها، وقرأ "آلر
==

تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربياً" إلى قوله "وإن كنت من قبله لمن الغافلين". ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم بأنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم. نصر. وعن إبراهيم النخعي قال: كان بالكوفة رجل يطلب كتب دانيال وذلك الضربة فجاء فيه كتاب من عمر بن الخطاب أن يرفع إليه، فلما قدم على عمر علاه بالدرة ثم جعل يقرأ عليه: "الر تلك آيات الكتاب المبين" حتى بلغ الغافلين. قال: فعرفت ما يريد؛ فقلت: يا أمير المؤمنين دعني فوالله لا أدع عندي من تلك الكتب إلا أحرقته، فتركه". – الحديث السابق يلخص عقلية عمر بن الخطاب في مواجهة الثقافات الأخرى.

من الكتب الهامة والنادرة بموضوعها ما قدمه لنا لوسيان بولاسترون تحت عنوان "كتب تحترق"، والذي يرصد فيه تاريخ تدمير المكتبات الكبرى في العالم القديم والوسيط والمعاصر. ومن أهم ما أشار إليه هذا العمل أمر عمر بن الخطاب عام 637 بتدمير مدينة المدائن العاصمة القديمة للساسانيين ومدينة جند يسابور (ص93) بما كان فيهما من مكتبات وآثار. نقرأ لمصطفى بن عبد الله فى كتابه *كشف الظنون* 446/1: "أن المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم، كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شانها؛ فكتب إليه عمر بن الخطاب: أن اطرحوها في الماء، فان يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه، وان يكن ضلالاً فقد كفانا الله تعالى. فطرحوها في الماء وفى النار فذهبت علوم الفرس فيها"؛ وقال أيضاً في كتابه *كشف الظنون* 25/1 في أثناء كلامه عن أهل الإسلام وعلومهم: "أنهم أحرقوا ما وجدوا من كتب في فتوحات البلاد". ويقول ابن خلدون: "ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة كتب سعد ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله؛ فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا". (*تاريخ ابن خلدون* - ابن خلدون - ج 1 - الصفحة 480).
==

مكتبة الإسكندرية الملكية هي أول وأعظم مكتبة عرفت في التاريخ وظلت أكبر مكتبات عصرها، أنشأت مكتبة الإسكندرية على يد خلفاء الإسكندر الأكبر منذ أكثر من ألفي عام لتضم أكبر مجموعة من الكتب في العالم القديم والتي وصل عددها آنذاك إلى 700 ألف مجلد بما في ذلك أعمال هوميروس ومكتبة أرسطو. أمر بطليموس الأول بإنشائها 330 قبل الميلاد وتم الانفاق عليها ببذخ في عهد بطليموس الثاني حيث قام بتوسعتها وإضافة ملحقات لها، احتوت المكتبة علي عدد هائل من الكتب والمخطوطات بلغ الـ 700.000 مجلد. وفي عام 48 ق.م قام يوليوس قيصر بحرق 101 سفينة كانت موجودة علي شاطئ البحر المتوسط أمام مكتبة الإسكندرية بعدما حاصره بطليموس الصغير شقيق كليوباترا بعدما شعر أن يوليوس قيصر يناصر كليوباترا عليه، وامتدت نيران حرق السفن إلي مكتبة الإسكندرية فأحرقتها حيث يعتقد بعض المؤرخون أنها دمرت.

استطاع الأقباط في ظل الحكم الروماني أن يجددوها المكتبة هذه فنقلوا مكتبة برغاموس كي تكون نواة للمكتبة الجديدة ثم أضافوا إليها. وبمضي السنين صارت أكبر من المكتبة الأولى وفاقت شهرتها الآفاق واحتلت مركز الصدارة في العالم وأصبحت الإسكندرية هدفاً لكل طالب علم ومركزاً لحضارة العالم إلى أن أحرقها العرب المسلمون. وصارت مكتبة الإسكندرية خبراً في كتب التاريخ واحترقت معها حضارة مصر. ولم يستطع الأقباط أن يعيدوا مكتبة الإسكندرية إلى سابق مجدها وهم تحت الحكم العربي، لأن العلم والحضارة لم يكونا من أهداف العرب.

وحاول بعض الباحثين وكتاب التاريخ العرب المحدثين من التنصل من هذه الحقيقة وإنكارها إلا أنّ المستشرق جاستون فييت، قال: "إن عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة 629 هجريه 1230 م كتب يصف عمود السواري، فقال: إنه الأثر الوحيد الباقي من ذلك البناء الفخم الذي علّم فيه أرسطاطاليس وتلاميذه من بعده، ثم أضاف هذا الطبيب البغدادي: وهناك كانت تقوم المكتبة التي حرقها عمرو بن العاص بأمر عمر". وقال المقريزي في كتابه *المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار*، طبع بولاق 1272هجريه، ج1، ص159: "فكتب الخليفة عمر بن الخطاب كتاباً إليه قائلاً: "إذا كانت هذه الكتب لا تحتوى على شيء غير المسطور ==

في القرآن فهي كعدمها. وإذا كانت هذه الكتب تنافى ما جاء بالقرآن فهي ضاره ومؤذيه لا يجب حفظها". كما يؤكد ابن خلدون في "مقدمته" "أن العرب قد ألقوا في الماء والنار جميع كتب الفرس". بالنسبة لوجود مكتبه الإسكندرية قبل الغزو العربي، هنالك نقش يخص تيبريوس كلاوديوس بالبيلوس (مؤرخ في 56 بعد الميلاد) والذي يسجل "أن مكتبة الإسكندرية كانت متواجدة بشكل ما في القرن الأول الميلادي". "Forschungen in Ephesos", Vol. III, Vienna 1923, p.128. كما ذكر المؤرخون بسوزومين وثيودوريت وروفينوس أنهم شاهدوا المكتبة في القرن الرابع للميلاد ؛ أما افتونيوس المؤرخ، فقال: "وهذه مكتبه السيرابيوم المفتوحة للجمهور نهاراً هي للمدينة كلّها، دعوة مستمرة للاستقاء من مناهل الحكمة". أما الانبا كيرلس مقار فقد ذكر أن شابا اسمه بول أوروز، وهو إسباني، رأى مكتبه السيرابيوم (بالإسكندرية)، وذكر أيضاً أن أمونيوس الفيلسوف السكندري الذي كتب مؤلفات في السنوات الأخيرة من القرن السادس وصف مكتبه الإسكندرية وذكر أنها تحتوي في هذا الوقت على 40 نسخة من "التحاليل الفلسفية" - ونسختين من "المصنفات"، وهما من تأليف الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس ؛ وكان أمونيوس هذا معلما ليوحنا الغراماطيقي، الملقب بفيليبونس. وبحسب الرواية التي تتهم المسلمين بحرق المكتبة، فإنه بعد دخول العرب للإسكندرية في 22 كانون الأول ديسمبر عام 640 م. وتدمير أسوار المدينة، حدث أن تعرف عمرو بن العاص على عالم لاهوت مسيحي طاعن في السن يدعى يوحنا فيلوبونوس John Philoponus (تلميذ الفيلسوف السكندري امونيوس السابق ذكره، وهو معروف لدى العرب باسم يحيى النحوي، وقد ساهمت كتاباته إلى حد كبير في نقل الثقافة الإغريقية للعرب). وبعد العديد من الجدالات الدينية بين يوحنا وعمرو بخصوص التثليث والتوحيد وألوهية السيد المسيح طلب يوحنا من عمرو الحفاظ على الكتب الموجودة في مكتبة الإسكندرية لأن، حسب قول يوحنا، "بخلاف مخازن وقصور وحدائق المدينة، فإن تلك الكتب ليست ذات فائدة لعمرو أو لرجاله". حينئذ استغرب عمرو وسأل عن أصل تلك الكتب وفائدتها، فسرد له يوحنا قصة مكتبة الإسكندرية منذ تأسيسها على يد بطليموس الثاني. لكن عمرو بن العاص رد عليه قائلاً إنه ليس بإمكانه التصرف دون أخذ مشورة عمر بن
==

الخطاب. فكتب ابن العاص خطاباً لابن الخطاب يستشيره في أمر المكتبة والكتب. بينما كان يوحنا وعمرو في انتظار الرد، أذن الأخير ليوحنا بزيارة المكتبة برفقة تلميذه الطبيب اليهودي فيلاريتيس Philaretes (وهو مؤلف كتاب طبي عن النبض وهو الكتاب المنسوب خطأ ليوحنا فيلوبونوس). وبعد عدة أيام أتى رد عمر بن الخطاب والذي قرأه وترجمه عمرو بن العاص على مسمع كلا من يوحنا وفيلاريتيس، وفيه ما معناه: "...وإما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة بنا إليها". وهكذا أمر عمرو بن العاص بتوزيع الكتب على حمامات الإسكندرية لاستخدامها في إيقاد النيران التي تُبقي على دفء الحمامات. ويذكر المؤرخ المسلم القفطي في كتابه تراجم الحكماء أن إحراق تلك الكتب قد استمر لما يقارب الستة أشهر، وأن الكتب الوحيدة التي نجت من الحريق كانت بعض كتب الفيلسوف الإغريقي أرسطو وبعض كتابات اقليدس الرياضي وبطليموس الجغرافي. ورواية إحراق العرب لكتب مكتبة السيرابيوم ذكرها القفطي، وهو أقدم وأول من ذكرها على الإطلاق. كما يؤيد ابن خلدون في كتابه مقدمة ابن خلدون رواية إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية وذلك بالنظر لسلوك العرب في نفس العصر، ومن أمثلة ذلك السلوك إلقاء سعد بن أبي وقاص لكتب الفرس في الماء والنار، وذلك بناء على أمر عمر بن الخطاب الذي بعث لابن أبي وقاص قائلاً: "إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله باهدى منه وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله". راجع: *The Vanished Library* By Bernard Lewis.

ولهذا قال ابن خلدون فى تاريخه 32/1: "ولم يطلع عمر بن الخطاب على ما تحتويه المكتبات لهذا استندت هذه الخطابات على أسس خاطئة فكانت النتائج مدمره للعالم كله لأن مكتبه الإسكندرية كانت تحوى تسجيلاً كاملاً ودقيقاً لأسس حضارة العالم ومقوماته الفكرية والثقافية والعلمية وعند تدمير الأساس (السجل الحضاري) انهارت العلوم ورجعت البشرية قرونا من التخلف الحضاري". وينتهي ابن خلدون في *مقدمته*، الفصل السادس والعشرين، إلى القول: إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب والسبب في ذلك أنهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة".

من قتل عمر بن الخطاب؟

من المتعارف عليه عموماً أن قاتل عمر هو أبو لؤلؤة المجوسي. لكن كبار المؤرخين الإسلاميين أخبرونا أن كعب الأحبار جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام، وقال له: إعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام؛ أو: قد فني أجلك!

وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً. فقال عمر: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة!

قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟!

قال: اللهم لا! ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فني أجلك!

فلما كان من الغد، جاءه كعب، فقال: يا أمير المؤمنين! ذهب يوم وبقي يومان!

ثم جاءه من غد الغد، فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة؛ وهي لك إلى صبيحتها!

فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة؛ وكان يوكل بالصفوف رجالاً؛ فلما استوت جاء فكبّر. ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات، إحداهن تحت سرّته، وهي التي قتلته.

وقال عمر قبيل وفاته:

توعدني كعب ثلاثاً أعدها ... ولاشك أن القول ما قال لي كعب[1]

---

(1) انظر: *تاريخ الطبري* ط سويدان 191/4؛ *كامل* ابن الأثير 50/3؛ *طبقات* ابن سعد 331/3؛ *تاريخ الخلفاء* للسيوطي؛ *ابن كثير* 51/3.

المناقشة:

1 - قال الكاتب أحمد أمين، إن كعباً كان يقف «على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها في هذه الصيغة الإسرائيلية»[1]. لكن يبدو أن كعباً رتب المؤامرة بكاملها، بعدما انتهى عمر من تحرير فلسطين ومحيطها من الروم؛ 2 - عودة كعب هنا أيضاً إلى إرضاء غرور عمر، بقوله إنه موجود في «كتاب الله» التوراة؛ وتعجب - أو إعجاب - عمر من ذلك؛ 3 - ثقة كعب المطلقة بذاته وبسعة نفوذه، بحيث يأتي إلى عمر يومياً ليؤكد له موعد قتله؛ 4 - اختيار عمر «اللامبالاة» أمام تهديدات كعب، رغم أن أخباراً كثيرة أكدت شكوك عمر الدائمة بنوايا كعب؛ 5 - الغريب أن يخرج كعب من مأساة قتل عمر كالشعرة من العجين؛ لكن الأغرب أن يكون «حاضراً» في بلاط عثمان، خاصة وأن الجميع كانوا يعرفون حكايته في مقتل عمر: فهل يمكن أن يساعدنا ذلك في فهم جو الفوضى الذي عم أثناء خلافة عثمان بن عفّان؟

عمر بن الخطّاب: هل كان المخلّص - الفاروق؟

في كتابنا المطبوع عام 2015، *الإسلام المبكّر في أربعة نصوص يهودية*، ناقشنا ما ورد في بعض مدراشيم يهودية ترجع على الأرجح إلى بدايات الإسلام، خاصّة ما قيل عن الخليفة الثاني، عمر بن

(1) *فجر الإسلام* 161.

الخطّاب، الذي عُرف عنه أنه استولى على القدس، وأعاد الحضور اليهودي إليها؛ فاستحق من ثم اللقب "فاروق". برز ثمة اعتراض وقتها من الباحث برنارد لويس، لكننا استطعنا – مع باتريشيا كرونه – إقناعه بالدليل كما اعتقدنا. ومن نقاشنا لهذه المسألة، نستل النصّ التالي:

الملك الأول: البشير والنذير؟

إذا ما جمعنا شواهد من وثائق مختلفة، فسوف نصل إلى نتيجة صريحة مفادها، في اعتقادنا، أنّ المقصود بالملك الأول في *الصلاة* [النص المدراشي صلاة الحاخام شمعون بار يوحاي] هو نبي الإسلام، محمد. فهنالك نص هام للغاية يدعى *عقيدة يعقوب* *Doctrini Jacobi*[1]، وهو عبارة عن رسالة معادية لليهود سبّبها الإضطهاد الهرقلي، تأخذ شكل حوار بين اليهود عام 634؛ وربما أنها كتبت في فلسطين قبل ذلك الموعد أو بعده بقليل[2]. وفي إحدى النقاط من ذلك النص يشار إلى حوادث كانت تجري آنذاك في فلسطين، على شكل رسالة من يهودي فلسطيني، اسمه إبراهيم:

---

(1) تحرير ب. بونفتش Doctrina Jacobi noper baptizati، منشور في: *Abhandlongen der k niglichen Gesellschaft der Wissenschaft zu G ttingen*، المجلد xii، برلين 1910.

(2) أنظر: "F. Nau, "La Didasculie de Jacob، في *Patrologia Orientalis*، تحرير ر. غراف وف. ناو، باريس 1903، المجلد viii، ص‌ص 715 وما بعد.

"لقد ظهر نبيٌ كاذب* بين السرسنيين... إنّهم يقولون إن النبي الذي ظهر مقبل مع السرسنيين[1]، وهو يعلن عن قدوم advent المسوح الذي سيأتي tou erkhomenou Eleimmenou kei Khristou ... وأخبرني أولئك الذين التقوه: ليس ثمة حقيقة يمكن أن توجد عند النبي المزعوم سوى إراقة الدماء؛ أمّا ما يقوله حول امتلاكه لمفاتيح الجنة، فهو أمر غير قابل للتصديق".

ثلاثة أمور جديرة بالاهتمام في النص السابق:

أولاً: واقعة أنّ النبي كان على قيد الحياة حين غزا العرب المسلمون أرض فلسطين - واقعة تجد توثيقاً آخر لها مستقلاً في التقاليد التاريخية لليعاقبة، النساطرة، والسامريين. إنّ أقدم توثيق لذلك هو توثيق نص *Continuatio Byzantia Arabica* الذي يحفظ لنا في ترجمة لاتينية تاريخاً سريانياً يرجع إلى زمن هشام بن عبد الملك، وربما يكون من أصل يعقوبي أو ملكاني. وهذا المصدر يرى، أنّ السرسنيين غزوا أقاليم سوريا، شبه جزيرة العرب وبلاد مابين النهرين تحت قيادة

---

* نلاحظ هنا أن اليهود منذ القدم يشيرون إلى نبي الإسلام بالمصطلح "משגע مجنون". أنظر مثلاً: רשמה (לא שלמה) בספרו צול שטינשגירר: *Polemische u. apologetische Literature*، 302 - 303. أنظر أيضاً: رسالة ابن ميمون إلى اليمن، نيويورك، الأكاديمية الأميركية للبحوث اليهودية، 1952، ص xv.

(1) من أجل فهم معنى المصطلح؛ أنظر كتابنا المؤلف والمترجم: *ابراهيم في السرديات*.

ماهمت[1]. من الجانب اليعقوبي فإنّ أهمّ شهادة هي الرواية القديمة لأصول الإسلام التي حفظها لنا ميخائيل السرياني[2]؛ وإلى هذا يمكن أن نضيف مدوّنة سريانية مجهولة المؤلّف تعود إلى القرن الثامن[3].

ويبدو هذا واضحاً من الجانب النسطوري في شاهد متأخر من تاريخ سيئريد Si'ird العربي[4]. لكن تاريخاً سريانياً مكتوباً على الأرجح في حوزستان في العقد السابع من القرن السابع يمرّر على نحو إيحائي ذكر محمد كحاكم للعرب في خضم رواية الفتوحات[5]. أمّا من الجانب السامري، فلدينا شهادة تحرير عربي للتقليد ترجع إلى القرون الوسطى[6].

ثانياً: واقعة أنّ النبي كان يبشّر بالممسوح أو المسيح الذي سيأتي. وفي هذا نلمح أحد أشكال المسيانية اليهودية، وهو ما سنعالجه لاحقاً.

---

(1) أنظر: *Chronica Minora*، المجلد ii، برلين، 1894، ص ص 337، تحرير ت. مومسن.

(2) أنظر: *Chronique de Michel le Syrien*، باريس 1899 - 1810، المجلد الرابع، ص 405 = المجلد الثاني، ص 403 وما بعد، تحرير ج. ب. شابو.

(3) أنظر: Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, *Scriptores Syri*, third series, vol. iv. Louvain, 1903 - 7, pp. 348 = 274.

(4) أنظر: Histoire nestorienne، الجزء الثاني، في *Patrologia Orientalis*، المجلد xiii، ص 601، تحرير وترجمة A. Scher.

(5) أنظر: *Chronica Minora*، ص ص 30 = 20.

(6) أنظر: *Abulfathi Annales Samaritani*, Gotha 1863, p. 180، تحرير E. Vilmar.

ثالثاً: حديث النصّ السابق حول امتلاك النبي لمفاتيح الجنة يدعمه نصّ آخر متضمن في قَسَم بيزنطي بالتنكر للإسلام، يقول:

"إني ألعن عقيدة السرسنيين السرية ووعد موامد Moamed بأنه سيكون حارس بوابة kleidou khos الجنة"[1].

كما سبق ورأينا، فإن سفر *أسرار الحاخام شمعون بار يوحاي*، يقدّم وثيقة تاريخية هامة أخرى حول اعتبار النبي بشير المسيا؛ قد يبدو هذا غريباً بالطبع - أي أن يقبل اليهود بنبي عربي كبشير للمسيا - لكن كانت ثمة سابقة يهودية معروفة حول قيام أحد العرب بمثل هذا الدور[2].

الأسرار، كما تتفق الآراء الآن، يقوم على سفر رؤيوي أقدم منه، كتب مباشرة بعد الحوادث التي يشير إليها، وهو يقدم الغزو العربي الذي أنهى الحكم البيزنطي لفلسطين كحدث إيجابي في الدراما الإسكاتولوجية اليهودية - والموقف ذاته، كما رأينا، نلمحه في "في *ذلك اليوم*" [مدراش ترجمناه وقدمناه ضمن ذلك العمل] أيضاً. أما النص الذي يهمنا من *الأسرار* فهو التالي:

---

(1) E. Montet, Un rituel d'abjuration des Musulmans dans l'église grecque, *Revue de' l'histoire des Religions*, 1906, p. 151.

(2) أنظر: H. Gressmann, *Der Messias*, Gttingen, 1929, pp. 449 f.
نلاحظ أيضاً أن إيليا أحياناً كان يظهر بثوب عربي من الصحراء.

"حين رأى أنّ مملكة اسمعيل كانت قادمة، شرع يقول: ألم يكف ما فعلته بنا مملكة أدوم الشريرة، حتى تأتينا مملكة إسماعيل أيضاً؟ وللفور أجابه متاترون أمير التشجيع بقوله: لا تخف يا ابن الإنسان، فالقدّوس المبارك لا يأتي بمملكة إسماعيل إلا لتخلّصكم من هذا الشر. إنه بحسب إرادته يقيم عليهم نبياً وسوف يفتح لهم الأرض وسوف يأتون ويحيونها بعظمة، وسيكون هنالك خوف مريع بينهم وبين أبناء عيسو. أجاب الحبر شمعون قائلاً: كيف نعرف أنهم خلاصنا؟ أجاب: ألم يقل النبي إشعياء: "فيرى ركباً، أزواج فرسان، الخ؟"* ؛ لماذا جعل ركّاب الحمير قبل ركّاب الجمال، في حين لم يكن يحتاج إلاّ لأن يقول: ركّاب جمال وركّاب حمير؟ لكن حين يأتي راكب الجمل أولاً فالمملكة سوف تقوم على راكب أحد الحمير. ومن جديد نقول: ركّاب حمير، كونه يركب على حمار، تظهر أنهم خلاص إسرائيل، مثل الخلاص الذي يأتي به الراكب على أحد الحمير[1]".

---

* لابد أن نشير ايضاً إلى ما قاله ابن ميمون في رسالة إلى اليمن حول هذه الآية: "وكذلك اشعياء بين أن الدليل على مجيء المشيح هو قيام المجنون משגע ، وهو قوله "ركاب حمير وركاب جمال، أزواج فرسان" (21: 7)، يقول إن ركاب حمير الذي هو المشيح كقوله "وضيعاً وراكباً على حمار" (زك 9: 9) إنما يجيء بعقب ركاب جمال وهو ملك العرب". - النص من ترجمتنا الشخصية لرسالة ابن ميمون. راجع كتابنا: *الرسالة اليمنية*.

(1) نص *الأسرار* الذي لدينا باللغة العبرية، موجود في عمل المحرر أدولف يلنك، *بيت هامدراش*، القسم الثالث، لايبسغ، 1855، ص ص 78 - 82.

إذاً، *فالأسرار* يقدّم النبي العربي باعتباره بشير المسيا، ويدعم في ذلك وجهة نظر *عقيدة* يعقوب، الذي يأتي من خلفية عقائدية مختلفة.

إن الحديث عن عمق العلاقة - التعاون بين العرب المسلمين واليهود موجود في مصادر كثيرة. *فعقيدة* يعقوب يتحدّث مثلاً عن الاختلاط بين اليهود والسرسنيين[1]. كذلك فإن مكسيموس المعترف يتحدث في إحدى رسائله عن دور اليهود في ظهور المسيح الدجال[2]، وهو ما يوحي أيضاً بمعرفة من الجانب المسيحي بالشخصية المسيانية التي ميزت دخول العرب المسلمين إلى فلسطين. كذلك ففي *عقيدة* يعقوب نجد أنّ اليهودي الذي اعتنق المسيحية يقول إنه لن ينكر المسيح، ابن الله، حتى لو أمسك به اليهود والسرسنيون وقطعوه إرباً[3]. من ناحية أخرى، ففي *تاريخ سيبيوس* الأرمني (628 - 661)، والذي كما يقول، يعتمد على شهادة شهود عيان سجنهم العرب، نجد قصة تبدأ بخروج مزعوم للاجئين اليهود من الرها بعدما استردها هرقل من أيدي الفرس عام 628 تقريباً:

---

(1) ص 88.

(2) أنظر: PG, vol. xci, cols. 540f, dated to 634-40 في عمل P. Sherwood: *An Annotated Date-List of the Works of Maximus the Confessor* (= Studia Anselmiana, fasc. xxx) روما 1952، ص ص 40 وما بعد.

(3) ص 88.

"لقد خرجوا من الصحراء وجاءوا إلى جزيرة العرب، عند أبناء اسمعيل. فقد التمسوا العون منهم، وأفهموهم بأنهم أقاربهم بحسب الكتاب المقدس، ومع أنهم [الإسماعيليون] على استعداد للقبول بهذه القرابة الحميمة، إلا أنهم [اليهود] لم يستطيعوا إقناع عامة الناس، لأن عباداتهم كانت مختلفة. كان هنالك في ذلك الوقت إسماعيلي إسمه مهميت، وكان يعمل تاجراً؛ وقد قدّم لهم نفسه، وكأن الله أمره بذلك، كبشير، كطريق إلى الحقيقة. وعلّمهم كيف يعرفون إله ابراهيم، لأنه كان مطلعاً على قصة موسى وملماً بها للغاية... [وقد قال لهم] : لقد وعد الله بهذه الأرض إبراهيم ونسله من بعده إلى الأبد... أنتم أبناء إبراهيم، وعبركم ينجز الله الوعد... اجتمعوا كلهم... وخرجوا من صحراء فاران مقسّمين إلى إثني عشر سبطاً وفق سلالات أبنائهم... وبين قبائلهم قسّموا الإثني عشر ألف إسرائيلي، ألف ألف لكل قبيلة، وذلك لهدايتهم إلى ارض إسرائيل. وانطلقوا، مخيماً بعد مخيم، وفق نظام آبائهم... وجاء كلّ من بقي من شعوب بني إسرائيل لينضمّ إليهم، حتى شكّلوا جيشاً عظيماً. ثم أرسلوا بسفير إلى إمبراطور الإغريق، ليقول له : لقد أعطى الله هذه الأرض إرثاً لأبينا إبراهيم ولنسله من بعده... تخلّ عنها بسلام..." [(1)].

---

(1) سيبيوس، تاريخ، ص‌ص 94 - 96. أنظر: *Patmout'ium Sebeosi Episkoposi i Heraklen*, St. Petresberg 1879, p. 111، تحرير ك. ر. باتكانيان.

رغم الصعوبات الجغرافية التاريخية التي تواجه نص سيبيوس، إلا أنه يعتبر وثيقة خارجية مؤكّدة لعمق العلاقة بين العرب المسلمين واليهود في بدايات الإسلام - بغض النظر عن إصراره هو الآخر على التوجه المسياني للحركة الإسلامية وتمحورها حول فكرة استرداد أرض الميعاد. وثيقة سيبيوس، تدعمها على نحو مفاجئ وثيقة داخلية معروفة باسم عهد المدينة، حيث يظهر اليهود وكأنّهم يشكّلون أمّة واحدة مع المسلمين رغم احتفاظهم بديانتهم الخاصة. وهم يتوزعون دون أسماء مميزة ضمن عدد من قبائل العرب[1].

نشير أخيراً إلى رواية تقول إنّ قديساً مسيحياً هارباً من الاحتلال الفارسي للقدس، أحاق به مرات عديدة خطر الأسر على يد "السرسنيين والعبرانيين"[2].

هل كان الفاروق هو المسّيا؟

بادئ ذي بدء نذكر أنّنا نخالف برنارد لويس الرأي بشأن الملك الثاني المذكور في النصوص السابقة، والذي يحمل سمة مسيانية يهودية فعلية، والذي نعتقد أنّه كان الفاروق ـ عمر بن الخطاب. يشاركنا في

---

(1) أنظر: محمد بن اسحق، *سيرة سيدنا محمد رسول الله*، تحرير ف. فوستنفلد، غوتنغن 1958، ص‌ص 342 وما بعد؛ أبو عبيد، كتاب الأموال، رقم 517.

(2) أنظر: C. Howze (ed. and tr.), Sancti Georgii Chozebitae Confessoris et vita. *Analcta Bollandiana*, p. 134.

هذا الرأي الباحثان مايكل كوك وباتريشيا كرونه إضافة إلى *الموسوعة اليهودية*. وسنورد أولاً النصوص المتعلقة بالمسألة في المصادر الداخلية ثم الخارجية، لنناقش أخيراً النصوص بالتفصيل - ونكتفي من المصادر الداخلية بالطبري[1].

بالنسبة للتسمية "فاروق*"، يقول الطبري (4: 195 - 196): "اختلف السلف فيمن سمّاه بذلك، فقال بعضهم: سمّاه بذلك رسول الله ﷺ؛ وقال بعضهم [الآخر]: أوّل من سماه بهذا الاسم أهل الكتاب. قال ابن شهاب: بلغنا أنّ أهل الكتاب كانوا أوّل من قال لعمر: الفاروق، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم؛ ولم يبلغنا أنّ رسول الله ﷺ ذكر من ذلك شيئاً".

وفي "ذكر فتح بيت المقدس"، يقول الطبري (3: 607): "لما دخل عمر الشام تلقاه رجل من يهود دمشق، فقال السلام عليك يا فاروق! أنت صاحب إيلياء [القدس]، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء... وشهد ذلك اليهودي الصلح [مع أهل القدس]".

ينسب الطبري إلى كعب الأحبار قوله لعمر (3: 611)، إنّ الله أرسل نبياً إلى القدس يقول لها: "أبشري أوري شلم! عليك الفاروق ينقيك مما فيك".

(1) الطبري، *تاريخ*، دار المعارف بمصر، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.

* نلاحظ بالمناسبة أن النساطرة ما يزالون حتى الآن يستخدمون مصطلح « ايشا فاروقا» - يسوع مخلص.

فاروق، على الأرجح، من "فرق פרק"، والتي تعني: أنقذ، أعتق، حرر، خلص[1]. وحين يحتفظ لنا التقليد الإسلامي بهذا اللقب فهو إذاً يكرّس السمة المسيانية لعمر، عبر لقبه الذي يعني المخلّص[2]. ودخول ابن الخطاب إلى القدس هو أداء مناسب لهذا الدور. والطبري يذكر أن عمر، في زيارته الرابعة لسوريا، دخلها راكباً على حمار[3].

إذاً، فالتقليد الإسلامي ذاته يوضح الشخصية المسيانية لعمر من وجهة نظر اليهود: فكعب الأحبار يطبّق على عمر في القدس إحدى النبوءات المسيانية؛ ويهودي آخر يحيي عمر باعتباره الفاروق الذي سيخلّص القدس.

من جهة أخرى، فإن مصدراً خارجياً هو *عقيدة يعقوب*، يشهد على حرارة ردّة الفعل اليهودية على دخول العرب لفلسطين[4]. كذلك يقول مصدر أرمني قديم، إنّ حاكم القدس في أعقاب دخول العرب إليها، كان يهودياً[5].

---

(1) ي. قوجمان، معجم عبري عربي، دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب، عمان، ص 743.

(2) أنظر: J. Levy, *Neuhebr**isches W**terbuch über die**isches und chald* *Talmudim und Midraschim*, Leipzig, 1876.

(3) *الطبري*، طبعة لايدن 1879 - 1901، 7: 2401، تحقيق M. J. de Goeje.

(4) ص. 86.

(5) أنظر الهامش 15.

وهكذا، فنحن نعتقد أنّ "فاروق – مخلّص" هو لقب مسياني أطلقه اليهود على عمر بن الخطاب. وبعد انتهاء شهر العسل الإسلامي اليهودي بعد الإستيلاء العربي على القدس وإحباطهم لآمال اليهود المسيانية، أُعطي اللقب مضموناً آخر ولم يكن صعباً أن يعزى المضمون الجديد إلى النبي في محاولة لدعمه. لكن لم يكن سهلاً إسقاط المضمون الأصلي، فاحتفظت التقاليد الإسلامية، بنوع من التناقض، بالمضمونين على حد سواء، وإن كان بعضها مال إلى ترجيح كفة المضمون الأصلي على ذلك الذي قد يكون مختلقاً.

بالنسبة لاحتلال القدس، يقول الطبري (3: 611)، من المصادر الداخلية:

"لما شخص عمر من الجابية إلى إيلياء، فدنا من باب المسجد، قال: إرقبوا لي كعباً!... ثم قصد المحراب، محراب داود (ع)... فصلّى فيه... ولم يلبس أن طلع الفجر، فأمر المؤذن بالإقامة، فتقدم فصلّى بالناس، وقرأ بهم ص وسجد فيها، ثم قام، وقرأ بهم في الثانية صدر بني إسرائيل... ثم... قال: عليّ بكعب، فأُتي به، فقال: أين ترى نجعل المصلى؟ فقال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب... بل نجعل قبلته صدره.

ثم قام من مصلاه إلى كناسة كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها وتركوا

سائرها، وقال: يا أيها الناس، إصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها، وجثا في فرج من فروج قبائه، وسمع التكبير من خلفه، وكان يكره سوء الرعة في كل شيء، فقال: ما هذا؟ فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره، فقال: عليّ به، فأتي به فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمئة سنة، فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم، فدفنوه ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني إسرائيل، ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليتَ، فبعث الله نبياً على الكناسة، فقال: أبشري أوري شلم، عليك الفاروق ينقيك مما فيك...

وعن ربيعة الشامي بمثله؛ وزاد: أتاكِ الفاروق في جندي المطيع، ويدركون لأهلك بثأرك من الروم".

وعن أبي مريم: "شهدت فتح إيلياء مع عمر... فسار... ثم مضى حتى يدخل المسجد، ثم مضى نحو محراب داود؛ ونحن معه، فدخله، ثم قرأ سجدة داود، فسجد وسجدنا معه".

من ناحية أخرى، يقول مرجع يهودي من القرن الحادي عشر، إنّه كان ثمة يهود مع الغزاة الإسماعيليين، وهم الذين أظهروا لهم الحرم وأقاموا معهم بعد ذلك(1).

(1) J. Mann, *The Jews in Egypt and in Palastine under the Fatimid Caliphs*, vol i, Oxford 1920

من المراجع الحديثة ، تذكر *الموسوعة اليهودية*[1] ، النسخة الإنكليزية ، أنّ كعباً "كان أحد أتباع عمر حين دخل الأخير القدس ، وبناء على طلبه ، حدّد له [كعب] الموضع الذي كان الهيكل مبنياً عليه. وبحسب التقاليد ، فقد حاول المسيحيون إخفاءه عن الفاتحين... وعندما كشف عن هذا الموقع ، حاول كعب حثّ عمر على بناء المسجد (مسجد عمر) شمال الصخرة ، بحيث توجّه القبلة إليها [في الصلاة] بدل مكّة. لكن عمر رفض هذا الاقتراح ، معتبراً أنه موحى بميول يهودية". وتضيف في موقع آخر[2] : "صلّى الخليفة عمر بن الخطاب على جبل الهيكل بعد فتح القدس عام 638 ، بصحبة اليهودي اليمني المرتدّ كعب الأحبار". وفي موضع ثالث[3] ، تقول : "يقال إنّ يهودياً اعتنق الإسلام ، هو كعب الأحبار ، والذي كان أحد أفراد عمر وقت دخوله القدس ، دلّ عمر على مكان الصخرة (الإفن شتياه) ، على جبل الهيكل". و"عام 700 ، بنى عبد الملك [بن مروان] المسجد الأقصى في المكان حيث يفترض أن عمر صلّى"[4].

---

1) *Encyclopadia Judaica*, Fourth Print, 1978, Keter Publishing House, Jerusalem, 10: 488

(2) 10 : 988.

(3) 12 : 1382.

(4) 15 : 988.

نعود الآن إلى نص الطبري لنلقي بعض الأضواء والأسئلة:

يقال إنّ عمر دنا من باب المسجد - فأيّ مسجد ذاك الذي كان في القدس قبل الإسلام، إلّا إذا اعتبرنا أن أيّ مكان يُسجد فيه لله يعتبر مسجداً؟ مع ملاحظة أنّه في زمن النبي، كما يقول هوروفيتس وكيتاني، كان مشاداً هناك بازيليكا [كنيسة] يوستنيانوس[1].

لكن ما هو المحراب، محراب داود؟

للإجابة على هذا السؤال نقول، إنّ هيكل سليمان المفترض، أشيد "فوق جبل مورية في القدس، عند بيدر أرونا اليبوسي حيث بنى داود مذبحاً للرب (2صم 24: 18 - 25)"[2]. محراب هو "مؤخر الهيكل أو قدس الأقداس. هذه الكلمة ترجمة للكلمة العبرية "دبير" التي تعني مؤخر وقد وردت هذه الكلمة في الترجمة العربية في 1 مل 6: 5 و19 و8: 6 ومز 28: 2"[3]. إذاً، فقد صلّى عمر بن الخطاب، على الأرجح، في "الدفير דביר" أو قدس الأقداس، أو ما يعرف الآن بالصخرة – بالعبرية إيفين شتيا אבן שתיה أو حجر الأساس. واليهود يعتقدون أن الصخرة متوضعة "في قدس أقداس الهيكل في القدس"[4].

---

(1) *Der Islam*, ix, 162; Annali 21, § 88

(2) *قاموس الكتاب المقدس*، تحرير: بطرس عبد الملك، جون ألكسندر طمسن، ابراهيم مطر، منشورات مكتبة الشعلة، بيروت، ط9، 1981، ص ص 1112 - 1113.

(3) *المصدر السابق*، ص 297.

(4) *Encyclopadia Judaica*, 6: 985

لكن ما هو مضمون السورتين اللتين قرأهما عمر بن الخطاب في قدس الأقداس أو الدفير؟

يقول الطبري - وربما هذا مبالغ به - إنّه قرأ بالناس سورة "ص". ومنها نورد المقاطع التالية:

"واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب... يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض... ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب... واذكر عبدنا أيوب... واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب... وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار...".

كذلك يخبرنا الطبري أنّ عمر قرأ صدر بني إسرائيل - أي، سورة الإسراء. فماذا يقول ذلك الصدر:

"... وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل... ذرية من حملنا مع نوح... وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدّن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار... ثم رددّنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها...".

يخبرنا الطبري إن عمر "قام من مصلاه إلى كناسة [زبالة] كانت الروم قد دفنت بها بيت المقدس". وإذا ما أضفنا إلى ذلك ما تخبرنا به "*الموسوعة اليهودية*"(1) من أنّ كعب الأحبار بعد أن دلّ عمر على

(1) 12 : 1382.

مكان الصخرة على جبل الهيكل، "أمر عمر بتنظيف الصخرة واستخدم المكان كموضع للصلاة... وتقول بعض المصادر المسيحية والعربية إنّ أحد شروط المسيحيين سكان القدس للاستسلام لعمر كان تحريم إقامة اليهود في القدس... وسمح عمر لليهود بأن يعيدوا بناء حضورهم في القدس - بعد حقبة خمسمئة سنة - ويبدو أنّه خصص لهم مكاناً للصلاة على جبل الهيكل (والذي طردوا منه في زمن لاحق). والتقليد اليهودي يعتبر عمر حاكماً خيراً، والمدراش (*نستاروت [أسرار] دراف شمعون بار يوحاي*) يشير إليه بصديق إسرائيل"[1].

ويخبرنا الطبري أيضاً (3: 601) أنّ نصّ الصلح بين عمر وأهل القدس المسيحيين تضمّن عبارة "ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود". ونحن نعرف من المصادر المسيحية أن تيطس الروماني دمّر مدينة القدس وأحرق الهيكل وباع شعبها في السبي عام 70. ولما جاء أدريانوس بعده، ورأى أنّ القدس كانت "لا تزال خراباً منذ أن دمرها تيطس، أمر بتخطيطها تخطيطاً رومانياً وأطلق عليها اسم Aelia Capitoliono وقضت سياسته الداخلية بتوحيد الإمبراطورية وتمكين الروابط بين شعوبها المتباينة فأوجب إنشاء هيكل لزفس على أنقاض هيكل يهوه"[2]. وهذا كلّه كان عام 132.

---

(1) النص الأصلي يقول: אוהב ישראל وتعني «عاشق إسرائيل أو صديق إسرائيل... الخ».

(2) أسد رستم، *كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى*، منشورات دار النور، دون تاريخ، 1: 61.

إذا جمعنا معلومات المصادر اليهودية، المسيحية، والإسلامية، يمكن أن نصل إلى النتائج التالية:

دمّر تيطس الروماني القدس عام 70؛ وعام 132 أعاد أدريانوس بناء المدينة بعد أن نزع عنها كل صبغة يهودية: حوّل إسمها إلى إيليا كابيتوليونو - ومنه جاءت التسمية إيلياء؛ أشاد هيكلاً وثنياً على أنقاض هيكل سليمان؛ ويبدو أنّه قضى على أي وجود يهودي في المدينة، لأنّ *الموسوعة اليهودية* تذكر أنّ عمر بن الخطاب أعاد الحضور اليهودي إلى القدس بعد خمسمئة سنة من الطرد (نلاحظ أن ما فعله أدريانوس كان عام 132 ودخول عمر بن الخطاب المدينة كان عام 638)، بل يبدو أنّ سكنهم كأفراد في المدينة كان محظوراً من قبل المسيحيين، فنصّ معاهدة تسليم المسيحيين القدس لعمر بن الخطاب تضمّن عبارة "ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود" - كما لاحظنا سابقاً.

لقد عرف سكان القدس المسيحيون المكانة المفرطة القداسة للصخرة عند اليهود، فجعلوها مكبّ نفاياتهم (كناسة)، ولما دخل عمر بن الخطاب القدس، جاء إليهم «فأبرزوا بعضها وتركوا سائرها. لكنّ عمر "أمر بتنظيف الصخرة واستخدم المكان كموضع للصلاة". وبما أنّه لا يوجد في القرآن أدنى إشارة إلى الصخرة أو إلى قداستها، فاعتقادنا أنّ كعب الأحبار - ربما غيره أيضاً - هو الذي أقنع عمر بن الخطاب بذلك وأدّى به إلى تلك التصرفات. نلاحظ أيضاً أنّ سالمون بن

يهورام في تفسيره للمزمور 30: 10 يقول، إنّ عمر بن عبد العزيز هو الذي أبعد اليهود عن الصلاة في جبل الهيكل[1] - هذا يعني استخدامهم الديني لجبل الهيكل حقبة لا بأس بها. وربما يكون عمر بن الخطاب هو أوّل من سمح لهم بذلك.

لقد نظرت المصادر اليهودية الأولى إلى أعمال البناء العربية على جبل الهيكل باعتبارها ترميماً لهيكل سليمان. *والأسرار* يشير، كما رأينا، إلى ترميم صدوع إسرائيل وصدوع هيكلها. وهنالك نبوءة تنسب إلى شنوتي حول مجي بني إسرائيل وعيسو الذين ستبني بقية منهم الهيكل في القدس[2].

لكن ما هي حقيقة المسجد الذي بني على جبل الهيكل؟ يخبرنا مدراش يهودي أنّ معاوية "بنى مسجداً خشبياً على جبل الهيكل ובנה לן שם השתחויה לע לאבן שתיה"[3]. ونجد توثيقاً مستقلاً لهذا القول في نص مسيحي يُزعم فيه أن حاجاً اسمه أركولف رأى في موضع الهيكل عام 670 مبنىً خشبياً[4]. كذلك *فالأسرار* يقول إنّ الملك

(1) *Encyclopadia Judaica*, 15: 1529

(2) E. Amelineay, *Monuments pour servir .A l'histoire de l'Egypte chrétienne aux IV et V siècles (= Memoires publiés par les membres de la Mission Archéologique Française au Caire*, vol. Iv), Paris, p. 341.

(3) Wetheimer, *Battei Midrashot* (1894), 30

(4) Relatio de locis sanctis in T. Tobler and A. Molinier (eds), *Itinera Hierosolgmitana et deseri ptiones Terra Sanctae*, Geneva 1879, p. 145.

الثاني من اسمعيل "يبني مسجداً هناك على صخرة الأساس" ـ مع ملاحظة أن هشتحوايا השתחויה العبرية تعني حرفياً "مسجداً". ـ فكيف يمكن حلّ هذا اللغز؟

إنّ اعتقاد برنارد لويس أنّ المقصود بالملك الثاني من إسماعيل معاوية - أو خلط بين عمر ومعاوية - لا يخلو، برأينا، من بعض الالتباس. فمعاوية من ناحية - وهو بالمناسبة شخصية وصولية لا علاقة لها بالعقائد أو المبادئ - تقرّب من المسيحيين في محاولة لدعم حكمه المواجه بتحديات داخلية إسلامية كبيرة. فمن المعروف عموماً، أنّ معاوية أُعلن خليفة في القدس عام 660 (1)، قبل مقتل الخليفة الشرعي، عليّ بن أبي طالب، عام 661. والقدس كانت آنذاك إحدى الحواضر المسيحية الهامة. بل قبل إعلانه خليفة بعام، أي عام 659، يخبرنا تاريخ ماروني قديم، أنّ معاوية ذهب إلى القدس، وبدأ فيها الصلاة في الجلجلة، فالجثمانية، وقبر العذراء - وفي ذلك موافقة مسلكية على موت يسوع الخلاصي (2).

من ناحية أخرى، فالموسوعة *اليهودية*، كما لاحظنا وأشرنا، تقول دون أدنى تردد، إنّ المقصود بالملك الثاني من اسمعيل، حبيب (أو صديق) إسرائيل، هو عمر بن الخطاب. بل إنّ المصادر اليهودية

---

(1) *Encyclopadia Judaica* 15: 1510
(2) *Chronica Minora*, pp. 71 - 55

القديمة تجعل عمر بن الخطاب يتزوج وأحد كبار رجالات يهود الشتات من أختين فارسيتين من السلالة الملكية. فيقال إنّ عمر بن الخطاب اقر ببستناي بن حنانيا (618 - 670)، بعد دخول العرب العراق، كجالوت لليهود في بابل، « وأعطاه أزدونداد إحدى بنات الملك أحشورش الثاني الأسيرات، ملك فارس، في حين تزوج الخليفة ذاته من أختها، وأقر بالتالي واقعياً اعتبار بستناي كأحد خلفاء ملوك فارس»[1].

إذاً، ففي اعتقادنا أنّ عمر بن الخطاب كان أمل اليهود ـ المسّيا ـ بالخلاص. وهو الذي لن "يجعل إسرائيل بعد الآن بعيدة عن بيت الصلاة" ، كما تقول القصيدة المدراشية *في ذلك اليوم*. ويبدو أنّ اليهود اعتقدوا أنّ المسلمين سيساعدونهم على استرداد الهيكل. لكن كما يقول سيبيوس الأرمني في *تاريخه*[2] ، فإنّ هذه الخطة أحبطت حين بنى العرب عوضاً عن ذلك مصلى خاصاً بهم. يدعم ذلك مصدر داخلي، كالطبري، حين يشير إلى الجدل بين عمر وكعب الأحبار حول مسألة القبلة : أراد اليهودي تحويلها إلى الصخرة، في حين أصرّ عمر على القبلة الإسلامية التقليدية. لكن هذا لا يمنع أن يكون الخليفة خصص لليهود مكاناً ما في مصلاه، يؤدون فيه طقوسهم. وربما يكون عمر بنى

---

(1) *Encyclopadia Judaica*, 4: 1537.

(2) *تاريخ*، ص ص 102 وما بعد.

مصلى وجاء بعده معاوية ليقيم مسجداً في الموقع ذاته : خاصة وأنّ الاسم التقليدي المتداول حتى الآن للمكان هو "مسجد عمر".

أخيراً ، فإنّ عمر بن الخطاب الذي رأى فيه اليهود ، وهو في طريقه لتخليص القدس من الروم ، مسّيا منتظراً ، أحبط آمالهم المسيانية بعد ذلك حين رفض إعادة الهيكل إلى وضعه السابق. - فهل يمكن لهذا أن يساعدنا في فهم عملية اغتيال الخليفة ، خاصة وإن إصبع كعب الأحبار غير محط التباس في القضية؟!

حقائق:

بعد هذا العرض التفصيلي للأساطير المتعلقة بقبة الصخرة ومسجدها الأقصى ، نحاول الآن العودة إلى الحقائق ، وإن باختصار شديد ، ومن الجملة الأخيرة ، وبه بايعوه للخلافة ، ننطلق.

يوم مات النبي محمد عام 632 ، لم يكن ثمة مسجد أقصى لا في القدس ولا في غيرها. كانت إيلياء مدينة يسكنها المسيحيون. كذلك لا يوجد ذكر للقدس في القرآن بالاسم ، وكل ما قيل إنه إشارة لهذه المدينة جاء بعد موت النبي بزمن طويل ، ولا نعتقد إلا أنه إضافات يهودية من أجل بعث الروح في مدينتهم المقدسة. إذن ، لماذا تمت البيعة لمعاوية في القدس ، وليس في دمشق أو مدينة أخرى من مدن الحجاز ، ومن الذي بايعه ، إن تذكرنا أن الوجود اليهودي في المدينة وقتها ضعيف للغاية؟

يقول كتّاب متأخرون إن محمداً صعد إلى السماء من المسجد الأقصى ؛ لكن الحقيقة هي أنه في التاريخ الذي زعم فيه هؤلاء صعود محمد، كان يقوم في المكان الذي حددوه للصعود كنيسة بيزنطية كبيرة للغاية، مسماة على اسم القديسة مريم وتنسب ليوستنيانوس. وهذا المكان المسيحي الديني كان يمتد في الواقع من شمال المدينة إلى جنوبها، وكان يتخللها رواق ينتهي ببوابة دمشق. وكان إنشاء الكنيسة يوم 21 تشرين الثاني 543.

الإسلام... والصخرة: القبلة المتنقلة بين حجر الأساس אבן השתייה وحجار الكعبة!

بعد هذه النصوص المكثفة المستمدّة من مراجع يهودية كثيرة، يبدو مناسباً الآن إكمال الصورة من خلال تقديم ما وصلنا إليه من نصوص حول الصخرة وبيت المقدس.

من الأمور الملفتة للنظر هنا هو تنقّل قبلة المسلمين، عبر النبي محمد، بين حجر الأساس אבן השתייה وحجارة الكعبة، التي تحتوي أيضاً حجراً منافساً يُقال إنه هو أيضاً من الجنة، اسمه الحجر الأسود: "أن أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه. وقال ابن جريح، كما عند ابن جرير: صلّى النبي ﷺ أول من صلّى إلى الكعبة ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصلّى ثلاث حجج ثم هاجر. ولما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله سبحانه وتعالى أن يستقبل صخرة بيت المقدس، فعرّض اليهود بذلك، وكان رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت، لأن اليهود قالوا: خالفنا محمد ويتبع قبلتنا.

... قال ﷺ لجبريل : وددت أن الله عز وجل صرفني عن قبلة يهود إلى غيرها ، فقال جبريل عليه السلام : إنما أنا عبد ملك لا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت به ، فادع الله تعالى. فكان رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله تعالى ، وخرج رسول الله ﷺ زائراً أم بشر بن البراء بن معرور ، في بني سلمة - بكسر اللام - فصنعت له طعاماً ، وحانت صلاة الظهر ، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه في مسجد هناك الظهر ، فلما صلّى ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صل إلى البيت ، وصلّى جبريل إلى البيت فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة ، واستقبل الميزاب. فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء ، فهي القبلة التي قال الله تعالى ، "فلنولينك قبلة ترضاها" [البقرة 144] ، فسمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين. وكان الظهر يومئذ أربعاً : اثنتان إلى بيت المقدس واثنتان إلى الكعبة ، فخرج عباد بن بشر (رض) ، وكان صلّى مع رسول الله ﷺ ، فمرّ على قوم من الأنصار بني حارثة - بالحاء المهملة والثاء المثلثة - وهم راكعون في صلاة العصر ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل البيت. فاستداروا.

قال رافع بن خديج : وأتانا آتٍ ونحن نصلي في بني عبد الأشهل ، فقال : إن رسول الله ﷺ قد أمر أن يوجه إلى الكعبة ، فأدارنا إمامنا إلى الكعبة ودرنا معه. قال ابن عمر : وبينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ

جاءهم آت - قال ابن طاهر المقدسي: هو عباد بن بشر أيضاً - فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة"[1].

يقول نص آخر: "كان أول ما فرضت القبلة إلى بيت المقدس والنبي، ﷺ، بمكة، وكان يحب استقبال الكعبة، وكان يصلي ويجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس. فلما هاجر إلى المدينة لم يمكنه ذلك، وكان يؤثر أن يصرف إلى الكعبة، فأمره الله أن يستقبل الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من قدومه المدينة، وقيل: على رأس ستة عشر شهراً في صلاة الظهر"[2].

نص آخر يتناقض مع السابق، ويتحدث بوضوح عن الصلاة إلى حجر الأساس אבן השתייה، الصخرة: "وهي الكعبة لأن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود، ثم حول إلى الكعبة، فيقول وما جعلنا القبلة التي تحب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة"[3]؛ "قد اتفق الكل على أن النبي ﷺ صلى إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة مدة ثم أمر أهل البيت (رض)، أنها كانت بيت

---

(1) شمس الدين الشامي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، ص. 1433
(2) ابن الأثير المؤرخ، *الكامل في التاريخ*، ص. 280
(3) البهاء العاملي، *الكشكول*، ص. 88.

المقدس"[1]؛ وهو ما يؤكّده مرجع آخر: "الصخرة التي كانت قبلة الإسلام"[2].

نص آخر يضيف بعض تفاصيل على ما سبق: "ذَكَر الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس (رض) ما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، سورة البقرة، الآية: 115، قال: بعث رسول الله ﷺ سريةً فأتتهم ضبابةٌ، فصلوا لغَيْر القبلة، فسألوا رسول الله ﷺ فلم يأمرهم بالإعادة، وكانوا يصلّون نحو بيت المقدس؛ فنزلت: فأينما ولوا فثم وجه الله، فقال رسول اللّه ﷺ لجبرائيل: وددتُ أن ربي جل جلاله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فقال جبرائيل: إنما أنا عبد مثلك، فادع ربك وسلْه؛ ثم ارتفع جبرائيل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه بالذي سأل، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، سورة البقرة، الآية: 144، الآية. قال: فنسخت هذه الآية ما كان من الصلاة قبلها نحو بيت المقدس، قال: وكانوا يصلون نحو صخرة بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، بعد أن قدم المدينة ثم حول إلى الكعبة إلى الميزاب قبل بدر بشهرين.

---

(1) البهاء العاملي، *الكشكول*، ص. 90.

(2) ناصر خسرو، *سفر نامه*، ص. 14

ورُوي عن ابن عباس ؛ قال : سئل رسول الله ﷺ عن الذين ماتوا وهم يصلون إلى البيت المقدس فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ، سورة البقرة ، الآية : 143 ، وذكر سعيد بن المسيب أنَ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ، سورة التوبة الآية 100 ، هم أهل القبلتين"[1].

يضيف مرجع آخر بضع تفاصيل تبرّر توجه المسلمين إلى حجر الأساس في قبلتهم : "فقد ورد عن الزهري أنه قال : لم يبعث الله عز وجل نبياً ، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس. وقد صلّى إليه رسول الله ﷺ بعد هجرته سبعة عشر شهراً ، كما روي في الصحيحين ، حتى أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ ، "قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شكره".

وتحويل القبلة أول ما نسخ من أمور الشرع. وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، أمره الله تعالى أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة.

---

(1) المرزوقي ، *الأزمنة والأمكنة* ، ص. 263

وقال عبد الرحمن بن زيد: قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فقال رسول الله ﷺ: هؤلاء يهود يستقبلون بيتا من بيوت الله. فاستقبله النبي ﷺ. قالوا جميعاً: فصلّى النبي ﷺ وأصحابه نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، وكانت الأنصار قد صلت قبل بيت المقدس ستين يوما، قبل قدوم النبي ﷺ. وكانت الكعبة أحب القبلتين إلى رسول الله ﷺ. واختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوى قبلة الكعبة. فقال ابن عباس (رض): لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليهما السلام. وقال مجاهد: من أجل أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد في ديننا، ويتبع قبلتنا؛ وقال مقاتل بن حيان: لما أمر رسول الله ﷺ أن يصلي نحو بيت المقدس، قالت اليهود: يزعم محمد أنه نبي، وما نراه أحدث في نبوته شيئاً، أليس يصلي إلى قبلتنا ويستسن بسننا؟ فإن كانت هذه نبوة. فنحن أقدم وأوفر نصيباً. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فشق عليه وزاده شوقا إلى الكعبة. وقال ابن زيد: لما استقبل النبي ﷺ نحو البيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول: والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، قالوا جميعاً: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، فإني أبغضهم وأبغض مواقفهم، فقال جبريل: إنما أنا عبد مثلك، ليس لي من الأمر شيء، فسل ربك، فعرج جبريل. وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما

يحب من أمر القبلة. فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ الآية. فلما صرفت القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكة: قد تردد على محمد أمره، واشتاق إلى مولده ومولد آبائه، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلاً؛ وتكلم اليهود والمنفقون في تحويلها. فأنزل الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾"[1].

تتفق معظم النصوص بأن النبيّ محمداً غيّر قبلته أربع مرّات كما تقول كثير من المراجع: في مكّة، بداية دعوته، يبدو أنه اعتمد الصخرة في القدس قبلة له، وذلك اعتقاداً منه على أنه كان نهاية حلقات أنبياء اليهود، قبل أن يستقل بديانته بالكامل، وربما أنه لم يكن في بادئ الأمر راضياً عن التوجه بالصلاة إلى الكعبة، لأنها كانت قبلة المشركين وملاذ أصنامهم؛ في مرحلة لاحقة، وبنوع من البراغماتية التي عرفت عنه، نقل قبلته إلى الكعبة، في محاولة منه لاسترضاء المكيين وجذبهم إلى دعوته، وهو الذي كان يستجدي الله أن يعزّ "الإسلام بأحد العمرين"؛ حين انتقل إلى يثرب، وكان اليهود فيها قوة ضاربة مادياً ودينياً، حيث تحكي المراجع الإسلامية ذاتها عن تهود كبير سرى في عاصمة محمد الجديدة، بمن فيهم أخواله بنو النجّار، عاد لنقل قبلته إلى

(1) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. 95

الصخرة في القدس استرضاءً لليهود من أجل جلبهم إلى الدين الجديد ؛ لكن يبدو أن اليهود كانوا عصيين على الهداية ، بل عقّبوا على المسألة بنوع من الاستهزاء كعادتهم ، وكانت النتيجة أن محمّداً عاد إلى تغيير القبلة للمرّة الرابعة على الأرجح ، وصار المسلمون يصلّون إلى الكعبة وحجرها المقدّس : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ وهي الكعبة ، لأن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة ، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود ، ثم حول إلى الكعبة فيقول : وما جعلنا القبلة التي يجب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة ، يعني : وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء "لنعلم" الثابت على الإسلام الصادق فيه ، ممن هو على حرف ينكص "على عقبيه" لقلقه فيرتد كقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. ويجوز أن يكون بياناً للحكمة في جعل بيت المقدس قبلته. يعني أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وأن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضاً لغرض. وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا - وهي بيت المقدس ، لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول منهم ومن لا يتبعه وينفر عنه. وعن ابن عباس (رض) : كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه"[1].

---

(1) الزمخشري ، *الكشاف* ، ص. 100.

متى حوّلت القبلة؟ سؤال تتضارب الآراء في الإجابة عليه كالعادة: "وحولت القبلة في شهر رجب من السنة المذكورة التي هي الثانية في نصفه؛ وقيل في نصف شعبان، قال بعضهم وعليه الجمهور الأعظم؛ وقيل كان في جمادى الأخرة؛ فقد قيل إنه ﷺ صلّى في المدينة إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً وقيل سبعة عشر شهراً وقيل أربعة عشر شهراً وقيل غير ذلك؛ وتقدم أنه ﷺ صلّى في مسجده بعد تمامه إلى بيت المقدس خمسة أشهر والأكثرون على أن تحويلها كان في صلاة الظهر وقيل العصر؛ ففي الصحيحين عن البراء أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ للكعبة صلاة العصر، وقد يقال: لا منافاة لجواز أن يكون المراد أول صلاة صلاها كلها للكعبة صلاة العصر لأن الظهر صلّى نصفها الأول لبيت المقدس ونصفها الثاني للكعبة؛ ثم رأيت الحافظ ابن حجر فعل كذلك حيث قال التحقيق إن أول صلاة صلاها بالمسجد النبوي صلاة العصر أو إن التحويل في العصر كان في محل آخر للأنصار؛ وهم بنو حارثة! وقيل: حولت في صلاة الصبح، وهو محمول على أن ذلك كان في قباء لأن الخبر لم يبلغهم إلا حينئذ كما سيأتي، وإنما حولت لأنه ﷺ كان يعجبه أن تكون قبلته الكعبة سيما لما بلغه أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا؛ وفي لفظ قالوا: للمسلمين لو لم نكن على هدى ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها؛ وفي لفظ كان يحب أن يستقبل الكعبة محبة لموافقة إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام وكراهة لموافقة اليهود ولقول كفار قريش

للمسلمين: لم تقولون نحن على ملة إبراهيم وأنتم تتركون قبلته وتصلون إلى قبلة اليهود؟ ولأنه لما هاجر صار إذا استقبل صخرة بيت المقدس يستدبر الكعبة فشق ذلك عليه ﷺ؛ فقال لجبريل: وددت أن الله سبحانه وتعالى صرفني عن قبلة اليهود فقال جبريل: إنما أنا عبد لا أملك لك شيئاً إلا ما أمرت به فادع الله تعالى! فكان رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى يكثر إذا صلى إلى بيت المقدس من النظر إلى السماء ينتظر أمر الله تعالى لأن السماء قبلة الدعاء؛ وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: وددت أنك سألت الله تعالى أن يصرفني إلى الكعبة؟ فقال جبريل: لست استطيع أن أبتديء الله جل وعز بالمسالة، ولكن إن سألني أخبرته. وخرج رسول الله ﷺ زائر أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت له طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه في مسجد هناك، فلما صلى ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صل إلى الكعبة واستقبل الميزاب!! فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فاستدار النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فقد تحول من مقدم المسجد إلى مؤخره، لأن من استقبل الكعبة في المدينة يلزم أن يستدبر بيت المقدس، كما أن من يستقبل بيت المقدس يستدبر الكعبة؛ وهو ﷺ لو دار كما هو مكانه لم يكن خلفه مكان يسع الصفوف؛ قيل وكان ذلك وهم راكعون"[1].

(1) نور الدين الحلبي، *السيرة الحلبية*، ص. 500

حول الموضوع ذاته تقرأ نصاً آخر، يقول: "وعن عمارة بن أوس الأنصاري قال: صلينا إحدى صلاتي العشي، وهما الظهر والعصر، فقام الرجل على باب المسجد ونحن في الصلاة فنادي أن الصلاة قد وجهت نحو الكعبة، فتحول إمامنا نحو الكعبة؛ وقوله تعالى: "قد نرى تقلب وجهك في السماء"، أي، متطلعاً نحو الوحي ومتشوقاً للأمر باستقبال الكعبة، فلنولينك أي نحولنك قبلة ترضاها، أي تحبها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، أي نحوه؛ والمراد بالمسجد الحرام الكعبة. وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وأن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق، أي الرجوع إلى الكعبة، من ربهم أي لما في كتبهم من نعته ﷺ بأنه يتحول إلى الكعبة؛ أقول: ولعل هذه القصة التي رواها عمارة هي التي رويت عن رافع بن خديج، قال: أتانا آت ونحن نصلي في بني عبد الأشهل، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمر أن يتوجه إلى الكعبة فدار أمامنا إلى الكعبة ودرنا معه؛ والله اعلم! واجتمع قوم من كبار اليهود وجاءوا إليه ﷺ، وقالوا له: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم انك على ملة إبراهيم ودينه وما كنت عليه قبلة إبراهيم، وهذا بناء على دعواهم أن بيت المقدس كان قبلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما سيأتي عنهم وسيأتي ما فيه؛ ثم قالوا: ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك؛ وإنما يريدون بذلك فتنته ليعلم الناس انه ﷺ في حيرة من أمره واختباراً لما يجدونه في نعته ﷺ من أنه يرجع عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة وأنه

لا يرجع عن تلك القبلة ؛ وفي رواية أنهم قالوا: للمسلمين ما صرفكم عن قبلة موسى ويعقوب وقبلة الأنبياء؟ ويوافقه قول الزهري: لم يبعث الله منذ هبط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس"[1].

نص مطوّل نضيع فيه بين الحقيقة والأسطورة، يعتمد راويه على ما سُمع من ميثولوجيا يهودية يبدو أنها كانت متفشية في يثرب زمن بداية الإسلام؛ يُضيف إليه أخباراً ينسبها جهلاً إلى التوراة؛ ثم يتحدّث عن الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، وما إذا كانت صلواتهم قد ذهبت سدى مع القبلة التي تمّ التحوّل عنها؛ إضافة إلى تعليقات مستفزة حول تحويل القبلة من قبل المكيين غير المؤمنين بالإسلام: "قال شارحها يشير إلى أن كل نبي كانت قبلته بيت المقدس وهو صلى الله عليه وسلم قد شاركهم فيها؛ واختص بالكعبة، ومن ثم جاء في التوراة في وصفه ﷺ صاحب القبلتين وفيه أن قبلة الأنبياء ﷺ إنما هي الكعبة؛ فعن أبي العالية كانت الكعبة قبلة الأنبياء؛ وكان موسى يصلي إلى صخرة بيت المقدس وهي بينه وبين الكعبة ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف؛ ويقال بمثل هذا فيما تقدم عن اليهود؛ وعن الزهري على تسليم صحته إن صخرة بيت المقدس كانت قبلة لجميع الأنبياء أنهم كانوا يصلون إليها ويجعلونها بينهم وبين الكعبة فلا مخالفة؛ لا يقال

(1) نور الدين الحلبي، *السيرة الحلبية*، ص. 501

هذا ليس أولى من العكس أي أن استقبال الأنبياء للكعبة إنما كانوا يجعلونها بينهم وبين صخرة بيت المقدس، لأنا نقول قد ذكر في الأصل في تفسير قوله تعالى: ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك ؛ أي يكتمون ما علموا من أن الكعبة هي قبلة الأنبياء المقصودة بالاستقبال لا أنهم يستقبلونها لأجل صخرة بيت المقدس ؛ وذكر عن بعضهم أن اليهود لم تجد كون الصخرة قبلة في التوراة وإنما كان تابوت السكينة على الصخرة فلما غضب الله على بني إسرائيل رفعه فصلوا إلى الصخرة بمشاورة منهم أي وادعوا أنها قبلة الأنبياء ؛ وما تقدم عن الزهري تقدم الجواب عنه ؛ ثم قالوا: والله إن أنتم إلا قوم تفتنون ؛ فانزل الله تعالى: سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب، أي الجهات كلها فله الأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء لا اعتراض عليه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، أي فكان أول ما نسخ أمر القبلة ؛ فعن ابن عباس: أول ما نسخ من القرآن فيما يذكر لنا والله اعلم شأن القبلة فاستقبل ﷺ بيت المقدس أي بمكة والمدينة ثم صرفه الله تعالى إلى الكعبة ؛ ... ولما توجه ﷺ إلى الكعبة قال المشركون من أهل مكة: توجه محمد بقبلته إليكم وعلم إنكم كنتم أهدى منه ويوشك أي يقرب أن يدخل في دينكم ومن لم ارتد جماعة ؛ وقالوا: مرة هاهنا ومرة هاهنا ؛ ولما حولت القبلة إلى الكعبة أتى رسول الله ﷺ مسجد قباء فقدم جدار المسجد موضعه الآن وقالت الصحابة له: يا رسول الله لقد ذهب منا قوم قبل التحول فهل

يقبل منا ومنهم؟ فانزل الله تعالى قوله: وما كان الله ليضيع إيمانكم أي صلاتكم إلى بيت المقدس؛ وذكر في الأصل أن الصحابة قالوا: مات قبل أن تحول قبل البيت رجال وقتلوا وهم عشرون ثمانية عشر من أهل مكة واثنان من الأنصار وهما البراء بن معرور واسعد بن زرارة، فلم ندر ما تقول فيهم؛ فانزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾، الآية؛ ولفظة القتل، وقعت في البخاري وأنكرها الحافظ ابن حجر، فقال: ذكر القتل لم أره إلا في رواية زهير وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط ولم أجد في شيء من الأخبار أن أحداً من المسلمين قتل قبل تحويل القبلة، لكن لا يلزم من عدم الذكر عدم الوقوع، فان كانت هذه اللفظة محفوظة فتحمل على أن بعض المسلمين ممن لم يشتهر قتل في تلك المدة في غير الجهاد؛ ثم قال: وذكر لي بعض الفضلاء أنه يجوز أن يراد من قتل بمكة من المستضعفين كأبوي عمار؟ فقلت: يحتاج إلى ثبوت أن قتلهما كان بعد الإسراء. هذا كلام الحافظ وفيه أن الركعتين اللتين كان يصليهما هو والمسلمون بالغداة وبالعشي قبل فرض الصلوات الخمس كانتا لبيت المقدس؛ فقد تقدّم أنه كان يصلي هو وأصحابه إلى الكعبة ووجوههم إلى بيت المقدس، فكانوا يصلون بين الركنين اليماني والذي عليه الحجر الأسود لأجل استقبال بيت المقدس؛ وتقدم أنه ﷺ لم يلتزم ذلك بل كان في بعض الأوقات يصلّي إلى الكعبة في أي جهة أراد؛ ثم لما قدم المدينة صار يستقبل بيت المقدس ويستدبر الكعبة إلى وقت التحويل، ومن ثم قال في الأصل، ولما كان

ﷺ يتحرى القبلتين جميعاً ، أي يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، لم يتبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة ، فإنه استدبر الكعبة واستقبل بيت المقدس ؛ فقول ابن عباس : لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة واليهود يستقبلون بيت المقدس ، أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، معناه أمره الله تعالى أن يستمر على استقبال بيت المقدس ، وهذا هو المراد بقوله الذي نقله بعضهم عنه وهو أنه ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة ، فلما هاجروا أمره الله تعالى أن يصلي نحو صخرة بيت المقدس أي يستمر على ذلك ويستدير الكعبة ، ثم أمره الله باستقبال الكعبة واستدبار بيت المقدس ، فلم يقع النسخ مرتين كما قد يفهم من ظاهر السياق ، ومن قول ابن جرير رسول الله ﷺ : أول ما صلّي إلى الكعبة ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، فصلّى صلاة ثلاث حجج ثم هاجر فصلّى إليه ؛ ثم وجهه الله تعالى إلى الكعبة هذا كلامه ؛ ومن ثم قال الحافظ ابن حجر هذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين ؛ قيل : وكان أمره بمداومة استقبال بيت المقدس ليتألف أهل الكتاب لأنه كان ابتداء الأمر يحب أن يتألف أهل الكتاب فيما لم ينه عنه فلا يخالف ما سبق من أنه كان يحب أن يستقبل الكعبة كراهة لموافقة اليهود في استقبال بيت المقدس ، ولا يخالف هذا قول بعضهم كان ﷺ قبل فتح مكة يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه ، وبعد الفتح يحب مخالفتهم لجواز أن يكون ذلك أغلب أحواله ؛ وقد يؤخذ من أن استدامة استقباله لبيت المقدس

كان لتآلف أهل الكتاب جواب عما يقال إذا كانت الكعبة قبلة الأنبياء كلهم، فلما وفق إلى استقبال بيت المقدس هو بمكة بناء على أن صلاته لبيت المقدس وهو بمكة كانت باجتهاد؛ وحاصل الجواب انه أمر بذلك أو وفق إليه لأنه سيصير إلى قوم قبلتهم بيت المقدس ففيه تأليف لهم وقد يوافقه ما في الأصل؛ وهذا موافق لما تقدم عن أبي العالية: كانت الكعبة قبلة الأنبياء، ثم في السنة المذكورة التي هي الثانية فرض صوم رمضان وفرضت زكاة الفطر وطلبت الأضحية أي استحباباً؛ وعن أبي سعيد الخدري (رض): فرض شهر رمضان بعد ما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر في شعبان"[1].

نص بارز آخر يربط بين حجر الأساس في المسجد الأقصى، والحجر الأسود في المسجد الحرام؛ فهل القبلة كانت الحجرين أم المسجدين؟ في هذا النص نصادف بعضاً من الروايات الأغادية الأصل على نحو واضح: "أن الصخرة في المسجد الأقصى كالحجر الأسود في المسجد الحرام. روى أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى قال لصخرة بيت المقدس: لأضعن عليك عرشي ولأحشرن إليك خلقي وليأتينك يومئذ داود راكباً؛ وروى أبو بكر الواسطي وابن عساكر عن يزيد بن جابر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق 41]، قال: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور

(1) نور الدين الحلبي، *السيرة الحلبية*، ص. 503

فيقول: يا أيتها العظام النخرة والجلود المتمزقة والأشعار المتقطعة إن الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الخطاب. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم والواسطي عن قتادة في الآية قال: كنا نتحدث أنه ينادى من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض؛ وحدثنا أن كعباً، قال: هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً... [و]يكره استقبال بيت المقدس واستدباره بالبول والغائط ولا يحرم قاله في الروض.

روي أنه من دفن في بيت المقدس وفي فتنة القبر وسؤال الملكين ومن دفن في زيتون الملة [يعني بإيلياء] فكأنما دفن في السماء الدنيا. [و]عن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء". [و]روى الخطيب في الموضح عن جابر بن عبد الله (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: "أول من يدخل الجنة الأنبياء ثم مؤذنو البيت ثم مؤذنو بيت المقدس ثم مؤذنو مسجدي ثم سائر المؤذنين". [و]روي أن عمر بن عبد العزيز أمر بحمل عمال سليمان بن عبد الملك إلى الصخرة ليحلفوا إلا واحداً، فدى يمينه بألف دينار، فما مر الحول على واحد منهم بل ماتوا كلهم. [و]روى أبو المعالي المشرف بن المرجى المقدسي، قال: من حج وصلى في مسجد المدينة، ومسجد الأقصى في عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وإذا ثبت ذلك فقول النووي: إنه لا أصل لذلك؛ فيه نظر. [و]ذكر الدرامي: أنه لا يجوز الاجتهاد يمنة ولا يسرة بمحراب بيت المقدس؛ وألحقه بمسجد المدينة.

[وقال] الغزالي في الخلاصة والخراساني في كافيه على استحباب صلاة العيد في مسجد بيت المقدس وأن فعلها فيه أولى من المصلّى. [و] قال ابن سراقة في كتاب الأعداد: أكبر مساجد الإسلام واحد هو بيت المقدس. وقيل: ما تم فيه صف واحد قط لا في عيد ولا في جمعة ولا غير ذلك"[1].

من هنا، فقد نشأت حول حجر الأساس אבן השתייה والمسجد الأقصى كثير من الأساطير المستمدة، في معظمها، من التراث الأغادي اليهودي: "وعن عبد الملك الجزري أنه قال: إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية. وإذا كان الشام في بلاء وقحط كانت فلسطين في رخاء وعافية. وإذا كانت فلسطين في بلاء وقحط كان بيت المقدس في رخاء وعافية. وقال خالد بن معدان: مقبور بيت المقدس لا يعذب. [و] عن ابن عباس (رض) قال: صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة.

وعن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل عليه السلام إلى قبر إبراهيم ﷺ، وقال: انزلْ فصلِّ ها هنا ركعتين فإن ها هُنا قبر أبيك إبراهيم. ثم مرّ بي ببيت لحم، فقال: انزلْ فصلِّ ها هنا ركعتين فانَّ ها هنا ولد أخوك

[1] شمس الدين الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ص. 1290

عيسى. ثم أتي بي إلى الصخرة فقال: من ها هُنا عرج أمر ربك إلى السماء، فألهمني الله عزّ وجلّ أن، قُلتّ: نحن بموضع عرج منه أمر ربي فصليت بالنبيين، ثم عرج بي إلى السَّماء"[1].

وهكذا نصل إلى القول: "إن رسول الله ﷺ، قال: لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، ومسجد إيليا.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص في هذه الآية، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾؛ قال: هو سور بيت المقدس"[2].

(1) ابن شداد، *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*، ص.94

(2) ابن الأثير المؤرخ، *الكامل في التاريخ*، ص. 280.

الصخرة... وعبد الملك بن مروان؟

قال ابن خلدون في مقدمته "إن عمر لما حضر لفتح بين المقدس وكشف عن الصخرة بنى عليها مسجداً علة طريق البداوة؛ ثم أحتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجد على سنن مساجد الإسلام... وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما أقترح"[1].

لكن عمر رفض أن تعتبر زيارة الصخرة نوعاً من الحج: "عن سعيد بن المسيب، قال: استأذن رجل عمر بن الخطاب في إتيان بيت المقدس؛ فقال له: اذهب فتجهز فإذا تجهزت فأعلمني، فلما تجهز جاءه، فقال له عمر: اجعلها عمرة، قال: ومر به رجلان وهو يعرض إبل الصدقة؛ فقال لهما: من أين جئتما؟ قالا: من بيت المقدس، فعلاهما بالدرة؛ وقال: أحج كحج البيت! قالا: إنما كنا مجتازين.

عن ذي الأصابع، قال: قلنا: يا رسول الله أرأيت إن ابتلينا بالبقاء بعدك أين تأمرنا؟ قال: عليك ببيت المقدس لعل الله يرزقك

(1) لويس شيخو، *النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية*، 160.

ذرية يغدون ويروحون إليه ؛ وفي لفظ : فإنه لعلك أن يتفق لك ذرية يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون"[1].

"مسند عمر عن جبير بن نفير ؛ قال : لما جلا عمر بن الخطاب عن صخرة بيت المقدس المزبلة التي كانت عليها قال : لا تصلوا عليها حتى يصيبها ثلاث مطرات وأكثر."[2].

فجأة ، فرض عبد الملك بن مروان شعيرة أن زيارة الصخرة نوع من الحج - من هو عبد الملك هذا ، وما هي تفاصيل القصة ؟

عبد الملك بن مروان : رابع خلفاء بني أميّة ؛ ابن مروان بن الحكم الذي قتلته زوجه[3] خنقاً بعد أن قال لابنها من زوج غيره ، خالد بن

---

(1) المتقي الهندي ، *كنز العمال* ، ص. 2110.

(2) المتقي الهندي ، *كنز العمال* ، ص. 2110

(3) وأما وفاة مروان ، والسبب فيها أنه كان قد استقر الامر بعده لخالد بن يزيد بن معاوية على ما قدمنا ذكره ، فلما استوثق له الامر ، أحب أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ابنيه ، فاستشار في ذلك ، فأشير عليه أن يتزوج أم خالد بن يزيد ، وهي ابنه أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ليصغر شأنه فلا يرشح للخلافة ، فتزوجها. ثم قال لخالد يوما في كلام دار بينهما والمجلس غاص بأهله : اسكت يا بن الرطبة ، فقال خالد : أنت لعمري مؤتمن وخبير . ثم قام باكيا من مجلسه ، وكان غلاما حينئذ ، فدخل على أمه ، فأخبرها ، فقالت له : لا يعرفن ذلك فيك ، واسكت فأنا أكفيك أمره. فلما دخل عليها مروان ، قال لها : ما قال لك خالد؟ قالت : وما عساه يقول؟ قال : ألم يشكني إليك قالت : إن خالدا أشد إعظاما لك من أن يشتكيك ، فصدقها. ثم مكثت أياما ، فنام عندها وقد واعدت جواريها ، وقمن إليه ، فجعلن الوسائد ==

والبراذع عليه، وجلسن عليه حتى خنقنه، وذلك بدمشق في شهر رمضان. (شرح ابن أبي الحديد، 6: 165). نادى مروانُ أن لا يُتبع أحد. ثم أقبل إلى دمشق فدخلها ونَزل دارَ مُعاوية بن أبى سفيان دارَ الإمارة، ثم جاءته بيعة الأجناد، فقال له أصحابه: إنا لا نتخوَّف عليك إلا خالدَ بن يزيد، فتزوَّجْ أمه، فإنك تَكْسِره بذلك، وأمه ابنة أبي هاشم بن عُتبة بن ربيعة. فتزوَّجها مروان، فلما أراد الخروجَ إلى مصر قال لخالد: أعرْني سلاحاً إن كان عندك، فأعاره سلاحاً، وخَرج إلى مصر، فقاتل أهلَها وسَبى بها ناساً كثيراً، فافتدوا منه. ثم قَدم الشام، فقال له خالدُ بن يزيد: رُدَّ عليَّ سلاحى. فأبى عليه. فألحّ عليه خالد. فقال له مَروان، وكان فَحّاشا: يا بن رَطْبة الإست. قال: فدخل إلى أمه فبكى عندها وشكا إليها ما قاله مروانُ على رؤوس أهل الشام. فقالت له: لا عليك، فإنه لا يعود إليك بمثلها. فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياماً، ثم جاء إلى أم خالد فرقد عندها، فأمرت جواريها فطَرحْن عليه الوسائد، ثم غَطّته حتى قتلته، ثم خَرجن فصِحْن وشَقَقنَ ثيابهن: يا أمير المؤمنين! يا أمير المؤمنين! ثم قام عبدُ الملك بالأمر بعده، فقال لفاختة أم خالد: والله لولا أن يقول الناس إنى قتلتُ بأبى امرأةً لقتلتُكِ بأمير المؤمنين. (ابن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، 643). قال: وكان [مروان] قد أطمع خالد بن يزيد، ثم بدا له، وعقد لولديه عبد الملك وعبد العزيز، فأخذ يضع منه ويزهد الناس فيه، وكان يجلس معه، فدخل يوماً فزبره وقال: تنح يا ابن رطبة الإست، والله مالك عقل، فأضمرت أمه السوء لمروان، فدخل عليها فقال: هل قال لك خالد شيئاً؟ فأنكرت، وكان قد تزوج بها، فقام، فوثبت هى وجواريها فعمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه، وغمرته هى والجواري حتى مات، ثم صرخن وقلن مات فجأة. (الذهبى، *تاريخ الإسلام*، 613). وفيها توفي الخليفة مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو عبد الملك القرشى الأموي، ويقال أبو القاسم وأبو الحكم ؛ ولد بمكة بعد عبد الله بن الزبير بأربعة أشهر. قال الذهبى: ولم يصح له سماع عن رسول الله ﷺ، لكن له رؤية إن شاء الله. قلت: وهو ابن عم عثمان بن عفان وكاتبه ؛ ومن أجله كان ابتداء فتنة عثمان رضي الله عنه وقتله، ثم انضم ==

يزيد بن معاوية : يا ابن رطبة الاست[1] !

يلخّص القاضي التنوخي في *"الفرج بعد الشدة"*[2] ، سيرة عبد الملك ؛ فيقول : " أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي 26 – 86 ؛ استعمله معاوية على المدينة ، وهو ابن ست عشرة سنة ، وكان أحد فقهاء المدينة المعدودين ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه ، وقد ناهز الأربعين ، فلما بشر بها ، أطبق المصحف ، وقال : هذا فراق بيني وبينك[3] . من محاسنه أنه نقل الدواوين من الفارسية ، والرومية ، إلى العربية ، وسك الدنانير في الإسلام ، ومن سيئاته أنه سلط الحجاج بن

إلى ابن عمه معاوية بن أبي سفيان وتولى عدة أعمال ، إلى أن وثب على الأمر بعد أولاد يزيد بن معاوية أعنى معاوية وخالداً وبويع بالخلافة فلم تطل مدته ومات في أول شهر رمضان. وفي سبب موته خلاف كثير؛ وعهد بالخلافة من بعده إلى ابنه عبد الملك ، ثم من بعده إلى ابنه عبد العزيز أمير مصر ؛ وكان أولاً أراد أن يعهد لخالد بن يزيد بن معاوية فإنه كان خلعه من الخلافة وتزوج بأمه ، ثم بدا له أن يعهد لولديه عبد الملك وعبد العزيز ؛ ثم ما كفاه فزبره وقال: تنح يا بن رطبة الإست! والله ما لك عقل ؛ وبلغ أم خالد ذلك فأضمرت له السوء ؛ فدخل مروان عليها وقال لها: هل قال لك خالد شيئاً ؛ فأنكرت فنام عندها ، فوثبت هى وجواريها فعمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه وغمرته هى والجوارى حتى مات ، ثم صرخن وقلن: مات فجأة. (ابن تغري بردي ، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* ، 67).

(1) عمر رضا كحالة ، *أعلام النساء* ، 2: 93 .

(2) ص. 29.

(3) *تاريخ الخلفاء* ، 217 ؛ *الفخري* ، 122 ؛ *فوات الوفيات* ، 2 -32

يوسف الثقفي، الظالم السيء الصيت، على الناس، فولاه الحجاز أولاً، ثم العراق، فقتل العباد، وخرب البلاد[1]، وهو أول من غدر في الإسلام، آمن عمرو بن سعيد الأشدق، ثم قتله[2]، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف في الإسلام، قال في إحدى خطبه: والله، لا يأمرني أحد بتقوى الله، إلا ضربت عنقه[3]، ومنع أهل الشام من الحج إلى مكة، وبنى قبة الصخرة في بيت المقدس، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها، بدلاً من لكعبة، وأقام الناس على ذلك أيام بني أمية[4]، وقد لخص عبد الملك سياسته، في خطبة له، قال: إن من كان قبلي من الخلفاء، كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أداوي أدواء هذه الأمة لا بالسيف[5]؛ ولما حضره الموت جعل يضرب على رأسه بيده، ويقول: وددت أني كنت منذ ولدت إلى يومي هذا حمالاً"[6].

(1) أحسن التقاسيم، 133؛ واسطة السلوك، 29؛ السيادة العربية، 44.

(2) العقد الفريد، 1: 79، و4: 409.

(3) [illegible]، 2: 33؛ تاريخ الخلفاء، 219.

(4) اليعقوبي، 2: 261.

(5) تاريخ الخلفاء، 218.

(6) تاريخ الخلفاء، 220؛ ابن الأثير، 4: 521؛ راجع أخباره في: تاريخ الخلفاء، 216-220؛ العقد الفريد، 4: 25، و399، و5: 103، و6: 49؛ تاريخ اليعقوبي، 2: 273؛ المجموعات الكاملة، 42؛ القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص 29.

قال عنه الراغب الأصبهاني في *محاضراته*[1] : "لو يكن من مساوئ عبد الملك إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين، أو على الصحابة (رض)، يهينهم ويذلّهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً؛ وقد قتل من الصحابة وكبار التابعين ما لا يحصى فضلاً على غيرهم، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة، يريد بذلك ذلّهم".

يؤكّد مؤرخون كثر على ما قاله التنوخي من أنه "لما سلّم على عبد الملك بن مروان بالخلافة، كان في حجره مصحف، فأطبقه، وقال: هذا فراق بيني وبينك"[2]. و"كان مروان بن الحكم ولّى العهد عمرو بن سعيد بن العاص بعد ابنه، فقتله عبد الملك؛ وكان قتله أول غدر في الإسلام؛ فقال بعضهم:

تلاعبوا بكتاب الله، فاتخذوا   هواهم في معاصي الله قربانا"[3]

اشتهر عن هذا الخليفة الإسلامي ولعه بالشراب والنساء؛ يقول الجاحظ في *التاج*: "وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرّة

---

(1) 1 : 147.

(2) *تاريخ بغداد* أو *مدينة السلام* للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، 10 : 390؛ 14 مجلّداً؛ طبع للمرّة الأولى بنفقة مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربيّة ببغداد ومطبعة السعادة بجوار محافظة مصر 1349 هـ 1931 م؛ وقف على طبعه وتنسيقه وصنعه وترقيمه، محمد أمين الخانجي. راجع أيضاً: *محاضرات* الراغب 1 : 145.

(3) *السابق*، 145 -146.

حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء؛ ويقول: إنما أقصد في هذا إشراف العقل وتقوية منة الحفظ وتصفية موضع الفكر. غير أنه كان إذا بلغ آخر هذا السكر، أفرغ ما كان في بدنه حتى لا يبقى في أعضائه منه شيء. فيصبح خفيف البدن ذكي العقل والذهن نشيط النفس قوي المنة"[1]. وفي *محاضرات* الراغب، نقرأ أن أم الدرداء قالت "لعبد الملك: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة؟ قال: أي والله! والدماء قد شربتها"[2]. وفي *المرجع السابق*، نقرأ: "حضر نصيب عند عبد الملك بن مروان، فدعاه إلى الشراب؛ فقال: إني لم أصل إليك بنفسي ولا بحسن صورتي وإنما قربت منك بعقلي؛ فإن رأى الأمير أن لا يحول بيني وبينه فعل"[3].

كان أول خليفة إسلامي اشتهر عنه المغالاة في اقتناء النساء، عبد الملك بن مروان؛ نقرأ في بعض المراجع: "يحكى عن عبد الملك بن مروان أن صاحب إفريقية أهدى إليه جارية تامّة المحاسن شهيّة المتأمل، فلمّا دخلت على عبد الملك بن مروان، نظر إليها وفي يده قضيب خيزران. فصعد إليها بصره وصوّبه، ثم رمى بالقضيب؛ وقال: ردّيه علي! فولّت. فنظر إليها مقبلة ومدبرة. فقال: أنت والله أمنية المتمني!

(1) *التاج* 151 -152 .

(2) ص. 144.

(3) *محاضرات*، 1: 323 .

قالت: فما عينك يا أمير المؤمنين إذا كانت هذه صفتي عندك؟ قال: بيت قاله الأخطل:

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم   دون النساء ولو باتت بأطهار

وكان هذا في خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. ثم أمر بها أن تُصان وتُخدم. فلما فتح عليه، كانت أوّل جارية دعا بها "[1].

يروي الراغب في *محاضراته* قصة أخرى عن هذا الخليفة في الإطار ذاته: " اشترى عبد الملك جارية، فلمّا خلا بها؛ قالت: أمير المؤمنين... إن ابنك فلان قد اشتراني وخلا بي ليلة فلا يحلّ لك مسّي! فاستحسن قولها وولاّها أمر داره"[2]. وهكذا، يظهر أن الخليفة صار خبيراً في أصناف النساء؛ نقل عنه الراغب قوله: "من أراد أن يتخذ جارية للتلذّذ فليتخذها بربريّة، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسيّة، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها روميّة"[3].

بعد أن استعرضنا شطراً بسيطاً من حياة عبد الملك بن مروان خاصة بعد توليه الخلافة، وأظهرنا بشواهد موثقة أنه، كسائر خلفاء بني أمية، لم يكن مسلماً بالمعنى الأبسط للكلمة، بل استخدم الإسلام

---

(1) *التاج*، 175؛ *محاسن الملوك*، 106.

(2) *محاضرات*، 2: 102.

(3) *السابق*، ص. 148.

كدين في خدمته كحاكم، نتوقف الآن عند مسألة علاقته بالصخرة المقدسة، الإيفين شيتياه، ومسجد الصخرة، والأسباب السياسية التي أوصلته إلى ذلك.

يقول العصامي في *سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي*: "في تاريخ ابن خلكان: أن ابن الزبير لما ولي الخلافة بمكة ولّى أخاه عبيد الله ابن الزبير المدينة، ولم يزل يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين، فلما ولي عبد الملك، منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير؛ لأنه كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا، فضج الناس لما منعوا من الحج، فبنى عبد الملك قبة على صخرة بيت المقدس ومساجد الأمصار"[(1)].

يقول أحد الأعمال التراثية البارزة: "ابتدأ عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى، وكملت عمارته في سنة ثلاث وسبعين. وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة، ومقام الناس بمكة، وينال من عبد الملك ويذكر مساوئ بني مروان، ويقول: إن النبي ﷺ لعن الحكم وما نسل، وأنه طريد رسول الله ﷺ ولعينه، وكان يدعو إلى نفسه، وكان فصيحاً، فمال معظم أهل الشام إليه.

---

(1) العصامي، *سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي*، ص. 629.

وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فبنى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج ويستعطف قلوبهم، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة وينحرون يوم العيد ويحلقون رؤوسهم، ففتح بذلك على نفسه بأن شنع ابن الزبير عليه، وكان يشنع عليه بمكة ويقول: ضاهى بها فعل الأكاسرة في إيوان كسرى، والخضراء، كما فعل معاوية. ولما أراد عبد الملك عمارة بيت المقدس وجه إليه بالأموال والعمال، ووكل بالعمل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه، وجمع الصناع من أطراف البلاد وأرسلهم إلى بيت المقدس، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة، وأمر رجاء بن حيوة ويزيد أن يفرغا الأموال إفراغاً ولا يتوقفا فيه"[1].

عند اليعقوبي في *تاريخه* رواية مماثلة؛ يقول: "ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم، إذا حجوا، بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة، فضج الناس، وقالوا: تمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فرض من الله علينا! فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال: لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي،

(1) ابن كثير، *البداية والنهاية*، 3086.

ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه عليها، لما صعد إلى السماء، تقوم لكم مقام الكعبة، فبنى على الصخرة قبة، وعلق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، وأقام بذلك أيام بني أمية"[1].

عند الدميري رواية أخرى مطابقة: "وفيه أيضاً أنه لما ولي عبد الله بن الزبير الخلافة بمكة، ولى أخاه مصعب بن الزبير المدينة، وأخرج منها مروان بن الحكم وابنه، فصار إلى الشام ولم يزل يقيم للناس الحج من سنة أربع وستين إلى سنة اثنتين وسبعين، فلما ولي عبد الملك بن مروان منع أهل الشام من الحج من أجل ابن الزبير، لأنه كان يأخذ الناس بالبيعة له إذا حجوا، فضج الناس لما منعوا من الحج، فبنى عبد الملك قبة الصخرة فكان الناس يقفون عندها يوم عرفة"[2].

يقول ابن تغري بردي: "وهي سنة اثنتين وسبعين: فيها بنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة بالقدس والجامع الأقصى، وقد ذكرناه في الماضية، والأصح أنه في هذه السنة. وسبب بناء عبد الملك أن عبد الله بن الزبير لما دعا لنفسه بمكة فكان يخطب في أيام منى وعرفة وينال من

(1) *تاريخ اليعقوبي*، 214.
(2) *حياة الحيوان الكبرى*، 412.

عبد الملك ويذكر مثالب بني أمية، ويذكر أن جده الحكم كان طريد رسول الله ﷺ ولعينه، فمال أكثر أهل الشام إلى ابن الزبير؛ فمنع عبد الملك الناس من الحج فضجوا، فبنى لهم القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليصرفهم بذلك عن الحج والعمرة، فصاروا يطوفون حول الصخرة كما يطوفون حول الكعبة وينحرون يوم العيد ضحاياهم؛ ... وصار أخوه عبد العزيز بن مروان صاحب مصر يعرف بالناس بمصر ويقف بهم يوم عرفة"[1].

ونقرأ أيضاً: "وعبد الملك بن مروان هو الذي بنى القبة في أعلى الصخرة، فأبرز الأموال ووكّل على ذلك رجاء بن حَيْوة ويزيد بن سلام، وحشر لذلك الصناع وأمرهم أن يفرغوا عليها المال إفراغاً دون أن ينفقوه إنفاقاً. وتبقى من المال بعد بنائها مائة ألف، فأمر بها عبد الملك جائزة لهما فكتبا إليه: نحن أولى أن نزيده من حُلِيَ نسائنا فضلاً عن أموالنا، فَصَرِّفها فيما شِئْتَ، فكتب إليهما: تسبك وتفرغ على

(1) *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ص. 74. أنظر أيضاً من أجل بناء عبد الملك لقبة الصخرة: *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، المقدسي البشاري، 63؛ *معجم البلدان*، ياقوت الحموي، 1637؛ *تاريخ ابن خلدون*، 546؛ *المختصر في أخبار البشر*، 22؛ *الروض المعطار في خبر الأقطار*، محمد بن عبد المنعم الحميري، 71؛ *معجم البلدان*، ياقوت الحموي، 841؛ *تاج المفرق في تحلية علماء المشرق*، البلوي، 48؛ *المسالك والممالك*، أبو عبيد البكري، 125.

القبة، فما كان يقدر أحد إن يتأملها لما عليها من الذهب وكان لها خفاءان: خفاء من لبود وخفاء من أدم من فوقه تلبسها في الشتاء والصيف، لتكنها من الأمطار والرياح والثلوج"[1].

هنالك من قال إن الوليد بن عبد الملك هو من بنى القبة: "وعليها قبة عالية، بناها الوليد بن عبد الملك حين بنى المسجد الأقصى"[2]. لكن الحقيقة أن من بناها كان عبد الملك؛ وفي ذلك يقول الدميري: "وقوله أن الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر. وإنما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان في أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج، خوفاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له، فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير رضي تعالى عنهما. كما سيأتي إنشاء الله تعالى عن ابن خلكان وغيره. ولعلها تشعثت فهدمها الوليد وبناها، والله تعالى أعلم"[3].

ويقول مرجع آخر: "وأسلّم أن الصخرة هي في وسط المسجد، على الصحن الكبير المرتفع في أرض المسجد، وعليها بناء في آية الحسن

---

(1) أبو عبيد البكري، *المسالك والممالك*، ص. 130.

(2) القلقشندي، *صبح الأعشى*، 566؛ راجع: *المختصر في أخبار البشر*، أبو الفداء، 22؛ *تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام*، ابن الضياء، 140؛ *حياة الحيوان الكبرى*، الدميري، 63.

(3) *حياة الحيوان الكبرى*، 64.

والإتقان وهي قبة مرتفعة، قال الدميري في حياة الحيوان أن الوليد بنى قبة الصخرة في بيت المقدس، ناقلاً ذلك عن الحافظ ابن عساكر، ثم قال وفيه نظر، وإنما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان، في أيام فتنة ابن الزبير، لما منع عبد الملك ابن مروان أهل الشام من الحج خوفاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له، فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير، ولعلها تشعثت فهدمها الوليد وبناها، انتهى"[1].

على نحو غير مباشر يؤكّد الذهبي على ما ورد آنفاً: "وقال إسماعيل بن عبيد الله: كان عبد الملك بن مروان جالساً في صخرة بيت المقدس، وأم الدرداء معه جالسةٌ، حتى إذا نودي للمغرب قام، وقامت تتوكأ على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد فتجلس مع النساء، ومضى عبد الملك إلى المقام فصلى بالناس"[2]؛ و"حدّثنا أبو زرعة قال: وحدثني هشام قال: حدثنا الهيثم بن عمران قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول: كانت أم الدرداء تتكىء على عبد الملك بن مروان إذا خرجت من صخرة بيت المقدس"[3].

---

(1) عبد الغني بن اسماعيل النابلسي، *الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية*، ص. 0.
(2) الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ص. ص. 725، 432.
(3) أبو زرعة، *تاريخ أبي زرعة الدمشقي*، ص. 31.

"وعن ابن حليس أن عبد الملك سأل نوفل البكالي هل سمعت في بيت المقدس شيئاً؟ قال نوف: في كتاب الله عز وجل المنزّل أن الله عز وجل يقول: فيك ستّ خصال، فيك مقامي، وحسبي، ومحشري، وجنتي، وناري، وميزاتي"[1].

(1) المصدر السابق.

الحجّاج... وسورة الإسراء!

الحَجاج بن يوسف الثقفي (توفى 95 هـ)، هو أشهر قائد أموي في العراق والحجاز، كان له دور أساسي في استقرار وتحكيم الدولة الأموية. ومن كثرة ما أدّى خدمات خاصة لعبد الملك بن مروان، أوصى الأخير ابنه الوليد أن يهتم بالحجاج، كما وسمّى أحد أبنائه باسم الحجاج.

لكن الحجاج اشتهر بالظلم وسفك الدماء، وقد بالغ في قتل أعدائه ومعارضيه حتى قيل إن عبد الملك بن مروان نهاه عن ذلك. وقد أحصى المؤرخون عدد ما قتلهم الحجاج الثقفي ظلماً صبرا سوى من قتل في حروبه، فكانوا مائة وعشرين ألفاً[1]؛ وقيل: مائة وثلاثون ألفاً[2]، وكان أشهر من قتلهم الحجاج التابعي سعيد بن جبير. كما ذكر المؤرخون أن الحجاج الثقفي اتخذ سجوناً لا تقي من حر ولا برد، وقد مات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة

(1) العسقلاني، *تهذيب التهذيب*، ج 2، ص 211.
(2) الدميري، *حياة الحيوان الكبرى*، ج 1، ص 171.

عشر ألفاً من غير المتزوجات[1] ؛ وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد. قال الدميري: كان الحجاج لا يصبر عن سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره[2].

كان أبوه يوسف بن حكم الثقفي، أحد سادات ثقيف وأشرافهم[3]، وكانت له صلة وثيقة بآل مروان بن الحَكَم الأموي، وشارك في حروبه وحروب عبد الملك بن مروان، كما وكان أميراً على بعض المناطق إبان حكم عبد الملك، وأخيراً توفي في أيام حكم الحجاج على المدينة[4].

كان الحجّاج ينتقص من مكانة النبي ؛ يُنقَل . قوله فيمن كانوا يزورون قبر النبي في المدينة: تبّاً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هلاّ طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك، ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله[5].

لكن أشهر ما قام به الحجاج هو حصاره البيت الحرام ستة أشهر وسبع عشرة ليلة حين استجار به ابن الزبير، وبعدها رمى الكعبة بالمنجنيق من جبل أبي قبيس، وكان قومه يرمونها ويرتجزون:

---

(1) *السابق*، ص. 170.

(2) *السابق*، ص. 167.

(3)ابن خلدون، *مقدمة ابن خلدون*، ص 40.

(4) الدينوري، *المعارف*، ص 395 - 396.

(5) ابن أبي الحديد، *شرح نهج البلاغة*، ج 4، ص 58.

خطـارة مثـلُ الفنيـق المُزبـد　　　نرمي بها أعواد هـذا المسجدِ[1]

وذلك أثناء حكم مروان بن الحكم.

ساهم الحجاج وأبوه، زمن خلافة مروان بن الحكم، في نزع مصر من سلطة عبد الله بن الزبير، وضمها إلى الخلافة الأموية[2]. لكن جيش مروان انهزم أمام ابن الزبير حين حاول استرداد الحجاز منه. وكان الحجاج ضمن هربوا في المعركة قرب الربذة[3].

مات مروان بن الحكم بعد ما قتلته زوجته لأنه قال لابنها من يزيد: يا ابن رطبة الإست[4]. وكان أمير المؤمنين، ما تذكر كثير من المراجع، "فحاشاً".

---

(1) ابن عساكر، *تهذيب تاريخ دمشق*، ج 4، ص 50

(2) الطبري، *تاريخ الطبري*، ج 5، ص 530 ـ 540؛ العمد، *الحجاج بن يوسف الثقفي*، ص 102.

(3) الطبري، *تاريخ الطبري*، ج 5، ص 611 -612.

(4) راجع، مثلاً: ابن عبد ربه الأندلسي، *العقد الفريد*، ص. 643؛ الذهبي، *تاريخ الإسلام*، ص. 613؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ص. 67.

في فترة حكم عبد الملك بن مروان(1) ، كان الحجاج رئيس شرطة

(1) كان عبد الملك لما بويع بالشام بعث إلى المدينة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام وأمره أن يسكن بالعرصة ولا يدخل المدينة ، وعامل ابن الزبير يومئذ على المدينة الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر الجمحي ، فهرب الحارث وأقام ابن أنيف شهراً يصلي بالناس الجمعة بالمدينة ويعود إلى معسكره. ثم رجع ابن أنيف إلى الشام ورجع الحارث إلى المدينة. وبعث ابن الزبير سليمان بن خالد الدورقي على خيبر وفدك. ثم بعث عبد الملك إلى الحجاز عبد الملك بن الحارث بن الحكم في أربعة آلاف ، فنزل وادي القرى ، وبعث سريةً إلى سليمان بخيبر ، وهرب وأدركوه فقتلوه ومن معه. وأقاموا بخيبر وعليهم ابن القمقام. وذكر لعبد الملك ذلك فاغتم وقال : قتلوا رجلاً صالحاً بغير ذنب.

ثم عزل ابن الزبير الحارث بن حاطب عن المدينة ، وولى مكانه جابر بن الأسود بن عوف الزهري ، فبعث جابر إلى خيبر أبا بكر بن أبي قيس في ستمائة ، فانهزم ابن القمقام وأصحابه أمامه وقتلوا صبراً. ثم بعث عبد الملك طارق بن عمر مولى عثمان ، وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي القرى ، ويعمل كما يعمل عمال ابن الزبير من الانتشار ، وليس خللاً ، إن ظهر له بالحجاز ، فبعث طارق خيلاً إلى أبي بكير بخيبر واقتتلوا ، فأصيب أبو بكير في مائتين من أصحابه ، وكتب ابن الزبير إلى القباع وهو عامله على البصرة يستمده ألفي فارس إلى المدينة. فبعثهم القباع وأمر ابن الزبير جابر بن الأسود أن يسيرهم إلى قتال طارق ففعل ، ولقيهم طارق فهزمهم وقتل مقدمهم. وقتل من أصحابه خلقاً وأجهز على جريحهم ولم يستبق أسيرهم ، ورجع إلى وادي القرى.

ثم عزل ابن الزبير جابراً عن المدينة ، واستعمل طلحة بن عبد الله بن عوف ، وهو طلحة الندى وذلك سنة سبعين. فلم يزل على المدينة حتى أخرجه طارق. ولما قتل عبد الملك مصعباً ودخل الكوفة ، وبعث منها الحجاج بن يوسف الثقفي في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال ابن الزبير ، وكتب معه بالأمان لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا. فسار في جمادى سنة اثنتين وسبعين ، فلم يتعرض للمدينة ، ونزل الطائف. ==

أبان بن مروان، شقيق عبد الملك ووالي فلسطين[1]؛ ثمّ صار أحد رجال شرطة روح بن زنباع الجذامي، وزير الخليفة والأقرب إليه، الذي أشار على عبد الملك تعيين الحجاج على الشرطة، فقبل الاقتراح، فجدّ واجتهد الحجاج في عمله حتى قربه عبد الملك من نفسه[2].

الحجّاج... وابن الزبير:

"بويع عبد الله بن الزبير بالخلافة بعد موت يزيد، وأطاعه أهل الحجاز، واليمن، والعراق، وخراسان، وجدد عمارة الكعبة، وأدخل فيها الحجر، فلما قتل ابن الزبير أمر عبد الملك بن مروان أن تعاد عمارة الكعبة إلى ما كانت أولاً، ويخرج الحجر منها. ففعل ذلك فهي هذه العمارة الباقية.

وكان يبعث الخيل إلى عرفة، ويلقاهم هناك خيل ابن الزبير فينهزمون دائماً، وتعود خيل الحجاج بالظفر. ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه، ويستأذنه في دخول الحرم لحصار ابن الزبير ويستمده، فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج، فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عنها طلحة النداء عامل بن الزبير، وولى مكانه رجلاً من أهل الشام، وسار إلى الحجاج بمكة في خمسة آلاف.

ولما قدم الحجاج مكة أحرم بحجه ونزل بئر ميمون، وحج بالناس ولم يطف ولا سعى، وحصر ابن الزبير عن عرفة فنحر بدنة بمكة ولم يمنع الحاج من الطواف والسعي". (ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، ص. 773).

(1) الدينوري، *المعارف*، ص 354 -396.

(2) ابن عبد ربه، *العقد الفريد*، ج 5، ص 14.

ويقي ابن الزبير خليفةً إلى أن ولي عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فلما استقام له الشام ومصر جهز العساكر، فسار إلى العراق فقتل مصعب بن الزبير[1]، وسيّر الحجاج بن يوسف إلى الحجاز، فحصر عبد الله بن الزبير بمكة، أول ليلة من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين، وحجّ بالناس الحجاج ولم يطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، ونصب منجنيقاً على جبل أبي قبيس فكان يرمي الحجارة إلى المسجد، ولم يزل يحاصره إلى أن قتل في النصف من جمادى الآخرة، من سنة ثلاث وسبعين.

(1) كان للحجاج دور مهم في تعبئة الشاميين عام 72 للذهاب إلى العراق والحرب مع مصعب بن زبير، وكان وقتها أحد قادة جيش عبد الملك بن مروان. وقُتل مصعب في هذه الحرب وأصبحت العراق تحت راية الخلافة الأموية.(المسعودي، *مروج الذهب*، ج 3، ص 90 - 94). حول مقتل مصعب، نقرأ أيضاً: "وفيها وقعة دير الجاثليق بالعراق: وكانت وقعة هائلة بين مصعب وعبد الملك، وذلك أن عبد الملك أفسد جيش مصعب بالأطماع؛ ولما استظهر عبد الملك أرسل إلى مصعب بالأمان فأبى وقال: مثلي لا ينصرف إلا غالباً أو مغلوباً! فأثخنوه بالرمى ثم شد عليه زياد بن عمرو بن حيسة فطعنه، وقال: يالثارات المختار! وانصرف إلى عبد الملك. وقتل مع مصعب ولداه عيسى وعروة وإبراهيم بن الأشتر النخعي سيد النخع وفارسها ومسلم بن عمرو الباهلي؛ واستولى عبد الملك على العراق وولاها أخاه بشراً؛ وفيه يقول الشاعر: قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق وبعث الأمراء إلى الأمصار، وبعث الحجاج إلى مكة لحرب ابن الزبير، فقتله واستوى الأمر لعبد الملك من غير معارض." (ابن العماد، *شذرات الذهب*، ص. 37).

قال عروة بن الزبير: لما اشتد الحصر على عبد الله قبل قتله بعشرة أيام، دخل على أمه أسماء [بنت أبي بكر] وهي شاكية، فقالت له: لعلك تمنّيته لي، ما أحبّ أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك، إما قتلت فأحتسبك، وإما ظفرت بعدوك فتقر عيني. فضحك.

فلما كان اليوم الذي قتل فيه دخل عليها فقالت له: يا بني، لا تقبلن منهم خطة تخاف فيها على نفسك الذل مخافة القتل، فوالله لضربةٌ بسيف في عز خيرٌ من ضربة بسوط في ذل. وخرج على الناس وقاتلهم في المسجد، فكان لا يحمل على ناحية إلا هزم من فيها من جند الشام، فأتاه حجر من ناحية الصفا، فوقع بين عينيه، فنكس رأسه وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا يقطر الدما

ثم اجتمعوا عليه فقتلوه. فلما قتلوه كبر أهل الشام، فقال عبد الله بن عمر، المكبرون عليه يوم ولد، خير من المكبرين عليه يوم قتل.

وقال يعلى بن حرملة: دخلت مكة بعد ما قتل ابن الزبير، فجاءت أمه امرأة طويلة عجوزاً مكفوفة البصر تقاد، فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل [كان مصلوباً]؟ فقال لها الحجاج: المنافق؟ قالت: والله ما كان منافقاً، ولكنه كان صوّاماً قواماً وصولاً. قال: انصرفي فإنك عجوز قد خرفت. فقالت: لا والله ما خرفت، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يخرج من ثقيف كذّابٌ ومبير" أما

الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت المبير. تعني بالكذاب المختار بن أبي عبيد.

وكان ابن الزبير كوسجاً واجتاز به ابن عمر وهو مصلوب، فوقف وقال: السلام عليك أبا خبيب. ودعا له ثم قال: أما والله إن أمة أنت شرّها لنعم الأمة. يعني أن أهل الشام كانوا يسمونه ملحداً ومنافقاً إلى غير ذلك"[1].

إذن، بعد أن استولى عبد الملك على الكوفة أرسل الحجاج على رأس جيش كان أكثرهم من الشاميين لقمع عبد الله بن الزبير في الحجاز[2].

نص هام تفصيلي حول مقتل عبد الله بن الزبير، وهو ابن الزبير بن العوام الذي قُتل في معركة الجمل مع عائشة، ابن عمة النبي وأحد المبشرين بالجنة، وأمه أسماء بنت الخليفة الأول المسماة بذات النطاقين، وخالته عائشة زوجة النبي. يقول النويري في فقرة حملت عنوان: مقتل عبد الله بن الزبير: "لما قتل مصعب بن الزبير تقدم الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت في المنام أني أخذت ابن الزبير وسلخته، فابعثني إليه، وولني حربه، فبعثه في

---

(1) ابن الأثير المؤرخ، *أسد الغابة*، ص. 611.

(2) البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 6، ص 204، 212، 242؛ راجع: البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 6، ص 204، 212، 242.

ألفين، وقيل في ثلاثة آلاف، فسار في جمادي الأولى سنة اثنتين وسبعين، ونزل الطائف[1]، وكان يبعث الخيل إلى عرفة في الحل بعد الطائف، ويبعث ابن الزبير الخيل فيقتلون فتنهزم خيل ابن الزبير، وتعود خيل الحجاج بالظفر.

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير، ويخبره بضعفه وتفرق أصحابه، ويستمده، فأمده بطارق بن عمرو مولى عثمان، وكان عبد الملك قد بعثه في جيش إلى وادي القرى ليمنع عمال ابن الزبير من الانتشار، فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عامل ابن الزبير منها، وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة، وقدم طارق مكة في ذي الحجة منها في خمسة آلاف، وتقدم الحجاج إلى مكة، فنزل عند بئر ميمون، وحج بالناس في تلك السنة. إلا أنه لم يطف بالبيت، ولا سعى بين الصفا والمروة؛ منعه عبد الله ابن الزبير من ذلك؛ ولم يحج ابن الزبير ولا أصحابه في تلك السنة. ونصب الحجاج المنجنيق[2] على أبي قبيس، ورمى به

(1) في جمادى الأولى من سنة 72هـ، خرج الحجاج من الكوفة وفي شعبان من السنة نفسها وصل الطائف، وعسكر هناك.(الطبري، *تاريخ الطبري*، ج6، ص174 - 175)، وتنقل بعض الأخبار أن سبب استقراره في الطائف هو أنه لم يؤمر في بادئ الأمر بالتعرض لمكة والمسجد الحرام.(البلاذري، *أنساب الأشراف*، ج 6، ص 220).

(2) "وفيها نازل الحجاج ابن الزبير فحاصره ونصب المنجنيق على ابن قبيس ودام القتال أشهراً وتفرق عن عبد الله أصحابه فأخبر أمه بذلك واستشارها فقالت: يا بني إن
==

الكعبة ، فقال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما للحجاج ، اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ، فإنك في شهر حرام في بلد حرام ؛ وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ، وقد منعهم المنجنيق عن الطواف. فكف حتى انقضى الحج ، ثم نادى في الناس : انصرفوا إلى بلادكم ، فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد.

قال : وأول ما رمى الكعبة بالمنجنيق رعدت السماء وبرقت ، وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا

كنت قاتلت لغير الله فقد هلكت وأهلكت وإن كان لله فلا تسلم نفسك فقاتلهم ولم يزل يهزمهم عند كل باب حتى أصابته رمية في رأسه فنكس رأسه وهو يقول:

ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

فلما سقط قالت جارية له : وا أمير المؤمنين! فعرفوه ولم يكونوا عرفوه من لباس الحديد فشدوا عليه من كل جانب وقتلوه قريباً من باب المسجد من ناحية الصفا وذلك في جمادى الأولى وطافوا برأسه في مصر وغيرها ؛ قال النووي في شرح مسلم: مذهب أهل الحق إن ابن الزبير كان مظلوماً والحجاج ورفقته خارجون عليه ؛ ودخل الحجاج على أمه بعد قتله : فقال كيف رأيتني صنعت بابنك؟ فقالت : أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك ، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في ثقيف مبيراً وكذاباً ؛ فأما الكذاب فرأيناه يعني المختار وأما المبير فلا أخالك إلا إياه...وتوفيت أم عبد الله بن الزبير بعد مصاب ابنها يسير وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي في عشر المائة وهي من المهاجرات الأول ومن أهل السوابق في الاسلام وهي ذات النطاقين رضي الله عنها". (ابن العماد ، *شذرات الذهب* ، ص. 37).

أيديهم، فأخذ الحجاج حجر المنجنيق ووضعه بيده ورمى به، فجاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج: أهل الشام، لا تنكروا هذا، فإني ابن تهامة، وهذه صواعقها، وهذا الفتح قد حضر، فأبشروا.

فما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت من أصحاب ابن الزبير عدة. فقال الحجاج: ألا ترون أنهم يصابون كما تصابون، وأنتم على الطاعة وهم على خلافها، وكان الحجر يقع بين يدي عبد الله ابن الزبير وهو يصلي، فلا ينصرف عن مكانه.

وغلت الأسعار عند ابن الزبير حتى ذبح فرسه، وقسم لحمه في أصحابه، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهماً، وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده، فكان لا ينفق[1] منه إلا ما يمسك الرمق ويقول: نفوس أصحابي قوية ما لم تفن.

فلما كان قبيل مقتله تفرق الناس عنه، وخرجوا إلى الحجاج بالأمان، فخرج من عنده نحو عشرة آلاف. وكان ممن فارقه ابناه حمزة وخبيب، أخذا لأنفسهما أماناً، فقال عبد الله لابنه الزبير: خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك، فوالله إني لأحب بقاءكم. فقال: ما كنت لأرغب بنفسي عنك، فقتل معه.

---

(1) اشتهر ابن الزبير بالبخل.

قال: ولما كان في الليلة التي قتل فيها عبد الله في صبيحتها جمع قريشاً فقام لهم: ما ترون؟ فقال رجل من بني مخزوم: والله، إنا قاتلنا معك حتى ما نجد مقتلاً، والله لئن سرنا معه ما نزيد على أن نموت، وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك، وإما أن تأذن لنا فنخرج.

فقال له رجل: اكتب إلى عبد الملك. فقال: كيف أكتب من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان ؟ فوالله لا يقبل هذا أبداً، أو أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين. من عبد الله بن الزبير ؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أهون علي من ذلك. فقال له عروة وهو جالس معه على السرير: قد جعل الله لك أسوة في الحسن بن علي رضي الله عنهما، خلع نفسه وبايع معاوية، فركضه برجله ورماه عن السرير، وقال: قلبي إذاً مثل قلبك، والله لو قلتها ما عشت إلا قليلاً وإن أضرب بسيف في عز خير من أن ألطم في ذل.

فلما أصبح دخل على امرأته أم هاشم فقال: اصنعي لي طعاماً. فلما صنعته وأتت به لاك منه لقمة ثم لفظها، وقال: اسقوني لبناً فسقوه، ثم اغتسل وتطيب وتحنط، ودخل على أمه[1]، فقال: يا

(1) "فدخل ابن الزبير على أمه أسماء وقال: يا أمه! قد خذلني الناس حتى ولدي والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنت على حق وتدعو إليه فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من ==

رقبتك وقد بلغت بها علمين بين بني أمية ؛ وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك ؛ وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين فقال: يا أمه أخاف أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت: يا بني الشاة إذا ذبحت لا تتألم بالسلخ ، فامض على بصيرتك واستعن بالله. فقبل رأسها وقال: هذا رأي ، والذي خرجت به ، داعياً إلى يومي هذا ، وما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة وما أخرجني إلا الغضب لله ، وأن تستحل حرماته ، ولكن أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتيني بصيرة ، وإني يا أمه في يومي هذا مقتول ، فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عمد بفاحشة ولم يجر ولم يغدر ولم يظلم ولم يقر على الظلم ، ولم يكن آثر عندي من رضا الله تعالى. اللهم لا أقر هذا تزكية لنفسي ، لكن تعزية لأمي حتى تسلو عني. فقالت: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك ، وإن ظفرت سررت بظفرك. ثم قالت: اخرج حتى أنظر ما يصير أمرك جزاك الله خيراً. قال: فلا تدعي الدعاء لي ، فدعت له وودعها وودعته ، ولما عانقته للوداع وقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد؟ فقال: ما لبستها إلا لأشد منك. فقالت إنه لا يشد مني فنزعها وقالت له البس ثيابك مشمرة.

ثم خرج فحمل على أهل الشام حملة منكرة ، فقتل منهم ثم انكشف هو وأصحابه ، وأشار عليه بعضهم بالفرار فقال: بئس الشيخ إذن أنا في الإسلام إذا واقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم. وامتلأت أبواب المسجد بأهل الشام ، والحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة ، وابن الزبير يحمل على هؤلاء وعلى هؤلاء وينادي أبا صفوان لعبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف ، فيجيبه من جانب المعترك. ولما رأى الحجاج إحجام الناس عن ابن الزبير ، غضب وترجل وحمل إلى صاحب الراية بين يديه ، فتقدم ابن الزبير إليهم وكشفهم عنه ، ورجع فصلى ركعتين عند المقام ، وحملوا على صاحب الراية فقتلوه عند باب بني شيبة وأخذوا الراية.

==

أماه، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك ؟ قالت له: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وأنت تدعو إليه فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من نفسك يتلعب بك غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ! فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. فقالت: يا بني، إن الشاة لا تألم السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك، واستعن بالله.

فقبل رأسها وقال: هذا رأيي، والذي خرجت به داعياً إلى يومي هذا. ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى

ثم قاتلهم وابن مطيع معه حتى قتل، ويقال أصابته جراحة فمات منها بعد أيام، ويقال إنه قال لأصحابه يوم قتل: يا آل الزبير أوطبتم لي نفساً عن أنفسكم كأهل بيت من العرب اصطلمنا في الله، فلا يرعكم وقع السيوف فإن ألم الدواء في الجرح أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم بما تصونون وجوهكم، وغضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرىء قرنه ولا تسألوا عني. ومن كان سائلاً فإني في الرعيل الأول. ثم حمل حتى بلغ الحجون، فأصابته حجارة في وجهه فأرعش لها ودمي وجهه. ثم قاتل قتالاً شديداً وقتل في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين". (ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، ص. 774).

الخروج إلا الغضب لله ، وأن تستحل حرماته ؛ ولكني أحببت أن أعلم رأيك ، فقد زدتني بصيرة ، فانظري فإني مقتول في يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي ، فرضيت به ؛ بل أنكرته ، ولم يكن أي آثر عندي من رضاء ربي. اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي ، ولكن أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني[1].

(1) "ومن العجب ما حدث به بعضهم ؛ قال : كنت أميراً على الجيش الذي بعث به يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن الزبير بمكة ، فدخلت مسجد المدينة فجلست بجانب عبد الملك بن مروان ، فقال لي عبد الملك : أنت أمير هذا الجيش! قلت : نعم. قال : ثكلتك أمك أتدري إلى من تسير؟ تسير إلى أول مولود ولد في الإسلام أي بالمدينة من أولاد المهاجرين وإلى ابن حواري رسول الله ﷺ وإلى ابن ذات النطاقين ، يعني أسماء ، وإلى من حنكه رسول الله ﷺ ؛ أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً ، وإن جئته ليلاً وجدته قائماً ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله في النار جميعاً ؛ فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه ، وذكر بعضهم أن عبد الملك بن مروان لما رأى جيش يزيد متوجها إلى مكة قال : أعوذ بالله أيبعث الجيش إلى حرم الله؟ فضرب منكبه شخص كان يهودياً وأسلم وكان يقرأ الكتب وقال له : جيشك إليه أعظم. ويقال إن هذا اليهودي مر على دار مروان والد عبد الملك هذا فقال : ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار ؛ أي لأن مروان كان سبباً لقتل عثمان وعبد الملك ابنه كان سبباً لقتل عبد الله بن الزبير... وسبب ولاية الحجاج على الجيش أنه قال لعبد الملك بن مروان : رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فولني قتاله ؛ فولاه فأرسله في جيش كثيف من أهل الشام فحضر ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق ولما رمى به أرعدت السماء وأبرقت فخاف أهل الشام
==

فقالت: إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك. اخرج عني حتى أنظر إلى ما يصير أمرك، فقال: جزاك الله خيراً؛ فلا تدعي الدعاء لي. قالت: لا أدعه لك أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق.

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبره بأبيه وبي. اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

فصاح الحجاج: هذه صواعق تهامة وأنا ابنها؛ ثم قام ورمى المنجنيق بنفسه فزاد ذلك ولم تزل صاعقة تتبعها أخرى حتى قتلت اثني عشر رجلاً، فخاف أهل الشام زيادة؛ قال بعضهم: ولا زال الحجاج يحضهم على الرمي بالمنجنيق ولم تزل الكعبة ترمى بالمنجنيق حتى هدمت وحرقت أستارها حتى صارت كالفحم ... وفي البخاري عن ابن عباس (رض) أنه قال ... قلت: أبوه الزبير وأمه أسماء وخالته عائشة وجده أبو بكر وجدته صفية؛ وفي رواية عنه أنه قال: أما أبوه فحواري رسول الله ﷺ يريد الزبير وأما جده فصاحب الغار يريد أبا بكر وأما أمه فذات النطاقين يريد أسماء وأما خالته فأم المؤمنين يريد عائشة وأما عمته فزوج النبي ﷺ يريد خديجة وأما عمة النبي ﷺ فجدته يريد صفية ثم عفيف في الإسلام وقارئ للقرآن؛ ولما قتل عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء فجمع الحجاج الناس وخطبهم وقال في خطبته: ألا إن ابن الزبير كان من أخيار هذه الأمة إلا أنه نازع الحق أهله إن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة" (نور الدين الحلبي، *السيرة الحلبية*، ص. 166).

فتناول يدها ليقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد. فقال لها: جئت مودعاً، لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امض على بصيرتك، وادن مني حتى أودعك، فدنا منها فعانقها، وقبل بين عينيها، فوقعت يدها على الدرع، فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد! فقال: ما لبسته إلا لأشد متنك. قالت: فإنه لا يشد متني، فنزعها، ثم درج كميه، وشد أسفل قميصه وجبة خز تحت السراويل، وأدخل أسفلها تحت المنطقة، وأمه تقول: البس ثيابك مشمرة.

فخرج من عندها وحمل على أهل الشام حملة منكرة، فقتل منهم، ثم انكشف هو وأصحابه، فقال له بعض أصحابه: لو لحقت بموضع كذا. فقال: بئس الشيخ أنا إذاً في الإسلام أن أوقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم.

ودنا أهل الشام حتى امتلأت منهم الأبواب، وكانوا يصيحون: يا ابن ذات النطاقين، فيقول: وتلك شكاة ظاهر عنك لؤمها.

وجعل أهل الشام على أبواب المسجد رجالاً، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم. وكان الحجاج وطارق بناحية الأبطح إلى المروة، وابن الزبير يحمل على هذه الناحية مرة وفي هذه أخرى، وكأنه أسد في أجمة ما تقدم عليه الرجال وهو يعدو في إثر القوم حتى يخرجهم، ثم يصيح يا أبا صفوان، ويل أمه فتحاً، لو كان له رجال. لو كان قرني واحداً كفيته.

فيقول أبو صفوان عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف: أي والله وألف.

فقال رجل من أهل الشام اسمه جلبوب: إنما يمكنكم أخذه إذا ولي. قال: فخذه أنت إذا ولي. قال: نعم، وتقدم ليحضنه من خلفه، فعطف عليه فقط ذراعيه فصاح، فقال: اصبر جلبوب.

قال: فلما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير غضب وترجل يسوق الناس ويصدم بهم، فصدم صاحب علم ابن الزبير وهو بين يديه، فتقدم ابن الزبير على صاحب علمه وقاتلهم حتى انكشفوا، ورجع فصلى ركعتين عند المقام، فحملوا على صاحب علمه، فقتلوه عند باب بني شيبة، وأخذوا العلم. فلما فرغ من صلاته تقدم فقاتل بغير علم، وقتل رجلاً من أهل الشام وآخر، وقاتل معه عبد الله بن مطيع، وهو يقول:

أنا الذي فررت يوم الحرة والحر لا يفر إلا مرة

واليوم أجزى فرة بكرة

وقاتل حتى قتل، ويقال: أصابته جراحة فمات منها بعد أيام.

قال: وقال عبد الله بن الزبير لأصحابه وأهله يوم قتل بعد صلاة الصبح: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم وعليكم المغافر، ففعلوا، فقال: يا آل الزبير، لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلمنا في الله فلا يرعكم وقع السيوف، فإن ألم الدواء للجراح أشد من

ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا تسألوا عني، فمن كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، احملوا على بركة الله

ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون فرمي بآجرة، رماه بها رجل من السكون، فأصابت وجهه فأرعش لها وسال الدم على وجهه، فقال رضي الله عنه وأرضاه:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أعقابنا تقطر الدما

وقاتلهم قتالاً شديداً، فتعاونوا عليه، فقتلوه، قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، فسجد. ووفد السكوني والمرادي إلى عبد الملك بالخبر؛ فأعطى كل واحد منهما خمسمائة دينار.

وقيل في قتله: إنه جاءه حجر المنجنيق وهو يقاتل فصرعه فاقتحم عليه أهل الشام، وذهبوا به إلى الحجاج فحز رأسه بيده.

وكان مقتله ـ رضي الله عنه ـ في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى سنة ثلاث وسبعين وقيل في جمادى الآخرة منها، وله ثلاث وسبعون سنة.

ولما قتل رضي الله عنه كبر أهل الشام فرحاً بقتله؛ فقال عبد الله ابن عمر: انظروا إلى هؤلاء. انظروا إلى هؤلاء. لقد كبر المسلمون فرحاً بولادته[1]، وهؤلاء يكبرون فرحاً بقتله.

---

(1) كان ابن الزبير أول مولود في الإسلام. ابن عبد البر، *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*، بيروت: دار الجيل، صفحة 906 -905، جزء 3.

ويعث الحجاج برأسه[1] ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة. ثم إلى عبد الملك وصلب جثته منكسة على الثنية اليمنى بالحجون، فأرسلت إليه أسماء تقول: قاتلك الله! على ماذا صلبته؟ قال: استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة، فكانت له. فاستأذنته في تكفينه ودفنه. فأبى.

---

(1) "وحمل رأسه إلى الحجاج فسجد، وكبر أهل الشام، وثار الحجاج وطارق حتى وقفا عليه، وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى عبد الملك. وصلب جثته منكسة على ثنية الحجون اليمنى. وبعثت إليه أسماء في دفنه فأبى، وكتب إليه عبد الملك يلومه على ذلك، فخلى بينها وبينه. ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة وسبق الحجاج إلى عبد الملك، فرحب به وأجلسه على سريره، وجرى ذكر عبد الله فقال عروة: إنه كان فقال عبد الملك وما فعل. قال قتل فخر ساجداً.ثم أخبره عروة أن الحجاج صلبه فاستوهب جثته لأمه. فقال نعم: وكتب إلى الحجاج ينكر عليه صلبه، فبعث بجثته إلى أمه وصلى عليه عروة ودفنه وماتت أمه بعده قريباً.

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل إلى مكة فبايعه أهلها لعبد الملك، وأمر بكنس المسجد من الحجارة والدم، وسار إلى المدينة وكانت من عمله فأقام بها شهرين، وأساء إلى أهلها وقال: أنتم قتلة عثمان. وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم كما يفعل بأهل الذمة. منهم جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد. ثم عاد إلى مكة ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها إلى الله، وقيل إن ولاية الحجاج المدينة وما دخل منها كانت سنة أربع وسبعين، وأن عبد الملك عزل عنها طارقاً واستعمله، ثم هدم الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير، وأخرج الحجر منه وأعاده إلى البناء الذي أقره عليه النبي ﷺ، ولم يصدق ابن الزبير في الحديث الذي رواه عن عائشة. فلما صح عنده بعد ذلك قال وددت أني تركته وما تحمل". (ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، ص. 775).

وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه، فكتب إليه يلومه، ويقول: ألا خليت بينه وبين أمه. فأذن لها الحجاج فدفنته بالحجون.

وكان قبل مقتله بقي أياماً يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن إن هو صلب، فلما صلب ظهر منه ريح المسك، فقيل: إن الحجاج صلب معه كلباً ميتاً. وقيل، سنوراً، فغلب على ريح المسك.

ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة بن الزبير ناقة لم ير مثلها وسار إلى عبد الملك فسبق رسل الحجاج، فاستأذن على عبد الملك فأذن له، فلما دخل عليه سلم عليه بالخلافة، فرحب به وأجلسه معه على السرير، فقال عروة:

نمت بأرحام إليك قريبة ولا خير في الأرحام ما لم تقرب

وتحدث حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان. فقال عبد الملك: وما فعل؟ قال: قتل؛ فخر ساجداً. فقال عروة: إن الحجاج صلبه. فهب جثته لأمه. قال: نعم.

وكتب إلى الحجاج فعظم صلبه.

وكان الحجاج لما فقد عروة كتب إلى عبد الملك: إن عروة كان مع أخيه. فلما قتل عبد الله أخذ مالاً من مال الله وهرب.

فكتب إليه عبد الملك يقول: إنه لم يهرب، ولكنه أتاني مبايعاً، وقد أمنته وحللته مما كان منه، وهو قادم عليك، فإياك وعروة.

فعاد عروة إلى مكة فكانت غيبته عنها ثلاثين يوماً. فأنزل الحجاج

جثة عبد الله عن الخشبة وبعث بها إلى أمه فغسلته. فلما أصابه الماء تقطع فغسلته عضواً عضواً. وصلى عليه عروة وقيل غيره.

وقيل: لم يصل عليه أحد؛ منع الحجاج من الصلاة عليه...

وكان الحجاج قد صلبه ثم ألقاه في مقابر اليهود، وأرسل إلى أمه يستحضرها، فلم تحضر، فأرسل إليها لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، فلم تأته فجاء إليها. فقال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله ؟ قالت: رأيتك أفسدت على ابني دنياه، وأفسد عليك آخرتك"[1].

قتله سعيد بن الجبير:

سعيد بن جبير الأسدي (46 -95 هـ) تابعي، كان تقياً وعالماً بالدين درس العلم عن عبد الله بن عباس وعن عبد الله بن عمر وعن السيدة عائشة في المدينة، سكن الكوفة ونشر العِلم فيها وكان من علماء التابعين، فأصبح إماماً ومعلماً لأهلها، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية؛ وقبل شهادته دعى الله قائلا: "اللهم لا تسلطه على أحد"[2].

---

(1) النويري، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. ص. 2512، 2513، 2514، 2514، 2515؛ راجع: البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 6، ص220 - 224.

(2) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج 9، ص 116.

ويذكر القرطبي: "﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ... وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جبير رحمه الله لما أمر الحجاج بذبحه إلى الأرض"[1].

وقيل أن الحجاج لم يلبث بعد مقتل سعيد أكثر من أربعين يوماً[2]. وكان إذا نام يراه في المنام فيأخذ بمجامع ثوبه ويقول: "يا عدو الله فيم قتلتني؟" فيقول الحجاج: "مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟" ويقال أن الحجاج لم يسلط بعده على أحد حتى مات[3].

لقد أصابت الحجاج الآكلة في بطنه، والزمهرير، فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءة ناراً، وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها، وأخذت الآلام منه مأخذاً عظيماً فشكا ما هو فيه إلى الحسن البصري، فقال له: قد كنت نهيتك أن تتعرض للصالحين فلججت، فقال له: يا حسن لا أسألك أن تسأل الله أن يُفرّج عني، ولكن أسألك أن تسأله أن يُعجّل قبض روحي ولا يطيل عذابي[4].

---

(1) *تفسير القرطبي*، ص. 241.

(2) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج 9، ص 116.

(3) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج 9، ص 115.

(4) ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ج 6، ص 347

بعد ابن الزبير:

تقديراً لخدمات الحجاج ولّاه عبد الملك بن مروان على مكة فترة قصيرة؛ ثمّ ولّاه على المدينة والطائف، ثمّ اليمن واليمامة[1]. وفي أوائل سنة 74هـ ذهب إلى المدينة وأقام فيها شهرين، ومن ثم عاد إلى مكة ليعيد بناء الكعبة بأمر من الخليفة الأموي[2]، وفي أثناء مكوثه في المدينة عامل أهلها وخاصة صحابة الرسول، بأبشع وأسوأ معاملة[3]. ومن ثم سافر الحجاج برفقة عدد من أشراف الحجاز إلى الشام للقاء الخليفة الأموي[4].

حاكم العراق

بعد حكم الحجاج على الحجاز لمدة سنتين (أو ثلاث سنوات بحسب بعض الروايات) أقاله عبد الملك بن مروان من منصبه، وفي سنة 75 عيّنه والياً على العراق وبخيارات واسعة وشاملة وكاملة، ويذكر المؤرخون عدة أسباب لهذه الإقالة والتعيين، منها: أن عدداً من أشراف الحجاز طلبوا من عبد الملك أن يقيل الحجاج من إمارة الحجاز،

---

(1) المسعودي، *مروج الذهب*، ج 3، ص 98.
(2) البلاذري، *أنساب الأشراف*، ج 6، ص 240.
(3) البلاذري، *أنساب الأشراف*، ج 6، ص 240.
(4) البلاذري، *أنساب الأشراف*، ج 6، ص 241.

وفضلاً عن ذلك يُقال السبب هو موت حاكم العراق بشير بن مروان بن الحكم، مما سبب اضطرابات في العراق إضافة لخطر إثارة الشغب من قبل الخوارج[1].

بعد أن وصل للحجاج أمر الإمارة الجديدة، أسرع لحو العراق ودخل الكوفة يوم الجمعة ملثّماً وبرفقة اثني عشر فارساً، فدخل مسجد الكوفة وألقى خطابه الشهير الذي أمهل فيه مَن هرب من جيش المهلب بن أبي صفرة قائد جيوش بشر بن مروان - الذي كان يريد الحرب مع خوارج الحرورية - أن يلتحق بالجيش خلال ثلاثة أيام أو يلاقي مصير الموت[2]. وبعد خطبته هذه وسيطرته على الكوفة ذهب الحجاج إلى البصرة وألقى فيها خطبة مثل التي قام بها في أهل الكوفة، وتوعدهم مثل وعيده إياهم، ومن ثم ذهب إلى رستقباذ لتعزيز معنويات المهلب في حربه ضد الخوارج[3].

ثورة ابن الجارود:

عندما كان الحجاج في رستقباذ ثار الناس عليه بقيادة عبد الله بن الجارود، ويقال أن سبب هذه الثورة هو تهديدات الحجاج بشأن البقاء في ساحات القتال وصولاً إلى النصر الكامل، وأيضاً تخفيض مائة درهم

(1) الطبري، *تاريخ الطبري*، ج 6، ص 202 -209.

(2) الجاحظ، *البيان والتبيين*، ج 2، ص 307 -310.

(3) الطبري، *تاريخ الطبري*، ج 6، ص 210.

من رواتب المقاتلين. كانت هذه الثورة أو الاحتجاج في ربيع الآخر من سنة 76، ونهب أهل العراق فيها الأموال ومخازن الأسلحة. فحاربهم الحجاج بعد استشارة أصحابه ووصول التعزيزات، وقَتل ابن الجارود، وفرّق أنصاره[1].

ثورة الزنج:

تزامنا مع أمر ابن الجارود اجتمع خلق كثير من الزنج بالقرب من نهر الفرات وجعلوا عليهم رجلاً منهم اسمه رياح ويلقب شير زنجي - يعني أسد الزنج - واحتلوا بعض القرى والمناطق المحاذية للبصرة، فأرسل إليهم الحجاج جيشاً، فهزم الزنج وقتلهم في سهل دورق، الواقع في خوزستان[2].

إذا أغفلنا حروب الخوارج وثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة، يمكن أن نشير إلى حربه ابن الأشعث:

أعنف وأشد تمرد واجهه الحجاج كان ثورة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي[3] والتي طالت من سنة 81

---

(1) البلاذري، أنساب الأشرف، ج 6، ص 397 -405.

(2) البلاذري، أنساب الأشرف، ج 6، ص 414 -415.

(3) "روي عن بعضهم أنه قال: كنت واقفاً على رأس الحجاج حين أتي بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة ==

ولغاية 84 للهجرة[1]. فبعد هزيمة الجيش الأموي سنة 79 في مطاف جيش رتبيل (حاكم سجستان) وآلاف الضحايا من المسلمين[2]. أعد الحجاج في نهايات سنة 79 وبدايات سنة 80 هـ. جيش الطواويس لقتال رتبيل. وجعل فيه من أهل الكوفة عشرين ألفا ومن أهل البصرة عشرين ألفا، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، وكان الجيش يسمى الطواويس لحسنه. وبعد نجاحات عدة حققها عبد الرحمن. قرر أن يكتفي من التوغل إلى بلاد السند؛ وذلك بسبب بداية الشتاء فلذا كتب إلى الحجاج يعرّفه بذلك، مطالباً إياه توقف الحرب حتى قدوم الربيع وتحسن الطقس، ولكن الحجاج لم يقبل بذلك وأرسل له كتاباً يعيب فيه رأي الكندي، وأمَره بالوغول في أرض العدو، هذا الأمر إضافة لخلاف سابق كان بين الحجاج وابن الأشعث سبب عصيان وثورة عبد الرحمن بن الأشعث، فثار بعد أن

والكرم خيراً قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء" في حق الذين كفروا، فوالله ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم"

(تفسير القرطبي، ص. 3143).

1) العمد، *الحجاج بن يوسف الثقفي*، ص 259.

2) الطبري، *تاريخ الطبري*، ج 6، ص 322 -324.

بايعه أكثر من سبعين ألفا، فخلع الحجاج وتصالح مع رتبيل وسار نحو العراق[1]. لكن بعد وصول التعزيزات العسكرية المرسلة من قبل عبد الملك بن مروان، اتجه الحجاج نحو البصرة وواجه ابن الأشعث، وفي أول حرب بين الجيشين في منطقة الدجيل انتصر الحجاج، لكن في معركتهم الثانية التي كانت في تستر انهزم الحجاج هزيمة عظمى وقتل من قتل من جيشه وكانت معركة تستر في عيد الأضحى من سنة 81 هـ، فلما أتى خبر الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البصرة. وجمع جيوشه، وأعاد تنظيمها، وقرّر الهجوم على جيوش ابن الأشعث في البصرة، وبالفعل في محرم الحرام سنة 82 هـ اصطدم الجيشان في الزاوية (بالقرب من البصرة) وتمكن الحجاج من هزيمة جيش عبد الرحمن، واستعاد البصرة وعفا عن أهلها. بعد هزيمة عبد الرحمن في معركة الزاوية نزل دير الجماجم (التي تقع على بعد سبعة فراسخ من شمال الكوفة) واجتمع إليه مئتي ألف مقاتل ممن يبغضون الحجاج، وحين وصل خبرهم إلى الحجاج اتجه لقتالهم وبعد مئة يوم وأكثر من ثمانين معركة بين الطرفين والتي بدأت منذ الأول من ربيع الثاني واستمرت لغاية 14 جمادي الآخرة، انهزم جيش ابن الأشعث هزيمة نكراء. ويُذكر أن الحجاج قد قطع رأس أغلب الأسرى في هذه المعارك[2]. وفي شعبان

---

(1) البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 6، ص 431 -436.

(2) البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 6، ص 452 -460 -480.

سنة 83 التقى جيش ابن الأشعث مع جيش الحجاج، وهُزم جيش ابن الأشعث في معركة مسكن، وهرب الكندي إلى سيستان ولجأ عند رتبيل، فتصالح الحجاج مع رتبيل وطلب منه أن يسلمه ابن الأشعث، فقبل رتبيل وأرسل له عبد الرحمن لكن انتحر الكندي في الطريق[1].

جرائم أخرى:

كان الحجاج سفاكاً بطبعه، يقتل الناس حتى الشيوخ والصبيان، لا لشيء إلا حباً بالقتل وإراقة الدماء[2]، وكان يخبر عن نفسه أن أكثر لذّاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره، ولا سبق إليها سواه[3]، فقد قتل الحجاج الآلاف من الأسرى في دير الجماجم والزاوية[4] حتى أن عبد الملك بن مروان اعترض على هذا الإسراف في إراقة الدماء، وكتب للحجاج أن لا يستمر بمثل هذه المجازر[5].

يروي النويري: "وقيل: إن الحجاج مر بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر في مشيته، فقال رجل لخالد: من هذا؟ فقال خالد: بخ بخ! هذا عمرو بن العاص. فسمعها الحجاج فرجع، وقال: والله ما يسرني أن العاص والدي، ولكني ابن الأشياخ من ثقيف، والعقائل من

(1) البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 12، ص 425 -472 -480
(2) مغنية، *الشيعة والحاكمون*، ص 94.
(3) المسعودي، *مروج الذهب*، ج 3، ص 106.
(4) الطبري، *تاريخ الطبري*، ج 6، ص 381 -382.
(5) المسعودي، *مروج الذهب*، ج 3، ص 112.

قريش، وأنا الذي ضربت بسيفي هذا مائة ألف كلهم يشهد أن أباك كان يشرب الخمر ويضمر الكفر. ثم ولي، وهو يقول: بخٍ بخٍ عمرو بن العاص! فقد أقر على نفسه بمائة ألف قتيل على ذنبٍ واحد"[1].

كان الحجاج قد اتخذ منهج أسلافه في التحفيز على سب آل علي وقتل من لا يتبرأ منهم[2]. وكانت تهمة التشيع مبررا لضرب الأعناق من قبل الحجاج، فينقل إبن أبي الحديد عن الباقر: "... جاء الحجاج فقتلهم [الشيعة] كل قتلة، وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحب إليه من أن يقال: شيعة علي"[3]. فكان الحجاج يقرّب من يبغض علي (ع) ويوالي أعداءه، فكثُر الطعن فيه والشنآن له عليه السلام[4]. ويذكر المسعودي أن عبد الله بن هانئ - أحد المقربين من الحجاج وكان وحش المنظر - بدأ بذكر مناقب قومه عند الحجاج بعدما اعتبره الحجاج من قوم ليس لهم منقبة، وكان الحجاج يؤيده بعد كل أمر يذكره عبد الله ويقول له: "نعم! هذه منقبة"، حتى قال ابن هانئ: "ما منّا رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل، وقال وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأمهما فاطمة" فقال له الحجاج: "وهذه والله منقبة"[5].

---

(1) *نهاية الأرب في فنون الأدب*، ص. 2568.
(2) مغنية، *الشيعة والحاكمون*، ص 94 -96.
(3) ابن أبي الحديد، شرح *نهج البلاغة*، ج 11، ص 29.
(4) ابن أبي الحديد، شرح *نهج البلاغة*، ج 11، ص 31.
(5) المسعودي، *مروج الذهب*، ج 3، ص 120.

قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم[1]. وقال الشعبي: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم[2]. لذلك، حين مات الحجاج في رمضان أو شوال سنة 95[3]، أوصى يزيد بن أبي مسلم أن يُدفن سراً وأن يخفي موضع قبره، كي لا يتعرض للنبش[4].

انتهاكات عقائدية:

إضافة لما ذكرناه من قبل حول إهانة مرقد ومنبر النبي والمدينة، يُقال إنه قام بتأخير الصلاة عمداً[5]، كما اعتبر الخليفة الأموي أعلى مكانة من الملائكة والأنبياء والرسول محمد[6]، وكان يرى بأن طاعته أولى من طاعة الله[7].

في رواية لابن كثير نقرأ عن أحدهم يقول عن الحجاج: "وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ

(1) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ج 4، ص 133

(2) الفاخوري، *تحفة الأنام*، ص 93.

(3) الدينوري، *المعارف*، ص 395.

(4) البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 12، ص 353.

(5) الجاحظ، *البيان والتبيين*، ج 2، ص 298.

(6) البلاذري، *أنساب الشرف*، ج 6، ص 481 -507 -613.

(7) الجاحظ، *الحيوان*، ج 3، ص 15 -16.

بَعْدِي﴾ ؛ قال : والله إن كان سليمان لحسوداً. وهذه جراءة عظيمة تفضي به إلى الكفر قبحه الله وأخزاه وأبعده وأقصاه"[1].

مصحف عثمان أم مصحف الحجّاج؟

في سلسلة الأعمال التي قمنا بنشرها على مدى عشرين عاماً والتي تحمل عنوان *فروقات المصاحف* ، أوردنا مجموعة روايات تحكي عن مطاردة الحجّاج الدموية لمصحف عبد الله بن مسعود الذي يبدو أنه عاند الإئتلاف لزمن لا بأس به. يقول ابن الأثير، على سبيل المثال، إن الحجّاج هدّد : "ولا أجد أحداً يقرأ علي قراءة ابن أم عبد ، يعني ابن مسعود ، إلا ضربت عنقه ، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير ؛ قد ذكر ذلك عند الأعمش. فقال : وأنا سمعته يقول : فقلت في نفسي لأقرأنها على رغم أنفك"[2]. رواية أخرى تحوي تفاصيل إضافية نجدها عند النويري : قال عاصم بن بهدلة : سمعت الحجاج يقول : اتقوا الله ما استطعتم ، هذا والله مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ليس فيه مثنوية ، والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا لحلت لي دماؤكم ، ولا أجد أحداً يقرأ علي قراءة ابن أم عبد ــ يعني ابن مسعود ــ إلا ضربت عنقه ، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير"[3].

---

(1) *البداية والنهاية* ، ص. 3222.

(2) *الكامل في التاريخ* ، ص. 849.

(3) *نهاية الأرب في فنون الأدب* ، ص. 2568.

"وقال علي بن عبد الله بن مبشر، عن عباس الدوري، عن مسلم بن إبراهيم، ثنا الصلت بن دينار، سمعت الحجاج على منبر واسط يقول: عبد الله بن مسعود رأس المنافقين لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه"[1].

"ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة، عن محمد بن يزيد، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود والأعمش، أنهما سمعا الحجاج - قبحه الله - يقول ذلك، وفيه: والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه، ولأحكنها من المصحف ولو بضلع خنزير... وفي بعض الروايات: والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه. وهذا من جراءة الحجاج قبحه الله، وإقدامه على الكلام السيئ، والدماء الحرام.

وإنما نقم على قراءة ابن مسعود (رض) لكونه خالف القراءة على المصحف الإمام الذي جمع الناس عليه عثمان، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه، والله أعلم"[2].

عند أبي حيّان التوحيدي، في *البصائر والذخائر*، نص بسيط لكنه هام للغاية: "كتب الحجّاج إلى عبد الملك كتاباً يقول فيه: كنت أقرأ في

(1) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ص. 3222.
(2) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ص. 3222.

المصحف فانتهيت إلى قوله تعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ فأردت ألحق به: والخلفاء؛ قال: فجعل عبد الملك يقول: يا للحجاج ما أكفره وأجسره قاتله الله"[1]!

لكن الواقع يقول إن الحجّاج بدّل وغيّر في القرآن؛ ففي العمل الهام المسمّى *بالفرقان*، يقول ابن الخطيب في فصل يحمل عنوان، "ما غيّره الحجاج في المصحف" [ندمج هنا النص بالهوامش]: "قد غيّر الحجاج بن يوسف الثقفي في المصحف (وهو المصحف الذي كتب في عهد عثمان. والحجاج أول من نقط المصحف وشكله، بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان)، إثنا عشر موضعا :

كانت في سورة البقرة (لم يتسنّ) فغيرها ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ (البقرة/259) بالهاء .

وكانت في سورة المائدة (شريعة ومنهاجا) فغيرها ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة/48).

وكانت في سورة يونس (هو الذي ينشركم) فغيّرها ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ (يونس/22).

وكانت في سورة يوسف (أنا آتيكم بتأويله) فغيرها ﴿أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ (يوسف/45).

---

(1) ص. 381.

وكانت في سورة المؤمنين (سيقولون لله) فغيرها ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ (المؤمنـون/87)، وفي نفـس السـورة أيضـاً (سـيقولون لله) فغيرهـا {سيقولون الله} (المؤمنون/89)"[1].

ثم يبرّر ابن الخطيب ما فعله الحجاج، بقوله: "سبب ما فعله الحجاج من التغيير: ولم يصنع الحجاج ما صنع إلا بعد اجتهاده وبحثه مع القرّاء والفقهاء المعاصرين له. وبعد إجماعهم على أن جميع ذلك قد حدث من تحريف الكُتّاب والناسخين، الذين لم يريدوا تغييراً ولا تبديلاً، وإنما حدث بعض ما حدث لجهلهم بأصول الكتابة وقواعد الإملاء والبعض الآخر لخطأ الكاتب في سماع ما يملى عليه، والتباسه فيما يتلى عليه.

ولا يتنافى هذا مع قوله جل شأنه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر/9)، لأن المراد بالحفظ مفهوم الألفاظ لا منطوقها، لأن الألفاظ ما صيغت إلا ليستدل بها على معان مخصوصة قصد بها أوامر، ونواه، وعبادات، ومعاملات، وجميعها معان محفوظ، مهما تقادم الدهر، وتطاول العمر"[2].

وهكذا، يقول الباحث محمد عزّت دروزة، في عمله البارز، *القرآن المجيد*: "هناك رواية أن المصحف المتداول، إنما هو مصحف

---

(1) ص. ص. 50 وما بعد. رابط الكتاب:
https://archive.org/details/0099Pdf.../page/n49

(2) *المرجع السابق.*

الحجاج وجمعه وترتيبه ... وأن الحجاج قد جمع المصاحف المتداولة، ومصاحف عثمان وأبادها"[1]. – فلماذا أتلف كل هذه المصاحف؟ هذا يعني أنه لم يتلف المصاحف غير العثمانية، بل أتلف أيضاً المصاحف العثمانية. مع ملاحظة أن المصاحف العثمانية كانت كلّها على حرف واحد، بعد إلغاء عثمان ولجنته للأحرف الستة الأخرى. وننتهي مع دروزة إلى القول: "من المحتمل أن لا تكون إحدى نسخ مصاحف عثمان الأصلية موجودة اليوم؟ – مع ما يُقال عن وجود بعضها قولا غير مؤيَّد بشاهد، ووصف عياني، موثوقين"[2].

لكن: ماذا فعل الحجّاج بالمصحف؟

يقول ابن الخطيب، *الفرقان*: "قيل: أن أول من أمر بنقطه [القرآن] وشكله هو عبد الملك بن مروان. فتصدّى لذلك عامله الحجاج بن يوسف الثقفي. فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك. وقيل إن أول من نقطه أبو الأسود الدؤلي. وقيل: نصر بن عاصم الليثي. وقيل غير ذلك. والقول الأول هو الأرجح"[3]. وتذكر بعض الأخبار أن الحجاج أمر نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر - من تلامذة أبي الأسود الدؤلي الذي تعلم النحو من علي بن أبي طالب -

(1) ص. 83 وما بعد.

(2) *المرجع ذاته*.

(3) *المرجع ذاته*.

أن ينقّطوا القرآن منعاً لتحريف الكلمات والآيات[1]، كما وطلب من حفاظ القرآن أن يقسّموا القرآن إلى مجموعات خماسية وعشارية"[2].

يشرح المسألة بنوع من التوضيح أحد الباحثين المعاصرين، فيقول: "كانوا يكتبون في القرن الأول بدون نقط ولا شكل، يفعلون ذلك في المصاحف وغيرها، فكان الذي يأخذ القرآن من المصحف ولا يتلقاه من أفواه القراء تشتبه عليه الحروف فيصحف، وغبر الناس على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان، ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط، فغبر الناس زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً، وكان أبو الأسود الدؤلي قد وضع النقط قبل نقط نصر لضبط الحروف شكلها فاشتبه الأمر واستمر يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام أي الشكل بالحركات على ما أرادوه في أول التعبير بذلك فكانوا يتبعون النقط بالإعجام. ولكن ذلك لم يكن مستقصى في كل ما يكتب ولا من كل من يقرأ يستقصي ضبط الكلمة ونقطها، فلم يزل يعتري التصحيف، فالتمسوا حيلة فلم يقدروا على غير الأخذ من أفواه الرجال، وكان ذلك كله قبل أن تستبحر فيهم الرواية، فلهذا وأشباهه قالوا: لا تأخذوا القرآن من مصحفي، ولا العلم من صحفي"[3]!

---

(1) ابن كثير، *البداية والنهاية*، ج 9، ص 124.
(2) ابن عساكر، *تاريخ مدينة دمشق*، ج 12، ص 116.73.
(3) مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، ص. 95.

"وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجرداً في المصاحف فأوّل ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا لا بأس به فإنه نور له. ثم أحدثوا بعده نقطاً كباراً عند منتهى الآي فقالوا: لا بأس به يعرف به رأس الآية. ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح. قال أبو بكر الهذلي: سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر؛ فقال: وما تنقيطها؟ قلت: يعربون الكلمة بالعربية. قال: أما إعراب القرآن فلا بأس به. وقال خالد الحذاء: دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط. وقيل: إن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخرى"[1].

"وكان الشعبي رحمه الله يقول: يأتي على الناس زمان يصلّون فيه على الحجاج وهذا قد أتى منذ زمان لأن الحجاج قد ابتدع أشياء أنكرها الناس عليه في زمانه هي اليوم سنن معروفة وأعمال مستحسنة ... فوجب بذلك الصلاة على الحجاج ... وابتدع أيضاً هذه الأخماس والعواشر ورؤوس الآي وحمر السواد وخضره وصفره فأدخل في المصحف ما ليس فيه من الزخرف وكان السلف يقولون: جرّدوا القرآن كما أنزله الله تعالى ولا تخلطوا به غيره، فأنكر العلماء ذلك عليه حتى قال أبو رزين: يأتي على الناس زمان ينشأ فيه نشء يحسبون

(1) أبو حامد الغزالي، *إحياء علوم الدين*، ص. 286.

أن ما أحدث الحجاج في المصاحف هكذا أنزله الله تعالى يذمه بذلك؛ وحتى نقل الاختلاف وأن بعضهم كان لا يقرأ في مصحف منقوط بحمرة لأن بعضهم كان لا يرى القراءة في مصحف منقوط كما نقل أن بعضهم كان يرى شراء المصحف ويكره بيعه أي: وكذلك إذا لم تنقطه أنت فلا بأس أن تقرأ فيما نقطه غيرك، وقد كانوا يكرهون أخذ الأجر على تنقيط القرآن لأجل أنه مبتدع، ... وقال فراس بن يحيى: وجدت ورقاً منقوطاً بالنحو في سجن الحجاج فعجبت منه وكان أول نقط رأيته فأتيت به الشعبي فأخبرته فقال لي: اقرأ عليه ولا تنقطه أنت بيدك، ومنها أنه جمع من القراء ثلاثين رجلاً فكانوا يعدون حروف المصحف ويعدون كلمه شهراً، ولو رآهم عمر أو عثمان أو علي يصنعون هذا بالقرآن أي يعدون حروفه وكمله لأوجع رؤوسهم ضرباً وهذا الذي كرهته الصحابة ووصفوا به قراء آخر الزمان أنهم يحفظون حروفه ويضيعون حدوده"[1].

تفاصيل إضافية نجدها عند حاجي خليفة: "ذكر النقط والإعجام في الإسلام. اعلم أن الصدر الأول أخذ القرآن والحديث من أفواه الرجال بالتلقين، ثم لما كثر أهل الإسلام اضطر إلى وضع النقط والإعجام، فقيل: إن أول من وضع النقط مرار مرامر والإعجام عامر؛ وقيل: الحجاج؛ وقيل: أبو الأسود الدؤلي بتلقين علي (رض)

(1) أبو طالب المكي، *قوت القلوب*، ص. 239.

إلا أن الظاهر أنهما موضوعان مع الحروف إذ يبعد أن الحروف مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف؛ وقد روى أن الصحابة جردوا المصحف من كل شيء حتى النقط ولو لم يوجد في زمانهم لما يصح لما صح التجريد منه؛ وذكر ابن خلكان في ترجمة الحجاج أنه حكى أبو أحمد العسكري في كتاب التصحيف أن الناس مكثوا يقرؤون في مصحف عثمان (رض) عنه نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات؛ فيقال: إن نصر بن عاصم وقيل يحيى بن يعمر قام بذلك فوضع النقط وكان مع ذلك أيضاً يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام... واعلم أن النقط والإعجام في زماننا واجبان في المصحف وأما في غير المصحف فعند خوف اللبس واجبان البتة لأنهما ما وضعا إلا لإزالته وأما مع أمن اللبس فتركه فتركهما أولى سيما إذا كان المكتوب إليه أهلاً"[1].

يقول ابن المستوفي عن المسألة: "غير أن الحجاج لما رأى إطباق الخلق على أن ما عرى المكتوب في المصحف بين الدفتين، ليس من القرآن، أمر بالنقط والشكل وأوائل السور والآيات والتعاشير بأن يُثبت في المصحف، لا منه عن اعتقاد أنها من القرآن، وأمر بحُصر المساجد وزينتها. فأي جهالة أعظم من اعتقاد أن ما ابتدعه الحجاج وأمر به

(1) حاجي خليفة، *كشف الظنون*، ص. 375.

يصير كلام الله تعالى ويتصف بصفة القديم؟ نعوذ بالله من عقل ودين يقود إلى هوى هذه الجهالة، ويسوق إلى هذه الضلالة"[1].

باختصار شديد، "ذكر ابن خلكان في ترجمة الحجاج أنه حكم أبو أحمد العسكري في كتاب التصحيف أن الناس مكثوا يقرؤون في مصحف عثمان (رض) نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف، وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج إلى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات. فيقال: أن نصر بن عاصم، وقيل: يحيى بن يعمر قام بذلك، فوضع النقط، وكان مع ذلك أيضاً يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام"[2].

سورة الإسراء:

نبدأ هنا بالآيات الخمس الأولى من سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً ۝﴾.

---

(1) ابن المستوفي، *تاريخ أربل*، ص. 88.

(2) صديق حسن خان، *أبجد العلوم*، ص. 251

هذه السورة التي تُعرف اليوم "بالإسراء"، لم تكن تُدعى كذلك زمن النبي والتابعين. فقد وردت تسمية سورة "الإسراء" بسورة "بني إسرائيل" في حديثين صحيحين: الحديث الأول: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود (رض) قال في بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفُ وَمَرْيَمُ وَطه وَالْأَنْبِيَاءُ: "هُنَّ مِنْ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي". رواه البخاري (4994)؛ وقال الحافظ ابن حجر: مِنَ العِتَاقِ، جمع عتيق وهو القديم، أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة، وبالثاني جزم جماعة في هذا الحديث.

وقوله: هُنَّ مِن تِلَادِي، أي: مما حفظ قديماً، والتلاد قديم الملك، وهو بخلاف الطارف، ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن، وأن لهن فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم". (*فتح الباري*، 388/8).

الحديث الثاني: عن عائشة (رض) قالت: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لا يَنَامُ حَتَّى يَقرأَ بَنِي إِسرَائِيلَ وَالزُّمَرَ"؛ رواه الترمذي (3402) وقال: حديث حسن. وحسّنه الحافظ ابن حجر في "*نتائج الأفكار*" (65/3)، وصححه الألباني في "*صحيح الترمذي*".

بل قال أهل العلم إن تسمية السورة بسورة "بني إسرائيل" كانت هي الأشهر في عهد الصحابة والتابعين، وذلك لأن سورة الإسراء افتتحت في أول آية منها بالحديث عن الإسراء إلى المسجد الأقصى، ثم في الآية الثانية مباشرة شرعت في ذكر مرحلة مهمة من مراحل قصة بني

إسرائيل والإخبار عن إفسادهم في الأرض مما لم يذكر في سواها من قصص بني إسرائيل في القرآن.

هذا يعني أنّ السورة كانت تسمّى "بني إسرائيل" حتى عهد التابعين لأنها كانت تحكي في عدد كبير من آياتها عن بني إسرائيل، خاصّة الآية الثانية. فلماذا تغيّر اسمها إلى "الإسراء"؟

لقد حاول كثير من الباحثين الحياديين، في مواجهتهم لمعضلة أن النبي محمداً "أسرى" إلى مسجد أقصى لم يكن له وجود زمن الإسراء المفترض، أن يخلقوا مكاناً آخر خارج القدس يمكن أن يعتبر مسجداً أقصى. وهكذا، طُرح اسم موقع "الجعرانة" كبديل للمسجد الأقصى الحالي.

لم يلحظ كثيرون أنّ محاولة عبد الملك بن مروان، الذي اشتهر بابتعاده عن الدين كسائر خلفاء بني أمية، نقل الحج لأسباب سياسية إلى القدس، تزامناً مع قيام الحجاج بالتحرير الأخير للقرآن؛ وقد حاولنا باختصار شديد إظهار ابتعاد هذا الشخص عن الدين وكافة المعايير الأخلاقية، هذا غير الكلام عن تبديله لبعض النصوص في المصحف. لذلك من الأرجح أن يكون الحجّاج أضاف الآية الأولى لسورة بني إسرائيل وإعادة تسميتها "الإسراء" في محاولة منه لدعم خليفته لاهوتياً، خاصّة وأن الأرضية محضّرة لقبول ذلك منذ أيام عمر وكعب وأبي هريرة، على افتراض أن تلك الروايات حقيقية. هذا أن

غير آية الإسراء ليست أكثر من عادية، لا تحتوي إيقاعاً شعرياً ولا بلاغة نثرية ولا إعجازاً علمياً؛ بل إن قسمها الأخير، "ليريه من آياتنا"، يوحي وكأنه غير مكتمل.

لقد أظهرنا سابقاً كيف حاول كعب الأحبار وغيره من اليهود الذين زعموا اعتناق الإسلام نشر روايات يهودية هاغادية حول الصخرة التي لم تذكر قط في القرآن، وكيف حاول كعب نقل القبلة إلى القدس في نوع من زيادة التهويد للإسلام. وأظهرنا أيضاً كيف تلقف المجتمع الإسلامي شبه الأمي آنذاك، خاصة تجّار الحديث مثل أبي هريرة، تلك الروايات اليهودية وأعادوا إنتاجها لأنها خزانهم المعرفي شبه الأوحد حين افتُقدت الخزانات المعرفية. ولأن الزمن يلعب غالباً الدور الأسوأ، فقد أدى التسامك الزمني إلى خلق نوع من الضبابية القدسية حول تلك الروايات، فلم نعد نراها إلا بعيونٍ عبرانية. وهكذا، لم يكن صعباً على الحجّاج وخليفته عبد الملك بن مروان تعميم آية الإسراء، فالأرضية، كما قلنا، كانت محضّرة، بجهود كعب الأحبار وتلميذه أبي هريرة.

رحلة محمد السماوية[1]

يوسف هوروفيتس[2]

في موضعين من القرآن، هما السورة 81: 19 - 23 ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23)﴾ والسورة 53: 1 - 18 ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18)﴾، نجد وصفاً لتجارب

(1) كل ما بين قوسين مستطيلين [ ] إضافة من المترجم.

(2) النص ترجمة عن مقالة باللغة الألمانية: Horovitz, *Muhammed,s Himmelfahrt*, in *Isl.*, (1919), 161 ff.

رؤيوية visionäre تضمن لمحمّد الأصل الإلهي لما يتنزل عليه من كلام.
في الموضع الأول، يوصف القرآن بأنه ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝﴾، ثم يقال: "وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝﴾. أما في السورة 53: 4 -13، فتسرد بإسهاب الرؤيا المشابهة، وذلك بعد الاحتجاج على القول بأنّ كل شيء كان خطأ وهلوسة: ﴿إِنْ هُوَ [القرآن] إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۝﴾. كما افترض غالباً[1]، فالأمر في الحالتين، يتعلق بالرؤيا ذاتها، وهذا ما نعرفه أيضاً من الاستخدام المشترك للوصفين للتعبير *أفق*، وهكذا فالكيان Gestalt الذي تصفه السورة 53: 5 -6 هو ذاته كيان "الرسول الكريم" الموجود في السورة 81: 19. مع ذلك، يريد شريكه Schrieke[2] أن يستنتج من كلمة "عبده" الواردة في السورة 53: 10، أنّ الظهور كان ظهور الله ذاته، الذي يُرى للنبي، حيث يقال أيضاً في السورة 57: 9 عن الله: ﴿هُوَ

(1) Nöldeke-Schwally, *Geschichte des Qorans*, S. 99. Bevan in *BZATW* Bd. 27 (1914), S. 52.

(2) *Islam*, VI, S. 20 .

الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ ﴾ [1]. هنالك صعوبة معنية في اعتبار أن محمّداً وصف نفسه على أنه عبد "رسول كريم" ؛ ويبدو من البديهي أكثر، أن نقبل بمسألة تبديل الفاعل بين الآيتين 9 و10 (الذي لا يمكن أن يكون مفاجئاً بسبب خصوصيات القرآن الأسلوبية)[2] ؛ أو أن نفسّر "أوحى" بمعنى "موحى بأمر من الله"، دون أن نفترض أن محمداً، رأى مظهر الله النازل ذاته. وعند محمد تحديداً، يكشف عن الإحساس بدوار معيّن أمام الجبروت الإلهي، وذلك عندما أمكن له تجشّم رؤية الظهور الإلهي واستطاع وصفه بكلمات واضحة ؛ ومثل الأبوكاليبتيين Apokalyptiker، [3] الذين يبدو وكأنه أقرب إليهم هنا من الأنبياء، ي قارب الله عبر وساطة الرسول الكريم، الذي يسمّى فيما بعد جبريل.

ثم تصف لنا الآيات من 13 إلى 18 في السورة 53 رؤيا ثانية. تقول كلمات السورة: "ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عند هاجنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زغى البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربّه الكبرى". هنا أيضاً يتنزّل الظهور السماوي، لكن صاحب الرؤيا لم يره في "الأفق الأعلى"، بل عند "سدرة المنتهى". أما مكان "المأوى" الموجود قرب "السدرة"، فهو ليس في مكة، كما فهم الأمر بما

---

(1) لا نستطيع أيضاً أن نسلّم بأنّ ما ورد في نص شريكه آنف الذكر، ص. 40، وص. 87، مقنع.

(2) Nöldeke, *Neue Beiträge zur semitischen Sperachwissenschaft*, S. 10 f.

(3) وهم أصحاب تلك الأسفار الرؤيوية التي تتحدّث عن نهاية العالم Apokalypse.

يكفي من الغرابة، بل هو يتماثل مع الجنة، وقد أثبت ذلك كل من شريكه ويفان Bevan من لغة القرآن المتداولة[1]. مع ذلك، فأنا لا أستطيع أن أوافق مع شريكه، بأن محمّداً يزعم هنا أنه مكث في السماء؛ لأنه لا يوجد في كلماته هذه ما يشير إلى أنه أحسّ، بمعنى ما، أنه حُمِل إلى الكواكب العليا. فمثل الكثير من أسلافه من الرؤيويين النبوئيين، كان محمّد، القابع فوق الأرض، ينظر إلى الفضاءات البعيدة ويتطلّع إلى الرسول السماوي عند السدرة.

بالمقابل، ففي موضع ثالث، هو السورة (17 : 1)، حيث لا توصف التجربة الرؤيوية، بل تذكر باختصار فحسب، نجد دون لبس تناولاً لحالة غياب عن هذا العالم Entruckung. وهنا لا يرى النبي أنّ الظهور السماوي قريب منه، بل يشعر أنه هو ذاته خُطِف إلى مكان بعيد. إن كلمات "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله" لا تمتلك أدنى رباط مع ما يأتي بعدها؛ ويذهب يفان بعيداً[2]، حين يقول إنه من غير المبرهن، إن لم يكن من غير الممكن أيضاً، أن يكون الكلام هنا عن محمّد عموماً؛ فكلمة "عبده"، بالنسبة له، إنما تشير إلى عبد آخر غيره. وكان شريكه قد توقع مثل هذا الاعتراض وردّ عليه بدليل[3] يقول، إنه في المواضيع

(1) Schrieke, S. 20; Berlin, S.53.
(2) a. a. O. S. 53 54
(3) a. a. O. S. 13 Anm. 6

القرآنية التي تصادفنا فيها كلمة "عبده" أو "عبدنا" دون تحديد للاسم ، فإن المقصود بذلك يكون محمّداً. مع ذلك ، وكما توضح تماماً هذه اللغة القرآنية المتداولة ، سنحاول أن نعرف عن أي رجل لله تتحدّث السورة ، والذي لابدّ أن يكون له تداعٍ ما مع تعبير "المسجد الحرام"؟ يبدو أن أوّل من يخطر ببالنا هو إبراهيم ، شريطة أن تعود هذه الكسرة إلى ذلك الزمان ، الذي يُعزى فيه لإبراهيم بناء الحرم المكّي. لكن لا يوجد أي كلام عن هذا الأمر ، فهذه الآية المعزولة عن سياقها لا تتضمّن أدنى إشارة إلى زمن تشييده ، بل إن المواضع التي يظهر فيها الاسم إبراهيم مترابطاً مع مكّة ، تستخدم مصطلحات مثل "بيت" أو "مقام" ، لكن ليس "مسجداً" أبداً إضافة إلى ذلك ، وقبل كل شيء ، فنحن لا نجد في القرآن ولا في الأدب المنحول أو الأدب الهاغادي غيبة لإبراهيم عن هذا العالم. لذلك يبدو مؤكداً ، أن الحديث في السورة 17 : 1 هو عن محمّد ، لكننا نستطيع أن نستنتج من طريقة نطق الكلمات أيضاً أن الحديث هو عن رحلة ليلية إلى موضع بعيد ، إعجازي أما الموضع المعني بهذا الكلام ، فهو أمر لا يمكن استخلاصه لا من الآية ذاتها ولا من أي موضع آخر في القرآن ، لأن التسمية "المسجد الأقصى" لا ترد أبداً في غير هذه السورة ؛ لكن الشيء الوحيد الواضح ، هو أن الرحلة الليلية كانت بالنسبة إلى محمد تجربة ذات معنى خاص حتماً. لكن وفق ما هو وارد في النصّ ، فالآية تترك الانطباع ، وكأنّ محمداً الذي غلبته تجربته ، لم يستطع إجبار شفتيه على قول أكثر من كلمات قليلة ، أو كأنه ارتاع ، أن يدنسها عبر الإسهاب في التفاصيل على

مسامع غير المؤمنين[1]. وإذا ما كان التقليد صحيحاً، فهذا الرأي، الذي يساوي في الآية 62 من السورة نفسها بين الرؤيا المذكورة والغياب عن العالم، هو رأي غير ممكن حتماً؛ فالظروف اقتضت أن يستشهد النبي في الآية 62 بتجربته الليلية في تحذيراته ومواعظه. إذاً فالارتباط بين الآيتين غير مؤكد[2].

يرى التقليد الإسلامي في تعبير "المسجد الأقصى" إشارة إلى أورشليم، وعلى وجه التحديد موقع الهيكل[3] في أورشليم، الذي أشيد في مرحلة لاحقة في جهته الجنوبية ما يُعرف حتى في لغاتنا الأوروبية المتداولة بالمسجد الأقصى A[illegible]Moschee. لكن في أيام النبي كان مُشَاداً في ذلك الزمان بازيليك يوستنيانوس[4] Basilika des Juatinian، وهذا ما تؤكده أيضاً الآية القرآنية، وذلك بحسب رأي كايتاني Caetani[5]. مع ذلك، فأورشليم لا تذكر في القرآن بالاسم

(1) قارن: رسالة كورنثوس الثانية، 12: 4: ["اختُطِفَ [إنسان ما] إلى الفِردَوس، وسَمِعَ كلِماتٍ لا تُلفَظُ ولا يَحِلُّ لإنسانٍ أن يَذكُرَها"].

(2) قارن: Nöldeke-Schwally, S. 135; Schrieke, S. 15; Bevan, S. 53

(3) أنظر: *ابن هشام*، 263: "وهو بيت المقدس من إيليا". من أجل "بيت المقدس"؛ قارن: Fischer, *ZDMG*, 60, S. 407.

(4) أنظر: Hassak, *ZDPG*. 36, S. 308.

(5) *Annali*, 21, §88. شيء مشابه نجده في حديث أبي سفيان لهرقل، (*حلبي* 1: 371): "خرج من أرضنا أرض الحرم وجاء مسجدكم هذا".

أبداً، لكنّ الإشارة الضمنية إليها في السورة 2: 140[1] واضحة، ولا يحتاج المرء إلى أي دليل، بأنّ المدينة المقدّسة عند اليهود والمسيحيين كانت تحتلّ موقعاً متميزاً في دوائر محمّد الفكرية. ولا توجد صعوبة في تصوّر أن التفكير بأمور أورشليم المقدّسة كان يطارده في رؤاه وأحلامه، حتى رآها أمامه شخصياً. ويبدو ممكناً أيضاً أن رؤيا حزقيال[2] (8: 3)، كانت معروفة جداً؛ وفي هذه الرؤيا، تمسك روح بناصية رأس حزقيال وتخطفه بين السماء والأرض من بابل إلى أورشليم[3]. إن تذكّر هذه الرؤيا يمكن أن يحقق له الأمنية، بأنه جدير

---

(1) [﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى .... سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾].

(2) ["فأرسَلَ شكلَ يَدٍ وأخذَني بِناصيةِ رَأسي، ورفَعَني الرُّوحُ بينَ الأرضِ والسَّماء، وأتى بي إلى أُورشَليمَ في رُؤى إلهيَّة، إلى مَدخلِ البابِ الدَّاخِليِّ المُتَّجِهِ نحوَ الشمال، حيثُ منصبُ صنمِ الغَيرةِ الحامِلِ على الغيرة"].

(3) Nöldeke-Schwally, 134, Anm 6 . دعونا نستدل من غيبة أخرى عن هذا العالم بنوع من الثقة لا بأس بها، أنّ محمداً كان يعرف بغيبة يسوع عن هذا العالم من فوق جبل طابور، التي يقول عنها الإنجيل بحسب العبرانيين: وأخذتني أمي، الروح القدس، الآن تحديداً، من إحدى شعراتي إلى جبل طابور العظيم. (أنظر أوريجانس، *تفسير يوحنا*، تحرير Presuschen 67). لذلك، كما يلاحظ غيروك Gerok (*Versuchcheiner Darstellung der Christilogie des Koran,* 1839, S. Anm.1). يمكن اعتماداً على هذه الفقرة تفسير سؤال الله لعيسى: " أأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ" (السورة 5: 116)، واستبدال الروح القدس بأم عيسى في هذا المفهوم للثالوث، الذي يستنكره عيسى.
==

بأن يمرّ بتجربة مماثلة ، وهي الأمنية التي تحققت في الرؤيا الليلية. لكن هذه الآراء التي استطاع واحدهم تقديمها من أجل دفاع متأخر عن الرأي المتداول المتعلّق بذلك التعبير المحيّر ، لا تكفي لوضع أسس له ؛ فلو أنّ التقليد لم يوحِ بهذا التفسير الذي يجعل "المسجد الأقصى" يعني أورشليم ، لما خطر ذلك ببال أحد. وإذا كانت البحوث الأوروبية نقلت هذا الرأي دون أن تعيد فحصه ، فذلك لا يبرهن غير على أنّها لم تتحرّر بالكامل قط من أسر قيود التقليد الإسلامي. ونحن ندين بالفضل لشريكه وحده في كسر هذه القيود في الموضع الذي نتداوله في دراستنا ، إذ اعتبر أن "المسجد الأقصى" ليس أورشليم ، ولا أيّ موقع على هذه البسيطة ، وإنما يجب البحث عنه في السماء. إنّ "مسجداً" سماوياً يتناسب دون عقبات مع المخيّلة القرآنية ؛ ففي السماء أيضاً تؤدي الملائكة "عبادتها" التي تسمّى في السورة 7 : 260 "سجود". وبطريقة أكثر تحديداً يُشَار إلى صيغة عبادتها على أنّها "تسبيح" (السور39 : 75 ؛ 40 : 7 ؛ 41 : 38 ؛ 42 : 5)[1] ؛ وهي تحدث في السماء

إضافة من المترجم: جاء في صحيح البخاري أن القس ورقة كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، صحيح البخاري بشرح الكرماني ، 1 : 38 – 39 ؛ وجاء في صحيح مسلم أن القس ورقة كان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، صحيح مسلم ، 1 : 78 – 79.

(1) قارن: *Ascensio Isaiae*, VII: 5, IX: 41

السابعة قرب العرش الإلهي الذي استوى عليه الله بعد أن خلق السماء والأرض[1] (المواضع ذاتها). يمكن أن يذكّرنا ذلك المكان "بالمسجد الأقصى"، فإذا كان مكان العبادة السماوي يسمّى بالأقصى، فذلك يذكّرنا بأحد المواضع في سفر أخنوخ 39 : 3،[2] حيث يشعر هذا الأب التوراتي المسمّى أخنوخ، أن غيوماً وزوابع أخذته عن الأرض ووضعته عند نهاية السماء. وفي النص الأثيوبي نجد التعبير *صنفا سمايات*، الذي يتطابق تماماً مع تعبير קצי השמים[3] (قنصي ها -

---

(1) من أجل أصول التصوّر، قارن (Goldziher, *Die Sabbthinstitution im Islam,* (Gedenkbuch zur Erinnerung an D. Kaufmann, SII tiles S-A). ينتمي العرش إلى تلك الأشياء التي خلقت قبل خلق العالم (*بساحيم* 54 آ) وهو موجود في السماء السابعة (*حاغيغاه* 12 ب).

إضافة من المترجم: نصا *البساحيم والحاغيغاه*: לא קשיא הא באור דידן הא
באור דגיהנם אור דידן במוצאי שבת אור דגיהנם בערב שבת ואור
דגיהנם בערב שבת איברי והא תניא שבעה דברים נבראו קודם
שנברא העולם ואלו הן תורה ותשובה וגן עדן וגיהנם וכסא הכבוד
ובית המקדש ושמו של משיח
שם אופנים ושרפים וחיות הקדש ומלאכי השרת וכסא הכבוד מלך
אל חי רם ונשא שוכן עליהם בערבות שנאמר (תהלים סח، ה) סולו
לרוכב בערבות ביה שמו ומנלן דאיקרי שמים אתיא רכיבה רכיבה
כתיב הכא סולו לרוכב בערבות וכתיב התם (דברים לג، כו) רוכב
שמים בעזרך

(2) "في تلك الأيام حملتني الزوابع عن الأرض، ووضعتني في أقصى أقاصي السماوات" (من نص خاص بالمترجم العربي).

(3) كما تبرهن تركيبات ديلمان، في قاموسه الإثيوبي، فقرة صنف، تحتاج هذه لأن تكون ضمن سياقات مثل مرحقه عرص، أفسه عرص، وقصه ها -عرص. وفي
==

شمايم [أقصى السماوات])العبراني. كذلك فقد رأى أخنوخ هناك أيضاً الملائكة الذين يسبحون محمد "رب الأرواح"(13:39) .

لكننا نجد في القرآن أيضاً تسمية لها علاقة بما سبق هي "الملأ الأعلى"[1]، واللذين تقول السورة 37 : 8، إن الشياطين لا يُسمح لهم بالتنصت عليهم ["وحفظاً من كلّ شيطان مارد. ألا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب" 38 : 7 -8]، والذين لا يعرف النبي أيضاً أسرارهم: ["ما كان لي علم بالملأ الأعلى إذ يختصون" 38 : 69]. لكن الملائكة يساهمون في هذا الملأ الأعلى، والمصطلح يذكرنا بتعبير

نسخة أخنوخ، 14 : 11 وما بعد، يجد أخنوخ نفسه وقد انتقل إلى قرب *المبرا* سبحات – *כסא הכבוד* *كسّه هاكبود* [كرسي المجد] – عرش القرآنية، الذي تقف بجانبه ربوات من الملائكة. لا يستخدم محمد على الإطلاق – ثمة من يحاول اعتبار ولعه بالتعابير غير العربية على أنه شيء عجائبي – أحد التعبيرين الغريبين، كرسي أو منبر، بل يورد اللفظة العربية عرش.

(1) قارن: Welhausen, *Reste* 137, Anm. 6، والموضع من *حاغيغاه* 16 آ الذي أورده غايغر في كتابه، " *Was hat Mohammed aus dem Judentume aufgenomen* (ص 81)، حيث يقال عن الشديم *שדים* [حسب ترجمة غايغر: جن، ص (81)] : שמעין מאחורי חפרגוד ["يسمعون من خلف الستائر"] (ها -برغود חפרגוד، παραγανδτον، برغد العربية). – ملأ ومسجد متقاربتان جدا، إذ وفقاً لبراهين لامنس (أنظر: زياد بن أبيه، ص 31 وما بعد)، لم تستخدم مسجد في الأزمنة القديمة بمعنى "موضع السجود" فحسب، بل أيضاً بمعنى "مكان الاجتماع".

ملاحظة: ترجمنا كتاب غايغر ونشرناه تحت عنوان، *اليهودية والإسلام*.

فامليا شيل معلاء פמליה של מעלה [الحاشية التي للأعالي ؛ أو العائلة العليا] في أدب التقليد اليهودي[1]، والذي يظهر ثانية في تعبير آخر بلفظ *يشبا شيل معلا* ישבה של מעלה[2] [الأكاديمية العليا] أو عبر المصطلح الآرامي *متبتا دي رقيعا*[3] (רקיע (رقيع) = سماء). وقد برهن شريكه[4]، أن سدرة المنتهى يجب أن تنتمي إلى هذا السياق أيضاً. لكنه ليس متأكداً، من أنها تحتل موقعاً في الطوبوغرافيا السماوية ؛ ولأن شجرة الحياة بحسب أخنوخ (23 : 1) موجودة عند نهاية الأرض (*أصنافا ميلر*)، فلربما بالتالي أنّ سدرة المنتهى تنتمي أيضاً إلى هذا الموضع. إذاً، ربما يكون المقصود "بالأقصى" أعلى موقع في السماء، والمقصود "بالمنتهى" أبعد موقع على الأرض.

لكن معنى "المسجد الأقصى" كموضع في السماء ليس فقط يتناسب مع التصورات القرآنية الأخرى، بل أن القرآن يظهر أيضاً، أن

---

(1) قارن المواضع عند: Kraus, *Griechische und latenische Lehnwörter*, II: 463. ثمة قول للحاخام يوحنان في رسالة *السنهدرين* 38 لم يرد هناك لكنه مميز على نحو خاص: הנך למה לי כדרבי יוחנן דא"ר יוחנן אין הקב"ה עושה דבר אא"כ נמלך בפמליא של מעלה שנאמר (דניאל ד، יד) בגזירת עירין פתגמא ובמאמר קדישין שאילתא [النص هنا كامل. مترجم]: لا يعمل القدوس المبارك شيئاً دون أن يستشير العائلة العليا.

(2) *بساحيم*، 53 ب ؛ *بابا مصيعا*، 86 آ.

(3) *بابا مصيعا*، 86 آ.

(4) a. a. O. S. 13\14

فكرة الصعود إلى السماء شغلت بال محمد كثيراً. فحين تقول السورة 15 : 14 -15 : "ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون" ، فإنه يراد من ذلك القول ، إن قوم محمد ، يفسرون المعراج ، على الأرجح ، كضلال حواس ، إن كما اختبره الأولون ، أو كما اختبره محمد في وسطهم أيضاً ، حتى وإن كانوا موجودين هم أنفسهم في الحالة الأخيرة. وبحسب السورة 17 : 90 وما بعد ، نجد أن الكفار يطالبون النبي مرةً أخرى بصعودٍ واضح : "قالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا في الأرض ينبوعاً.... أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه" ؛ فقد أرادوا أن يروا هذا الكتاب السماوي بأعينهم ، والذي كان على محمد أن ينزله كآيةٍ تدل على مكوثه في السماء. لكن النبي واضح في تلك المسألة ، فهو يرى أن شعبه لن يقبل أيضاً بغيبته في العوالم السماوية كدليلٍ على رسالته السماوية ، وهكذا فهو يعزي نفسه في السورة 6 : 15 بالله : "وإن كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً[1] في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى". وبدأ يقبل بالتالي ، أن كل الأعمال التي يعتقد أنه قادر على القيام بها ، لن يستطيع تحقيقها ، مادام الله لا يريد أن

(1) قارن بيت الشعر الذي ينسب للأعشى :

فإن كنت في جب لمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلّم

يهدي الكفار إلى الصراط المستقيم. أخيراً، فإن السورة 6: 125 تتحدّث أيضاً عن صعود إلى السماء: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء". لا نستطيع أن نقرّر هنا ما إذا كان الحديث هو عن إحدى التجارب لأحد المنخطفين Ekstatikers، في حين تبعث الآية[1] 15: 95 في النفس أثراً فحواه، أنّه هو الذي خلّف وراءه مثل تلك التجربة. مع ذلك، فالمواضع آنفة الذكر تُظهر، بأية حال، كم كان متعوداً على تصوّر الصعود.

لا نتفاجأ إذاً، حين نعمل التفكير في المسألة، بمدى التقارب بين تصورات محمّد وتصورات الكتابات الأبوكاليبتية، التي تتحدّث عن غيبات سماوية للرجال المؤمنين في الزمن الغابر: مثل، أسفار أخنوخ، صعود إشعياء، وأبوكاليبات باروخ. ويبدو من المرجح جداً، أن يكون محمّد يعرف هذه الأخبار، لكن ذلك لا يتضمن إرشادات بشأن الطرق، التي يتوطد عبرها الرباط مع العالم السماوي. لقد حاول شريكه[2] أن يثبت، أنّ الكهان العرب كانوا متآلفين مع هذا العرف، واحتمالية أن يكون تعلمه منهم، لا يمكن أن تُنكر. لكن البرهان على هذا النوع من التعلّم لا يستطيع أحد تقديمه، فنحن لا نمتلك سوى

---

(1) هذا ما قاله شريكه أيضاً (S. 14, Anm I).

(2) S. 23 ff.

معرفة قليلة جداً بالكهان زمن محمّد، والموازيات الإثنولوجية لا تكفي وحدها لردم الفجوة. من المحتمل أيضاً، أن يكون "أهل الكتاب" أساتذته هنا، إذ يُحكى لنا بوضوح، أن هذه الطرق كانت متداولة. ففي إحدى فتاوى غاؤون هاي، يُقّال: "اعتقد الحاخامون القدامى، أن من يستأهل ذلك، حين يمضي يومه صائماً، واضعاً رأسه بين ركبتيه ومدمدماً بتراتيل ومدائح إلى الله، فهذا يجعله يرى الباطن والبيوت، كأنه ينظر بعينه سبع قاعات، ويشعّ النور عليه، وهو ينتقل من قاعة إلى أخرى"[1]. في الواقع أنّ صاحب هذا التقرير عاش في القرن العاشر، لكن "الحاخامين القدامى" كانوا فاعلين في القرن السادس وليس غيره.

وكون التقليد الإسلامي، في هذا الصدد، يربط بين رحلة محمد السماوية والرحلة الليلية إلى أورشليم، التي نجدها مذكورة في السورة 17 : 1، يُسْمَح لنا أن نلمح في ذلك برهاناً، بأنه هو أيضاً يحتفظ لنا بذكرى المعنى الصحيح للموضع القرآني. لكن كيف حصل وأن انتقل

(1) أنظر: *تشوبوت هـا - غوئيم* (Lyck ،11868) § 99 [דרכה מן החכמים דני סוברים כי שרבון לכן וישב בתענית ימים ידועים ודועים ראשו וין ברכיו ולוחש שארץ שירות ותשבחות דוא מציץ בפנימים וכחדרים כמי שהוא רואה בעיניו היכלות שבעה וצופה כאלו הוא נכנס מהיכל להיכל]؛ قارن أيضاً: Harkavy, *Studien und Mittelungen* IV, S. XVI f.; Bluch in *MGWJ*, 1893, S. 42; Bousset *ARW*. IV, S. 153.

"المسجد الأقصى" إلى أورشليم ؟ على ذلك أجاب شريكه بقوله (ص 16)، إنّ هذا التفسير ينتمي إلى مجموعة الأخبار، التي لُفّقت زمن عبد الملك [بن مروان]، للتأكيد على قداسة أورشليم، إذ كانت مكّة في يدي الخليفة المنافس، عبد الله بن الزبير. لكن يبدو أنّ هذا التفسير كان متداولاً قبل خلافة عبد الملك (65 -86هـ = 685 -705). فقد كان عمر بن أبي ربيعة يعرفه، حيث يقول في إحدى قصائده (رقم91، تحرير شفارتس، ص73)[1]:

لا والـذي بعـث الـنبي محمّـداً   بالنور والإسلام والدين والقيّم

---

(1) [أيضاً يقسم أبو صخر، هذيل، تحرير Welhausen، رقم 264، البيت 24، بقوله:

والطور والمسجد الأقصى وزائره

لكن كما يظهر بيت الشعر الذي يسبق ذلك الموضع، والذي يتمّ فيه الحديث عن النور، التوراة والإنجيل، فلا بدّ أن موقع المسجد الأقصى لا يعني بالضرورة أورشليم، و"الزائر" يشير ربما إلى موضع ليس سهل المنال للجميع. يذكر الفرزدق في *الجمهرة* 165 حرم مكة وحرم أورشليم، الواحد بجانب الآخر، لكن دون أن يستعين بأسلوب التعبير في السورة 17].

ملاحظة من المترجم: نص الهذيل، هو:

حلفـت بـالله والتـوراة مجتهـداً   والنُّور والبيت والأركان والحَرَمِ
وربِّ ركْـبٍ على خوصٍ مخيّسـةٍ   عـوجٍ ضـوامر والإنجيـل والقلَـمِ
والطـور والمسجد القصـى وزائـرِه   هل بعد ذا لذوي الأيمان من قَسَمِ
أنّي وجدتُ بليلى ضِعْفَ ما وجدت   شمطاءُ تثكل بعد الشّيبِ والهرَمِ

ويما أهلّ به الحجيج وكبّروا عند المقام وركن البيت المحرم

والمسجد الأقصى المبارك حوله والطور، حلفة صادق لم يأثم

وهكذا، فإنّ هذا الذكر للمسجد الأقصى بين مواقع مقدسة أخرى موجودة فوق الأرض، يبرهن على أنّ الشاعر أيضاً كان يفهم هذه التسمية على أنّها تعني حَرَماً أرضياً. مع ذلك، فنحن لا نستطيع أن نؤكد زمن ظهور هذه القصيدة إلى حيّز الوجود، لكن من المحتمل جداً أن تكون من البدايات الأولى لهذا الشاعر، المولود عام23 هـ، والذي كان يناهز الثانية والأربعين من العمر حين تولّى عبد الملك السلطة؛ وبالمناسبة، فقد كان عمر بن أبي ربيعة من أنصار الخليفة المعارض[1]. لكن إذا كانت هذه القصيدة ذاتها قد أُنشِدت للمرة الأولى أمام عبد الملك، فليس من المقبول به بالتالي، أن تكون تبنّت هذا التفسير المرغوب به للمصطلح بمثل تلك السرعة، أو أنّ شاعراً، والذي لم يكن هو أيضاً حتى وقت متأخر يميل إلى الأمويين[2]، يمكن أن يعمل على خدمتهم بهذه المباشرية. إن تفضيل الأمويين لأورشليم يرجع إلى زمن أبكر من ذلك[3]؛ فقد فضلوها دائماً ضد المدينة المنورة، التي كانت عاصمة المعارضة. فمعاوية نصّب ذاته خليفة هناك،

(1) أنظر: Schwarz, *Einleitung*, s. p.

(2) *المصدر السابق.*

(3) أنظر: Welhausen, *Das arabische Reich*, S. 133

رأدّى في ذلـك الـزمن الصـلاة أيضـاً في الأمـاكن المقدسـة المسـيحية[1].
إضافة إلى اهتمام الأمويين السياسي بالمدينة المقدّسة واستخدامها لخدمة أغراضهم ولعبها لدور ضد الخليفة المعارض في شبه جزيرة العرب، نقد كان هنالك طموح للإدعاء في وجه المسيحيين أنّ لأورشليم مكانة مقدّسة عند المسلمين أيضاً. فقد بنى عمر مسجداً في أورشليم[2] (642)، دون أن يطرد، بالمناسبة، المسيحيين. وربما أن أحدهم أثناء ذلك، أو ليس بعد ذلك بزمن طويل، قام بمحاولة، كي يجعل لأورشليم موضعاً ما في تاريخ النبي. وعلى أية حال، لم يكن سهلاً التخلّص من المعنى الصحيح القديم لمصطلح "المسجد الأقصى"، وهكذا فقد نُظِر إلى أورشليم، بادئ ذي بدء، كمرحلة في الرحلة نحو السماء ليس إلاّ. فهي تظهر على ذلك النحو في التقليد، الذي يقول اليعقوبي[3] إنّ عبد الملك يبني عليه حجته، والذي يبدو أنّه أقدم من إجرائه: "وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله ﷺ رفع قدمه عليها لّما صعد إلى السماء لتقوم لكم مقام الكعبة"[4]. وبحسب اعتقادي،

---

(1) أنظر: Nöldeke, in *ZDMG* XXIV, S. 95; Welhausen, a. a. O. S. 64; Hatrmann, *Der Felsedon in Jerusalem*, S. 194.

(2) Caetani, *Annali*, 21 § 87; Hartmann, *ZDPV*. Bd. 32. S. 194.

(3) اليعقوبي، *تاريخ* 2: 311.

(4) بحسب برتلماوس الرهاوي، Migne, Confutatio Agareni، مجموعة الآباء اليونان Patrologia Graeca، الجزء 104، 1392 و1440، يقف محمد وإحدى رجليه في السماء، وأخرى في أورشليم. برتلماوس، الذي لا يعرف Migne عمره، يذكر موسى المذاهب الأربعة (1402) ويسمّي من الطوائف الاثنتين ==

ففي هذا التقليد، لدينا أقدم دليل على موضوعة قدم الرسول، التي ظهرت[1] لاحقاً في كل نواحي العالم الإسلامي. لكننا نعلم أيضاً، أنه في بازيليكا الصعود، على جبل الزيتون، كان موجوداً موضع قدم يسوع الذي وصفه سولبيسيوس سفروس Sulpicius Severus (410)، والذي كان يُبَجّل في القرن السابع أيضاً. فالحاج أركولف Arculf، الذي زار أورشليم عام 670، والذي يزودنا بأقدم وصف لمسجد عمر[2]، يصف لنا أيضاً، كيف كان الحجيج يأخذون أجزاء من التراب، دون أن يتبدّل مظهر الأرض[3]، التي كانت مُعَلّمة دائماً بطبعة قدم يسوع. ويبدو أنّ أمثولة يسوع، التي تركت آثاراً عديدة على سيرة النبي، تواصل هنا أيضاً ترك أثرها. إن طبعة قدم يسوع موجودة في الموضع الذي صعد منه إلى السماء؛ وهكذا فقد أعطيت منذ البداية الإجابة على السؤال القائل، من أين بدأت رحلة محمد السماوية[4]:

والسبعين كلّاً من OUTVIM (المعتزلة)، Ισμαιλι (الإسماعيلية)، Χασισιμου (الحارميّة؟ الجهمية) وΣεπερι (الصفيرية). يجعل غوتيربوك Gülterbock, *Der Islam in Lichte der bysantinischen Polmik*، ص. 22، برتلماوس في زمن الحملات الصليبية.

(1) أنظر: Goldziher, *Studien*, II, 397

(2) *Arculf* übs. u. erkl. Von Mickley I. S. 19\20

(3) *المصدر السابق*، ص 38\39.

(4) أنظر أيضاً: شريكه، ص. 15. وبحسب *الحلبي* (1: 37)، يعرف بطريق القيصر، الذي يحدّثه أبو سفيان عن إسراء النبي، على أساس كثرة اطلاعه على "علوم الأولين"، أن نبياً يصعد من بيت المقدس.

لا يمكن لغير أورشليم أن تكون المحتملة في ذلك الصدد. وهكذا، فربما أن رحلة محمّد بُنيت وفقاً لموضع القدم تلك المشار إليه آنفاً[1].

لكن قد يذكّرنا المعنى الأصلي لرؤيا محمد أيضاً، بتلك المكانة التي تحتلها أورشليم في تاريخ الرحلات السماوية. وهنالك موضع، يتّحد فيه الاثنان، أي الموقع السماوي وقداسة أورشليم، هو أورشليم السماوية [η δε ανω ιερουσαλημ "وأما أورشليم العليا"؛ رسالة غلاطية 4: 26] و[ιερουσαλημ επουρανιω "أورشليم السماوية"؛ الرسالة إلى العبرانيين (22:12)] التي ترد في العهد الجديد، والتي تقول رسالة *الحاغيغاه* التلمودية، 12ب، إنها موجودة في السماء السابقة، التي تسمى زبول זבל [المقر السماوي أو السماء الرابعة]. عن أورشليم السماوية هذه يُقال في *أبوكاليبس باروخ* السريانية، 3: 4 وما بعد، إنّها أُظهِرَت لآدم، قبل أن يُخطئ، ومن بعده لإبراهيم وموسى؛ ومثلها مثل الجنّة، تظلّ محضّرة من قبل الله[2]. أما في

(1) إن حديث الطبري المشار إليه سابقاً، في *تفسيره* 15: 22، يعطينا لمحة حول نشوء التقليد، وفيه يقول حذيفة لزر بن حبيش: "ما علمك هذا (يعني أنه صلعم دخل المسجد الأقصى)؟ قلت: من قبل القرآن! قال: من أخذ بالقرآن أفلح. قال: فقلت: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً الخ. قال: فنظر إلي، فقال: يا أصلع! هل ترى دخله؟ قال: قلت: لا والله! قال حذيفة: أجل، والله الذي لا إله إلا هو ما دخله، ولو دخله، لوجبت عليكم الصلاة فيه. لا والله ما نزل عن البراق حتى رأى الجنة والنار وما أعد الله في الآخرة أجمع".

(2) من أجل أورشليم السماوية؛ انظر: Volz, *Jüdische Eschatologie*, S. 336 ff; *Die Einheitlichkeit der jüdischen Eschatologie*, BZATW. 30 (1915), S. 89 ff

أبوكاليبس باروخ الأثيوبية، التي نشرها هاليفي[1]، فيُخْطف باروخ على يد الملك ستوئيل إلى أورشليم السماوية (*إياروساليم سماياويت*)، وحين يطرح سؤالاً بشأنها، يتلقى جواباً مفاده أنها تعتبر موطن الشهداء الذين احتقروا هذا العالم الفاني وكرهوه وتقبلوا المعاناة من الموت لأجل العدالة. مع ذلك فلا بد أن نذكر أيضاً أنّ نَفَس إيراني أخت القديس أبادير، بتقوى إيمانها، بحسب طلبه، عبر العذاب في أورشليم السماوية، حيث تُعَاد من ثمّ إلى جسدها[2]. ويبدو ممكناً أيضاً أن يكون محمّد متآلفاً مع هذا التصورّ[3]. وعندما شهر أنّه انتقل إلى "المسجد الأقصى"، أراد أن يعتقد انّه رأى أورشليم السماوية، مثله مثل كثيرين قبله من الأبوكاليبتيين والرؤيويين من الأزمنة السابقة.

عبر شهادة محمّد الذاتية تؤكّد الرحلة السماوية النشوانية كإحدى تجارب مسيرته النبوية، لكنّ كلمات القرآن لا تشير، إلى الفترة من مسيرته التي حصلت فيها تلك الرحلة. وقد كان شريكه محقاً

---

(1) Tessasa Sanbat, S. 80. f. كذلك ففي المصدر ذاته (ص. 99) نجد ميكائيل وهو يري غريغوريوس أورشليم السماوية.

(2) قارن: *Symaxarium Alexandrium*, ed. Forget I: 43. "وكان القديس أبادير يطلب من المسيح أن يقوي إيمان أخته إيراني في العذاب. فأخذ الربّ نفسها الطوباوية، ومضى بها إلى أورشليم السماوية ورأت تلك الممالك السيئة ثم عادت إلى جسدها". يشير شوفان Chauvain (*Bibliographie*, XI: 208) إلى هذا الموضع أيضاً.

(3) يظهر لي جليّاً، أنّ التقليد يعرف عنه شيئاً، من لقاء حمد مع إبراهيم، موسى، عيسى وكلّ الأنبياء؛ وهذا لا يمكن أن يحدث أصلاً في أورشليم أرضية.

بالفعل[1]، حين اعتبر، كما فهم بيفان في الزمن ذاته تقريباً، أنّ الرحلة السماوية، التي ترتبط أصلاً في السيرة التقليدية مع حكاية غسيل القلب، نُقلت، كهذه الحكاية، إلى بدايات دعوته. لكن ذلك لا يبرهن، على أنها تحمل بالفعل أيضاً إحدى سمات تكريس النبوة، إنما وحده التقليد يشخصها على هذا النحو. حيث أنه لا يجمع في سيرته استعماله لأمثولات من الكتاب المقدس والسير المنحولة فقط، بل أيضاً استخدامه للمقولات العربية الوثنية القديمة. لكن شريكه[2] ذاته يشير قائلاً، إن كلّ الرحلات السماوية للمنخطفين السابقين لم تكن تعني إطلاقاً نوعاً من التكريس لدعوتهم النبوية، والموازيات الإثنولوجية، التي يوردها، لا تكفي لملء صمت القرآن، وأيضاً للبرهان على تاريخية غسيل قلب محمد. لذلك يجب أن لا يُجادل أحد بأن محمّداً ربما احتفظ ببعض من تجارب الكهان (شريكه، 25)؛ لكن ليس الأمر كما اعتقد شريكه (ص11)، بأن البرهان على تاريخه غسيل القلب غير ممكن أيضاً، لأنه لا يمتلك نقطة ارتكاز في أدب أهل الكتاب، وحتى لو كان هو ذاته على حق، تظل مع ذلك الاحتمالية قائمة، بأن التقليد أدخل فيه تصورات عربية وثنية مناسبة وزينه بها. لكننا في الواقع نجد موازيات

(1) a. a. O. S. 9, 29

(2) a. a. O. S. 21. أيضاً في أسطورة أبادير الواردة سابقاً لا تكون الرحلة تكريساً للنبوة، كما في *الأرتا فيراف نامك*.

لغسيل القلب في أساطير القديسين المسيحيين مثلما نجدها في أساطير الزرادشتيين. وقد أشار بيفان[1] إلى بعضها، والتي يورد منها على نحو خاص ذلك الموضع من حياة تيموثاوس السايح[2] : "فنظر الله إليه وأرسل إليه ملاكاً ومسح بيده على فؤاده فبري من سائر الألم الذي به، ثم شق جسمه بإصبعه ونظّف كبده وأعادها إلى موضعها وألحم فؤاده كما كانت، وقال له: إنك صرت صحيحاً فلا تعود إلى الخطيئة لئلا تبتلى بأشرّ من هذا". [أنظر إنجيل يوحنا 5 : 14 : "بعد ذلك وجده يسوع في الهيكل، وقال له: ها أنت برئت، فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك شرّ]. لكنّ المعنى هنا يختلف حتماً عن المع[illegible]ي في قصّة محمّد؛ أمّا ما سنقرأه في *الزاد سبرم*،[3] فهو أكثر بعداً أيضاً عن معنى غسيل القلب في القصّة المحمدية: "ثالث (إنجاز لرئيس الملائكة) كان القطع بالسكين والإظهار للأجزاء الحيوية الموجودة داخل البطن وتدفق الدّم؛ وبعد أن حكّ عليها الأيدي، شفيت". ثم يوضّح الأمر على النحو التالي: "إن قبولك أنت وأخوتك في الدين للديانة النقية، قياساً للثبات عند الآخرين، يشبه إشعال النار، سكب المعدن الحار والقيام بعملية بآلة ساخنة، دون أن يكون هنالك انحراف عن الديانة الخيرة". في حين

---

(1) *Bibliographie*, XI: 208.

(2) *Symaxarium Alexandrium*, ed. Forget I: 171.

(3) *Sacred Books of the East* XLVII: 159 .

لا يُقال في *الزارتوشتنامه*(1)، الأكثر تأخراً، إلاّ ما يلي: "فتح له البطن وأخرج الأحشاء، ثم أعادها إلى موضعها، وأغلق البطن، وعاد كلّ شيء إلى سابق عهده". وإذا كانت الحالتان لا تتناولان هنا مسألة تكريس أيضاً، تظلّ مع ذلك قائمة احتمالية أن يكون غسيل القلب في سيرة محمد يرجع إلى أمثولات مشابهة غير عربية.

لكن الأدب العربي ذاته يقدّم لنا أحد الأمثلة، التي سها عنها شريكه، حول فتح صدر، والذي يعود إلى زمن ظهور الإسلام. يُقال عن أمية بن أبي الصلت(2):

"دخل يوماً أميّة بن أبي الصّلت على أخته وهي تهيىء أدَماً لها، فأدركه النوم فنام على سرير في ناحية البيت. قال: فانشقّ جانب من

---

(1) Wilson, *The Parsi Religion*, S. 494. تضم *الزارتوشتنامه* موازياً آخر أيضاً لقصة محمد: فدورامارون، الذي سمع بولادة زارتوشت، اتجه نحو بيت والديه، لاغتيال الطفل المضطجع هناك في المهد؛ لكن حين أراد أن يشهر سيفه القاتل، وهنت يده، وصار فاقداً للقوة (ولسون، ص 484)؛ شيء مشابه نجده أيضاً عند دينكارد، 7: 3. ذلك يذكّرنا بحكاية ذي الطور، الذي اعترض سبيل النبي بسيف مسلط وسأله، ما إذا كان يستطيع أن يحمي نفسه، عند ذلك برز الملك وطرحه أرضاً. *ابن سعد*، 2: 24؛ الديار بكري، خميس، 404.

(2) *الأغاني*، 3: 183؛ قارن: Sprenger, *Das Leben und die Lehre des Mohammad*, 1: 115. النص المقدّم مأخوذ من نسخة كتاب *الأغاني*، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر، الطبعة الثانية، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

السقف في البيت، وإذا بطائرين[1] قد وقع أحدهما على صدره ووقف الآخر مكانه، فشقَّ الواقع صدره فأخرج قلبه فشقَّه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أوعى؟ قال: وَعَى. قال: أقبِل؟ قال: أبى. قال: فرُدَّ قلبه في موضعه فنهض، فأتبعهما أميَّة طرفه فقال:

لبيكمـــا لبيكمـــا هأنـــذا لـــديكما

لا بـــريء فأعتـــذر ولا ذو عشيرةٍ فأنتصر

فرجع الطائر فوقع على صدره فشقه، ثم أخرج قلبه فشقَّه ؛ فقال الطائر الأعلى: أوَعَى؟ قال: وعَى. قال: أقبِلَ؟ قال: أبى، ونهض، فأتبعهما بَصَرَه وقال:

لبيكمـــا لبيكمـــا هأنـــذا لـــديكما

لا مـــالٌ يُغنـــيني ولا عشـيرةٌ تحمـــيني

فرجع الطائر فوقع على صدره فشقَّه، ثم اخرج قلبه فشقَّه، فقال الطائر الأعلى: أوَعَى؟ قال: وعى. قال: أقبِل؟ قال: أبى، ونَهَض ؛ فأتبعهما بصره وقال:

---

(1) قارن هنا مع نسخة أبي ذر الواردة في *البخاري*، صلاة، 1، حيث يقال إن النبي ذكر: "فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكّة فنزل جبريل ففرج صدري... ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا".

لبيكمـــا لبيكمـــا   هانـــذا لـــديكما

محفـــوفٌ بـــالنّعم   محـــوطٌ مـــن الريـــب

قال: فرجع الطائر فوقع على صدره فشقّه وأخرج قلبه فشقّه؛ فقـال الأعلـى: أوَعَـى؟ فقـال: وَعَى؟ قال: أقَبِـل؟ قـال: أبى. قال: ونَهَض، فأتبعهما بصره وقال:

لبيكمـــا لبيكمـــا   هانـــذا لـــديكما

أن تَغفِرْ اللهم تغفر جَمّا   وأيُّ عبـدٍ لـك لا ألَمّـا

قالت أخته: ثم انطبق السقف وجلس أميّة يمسح صدره، فقلت: يا أخي، هل تجد شيئاً، قال: لا، ولكنّي أجد حراً في صدري، ثم انشأ يقول:

ليتني كنتُ قبل ما قد بدالي   في قِنانِ الجبالِ أرْعَى الوُعولا

إجعلِ الموتَ نُصْبَ عينك واحذر   غَوْلَةَ الدَهْرِ إنّ للدَهرِ غولاً.

إلى جانب الحديث السابق المسهب هذا، يمكن أن نجد أحاديث أخرى أكثر قصراً، تتوافق معه في الجوهر؛ وفي بعضها يؤكد على نحو خاص[1]، أنّ كلّ شيء حدث حين كان نائماً؛ في حين لا يقول

---

(1) تقول الفارعة في *أسد الغابة*، 5:516، لابن الأثير: قدم أخي من سفر، فأتاني، فرقد على سريري، فأقبل طائران، فسقط أحدهما على صدره، فشقّ ما بين صدره إلى ثنته، ثم أخرج قلبه، ثم ردّه إلى مكانه وهو نائم.

السؤال الثاني الذي يطرحه الطائر الذي في الأعلى، في بعضها الآخر[1]: "هل قبله؟" بل: "هل زكّا". وفي إحدى النسخ[2] نجد أخت أمية وهي تخبر النبي بأنها رأت نسرين، وكانت في حالة اليقظة، واللذين حطا على سقف بيتها الذي كان أخوها نائماً فيه. فنزل أحد النسرين وجلس على صدر أخيها، ففتحه وملأه بشيء، ثم عاد وأغلقه. وبعد ذلك عرج، فسأله النسر الآخر، ما إذا كان أمية قد وعى، وأجاب على ذلك بنعم، في حين أجاب بلا، على السؤال: هل زكّا؟ ويُقال إن موهبة أمية في النطق في أشعاره بالحكمة وذكر التوحيد والنار، إنما ترجع إلى هذه التجربة. وفي رواية أخرى، لا يقال هذا بشكل صريح، بل يؤكّد على أنه رغم سماعه صوت الوحي السماوي، إلا أنه لم يعترف[3] به، حتى ـ بحسب الحديث الأول ـ أقر بذنوبه وصلى لأجل المغفرة.

---

(1) *الأغاني*، 3: 181؛ أنظر أيضاً: البغوي، *التفسير* للسورة 7: 174. قارن أيضاً: جمحي، *طبقات*، تحرير Hell، 67 وما بعد. الثعالبي، *قصص*، 166 وما بعد. أنظر: Sprenger, a. a. O. S. 118.

(2) البلوي، *ألف باء*، 11: 508 (قارن: Goldziher, *Abhandlungen*, 1: 213): وقد أسلمت عاتكة أخت أمية هنا، وأخبرت عنه بخبر؛ ذكر عبد الرزّاق أنها جاءت إلى النبي، فحدّثته أنها رأت وهي في اليقظة، نسرين نزلا على سقف بيتها، وفيه أمية أخوها نائماً، فشقا السقف، ونزل أحدهما على أمية، فشق صدره، وحشاه بشيء ثم أصلحه وعرج، فقال له النسر الآخر: هل وعى؟ قال: نعم؛ قال: وهل زكّا؟ قال: لا! فلذلك كان ينطق بالحكمة في أشعاره، ويذكر التوحيد والنار.

(3) جمحي: أنا رجل أراد الله بي خيراً فلم أقبله.

ليس واضحاً تماماً، ماهية العلاقة بين هذه الأخبار وفتح صدر محمّد؛ لكن ليس مرجحاً على الإطلاق، كما يقول باور Power[1]، أن يكون لفق للمرة الأولى كمقابل لها، وأن الأرجح أن تكون هذه الحكايات المأخوذة من الشعراء والمتنبئين العرب فرضت على محرري السيرة النبوية ضرورة أن يخترعوا لبطلهم تجربة مماثلة. لكن ذلك غير مؤكد؛ فكما رأينا من قبل، يمكن أن تكون الأمثولات غير العربية قد لعبت دوراً أيضاً في إدخال هذه الحكاية في سيرة محمد.

لقد تحدّث شريكه بالتفصيل[2]، عن مدى قوة تأثير الأدب المنحول اليهودي، المسيحي، وربما الفارسي، في التصوير المتأخر لرحلة محمد عبر السموات السبع. لكن ليست وحدها الكتابات المنحولة تستخدم كمصدر للحكايات المحمدية، فهنالك ما يبرهن على وجود ذكريات من أسفار الكتاب المقدّس القانونية. ويبدو لي أن شيئاً كهذا لا يبدو متاحاً فقط في القصة الشهيرة حول المساومة في عدد الصلوات[3]، والتي توجد أمثولتها في سفر التكوين (18 : 24 -30)[4]، بل نجده

---

(1) أنظر: MPO V 2, S. 189.

(2) ص 16 وما بعد.

(3) شريكه، ص 19. في *المغازي*، نجد محاكاة لأوصاف المعارك الموجودة في الكتاب المقدّس. أنظر: *Sarasin, Das Bild Allis*. S. 19 ff; Mzik in *WZKM* XXIX S. 37.

(4) فَتَقَدَّمَ إبراهيمُ وقال: (أحقًّا تُهلِكُ البارَّ مع الشرِّير؟ لعلّه يُوجَدُ خَمْسُونَ باراً في المدينة، أحقًّا تهلكها ولا تَصفَحُ عنها من أجلِ الخَمسينَ باراً الّذينَ فيها؟ حاشَ لَكَ أن تَصنَعَ مِثلَ هذا: أن تُميتَ البارَّ مع الشرِّير، فيَكونُ البارُّ كالشرِّير. حاشَ لَكَ!
==

أيضاً في حديث يُرجع إلى الحسن[1] والذي نجد النبي يقول فيه: "بينا أنا نائم في الحجر، إذ جاءني جبريل، فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه، فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة بيضاء". وفي هذه الحكاية، أعتقد أنّه باستطاعتنا أن نلمح محاكاة لقصة صموئيل في الهيكل (1 صم 3: 3 -10)[2].

أَدْيانُ الأرضِ كُلِّها لا يَدينُ بالعَدْلِ؟). فقالَ الرَّبّ: (إن وجَدتُ في سَدومَ خَمْسينَ بارًّا في المَدينة، فإنّي أصْفَحُ عن المَكانِ كُلِّه مِن أجْلِهم). فأجابَ إبْراهيمُ وقال: (قد أقدَمتُ على الكَلام مع سَيِّدي، وأنا تُرابٌ ورَماد. لَرُبَّما نَقَصَ الخَمْسونَ بارًّا خَمْسَةً، أفتُهلِكُ المَدينةَ كلها بِسَبَبِ الخَمْسَة؟) فقال: (لا أُهلِكُها، إن وَجَدتُ هُناكَ خَمسَةً وأربَعين). ثُمَّ عادَ أيضاً وكلَّمَه فقال: (لَرُبَّما وُجِدَ هُناكَ أربَعون). فقال: (لا أفعَلُ مِن أجْلِ الأربَعين). قالَ إبْراهيم: (لا يَغضَبْ سَيِّدي أن أتَكَلَّم: لَرُبَّما وُجِدَ هُناكَ ثَلاثون). فقال: (لا أفعَلُ، إن وَجَدتُ هُناكَ ثَلاثين). قال: (قد أقدَمتُ على الكَلامِ مع سَيِّدي: لَرُبَّما وُجِدَ هُناكَ عِشْرون). قال: (لا أُهلِكُ مِن أجْلِ العِشْرين). فقال: (لا يَغضَبْ سَيِّدي أن أتَكَلَّمَ أيضاً هذه المَرَّةَ الأخيرة: لَرُبَّما وُجِدَ هُناكَ عَشَرَة). قال: (لا أُهلِكُ مِن أجْلِ العَشَرَة).(تك 18: 23 – 32).

(1) *ابن هشام* 264 وما بعد. النص السابق مأخوذ عن *سيرة* ابن هشام، دار ابن كثير، بيروت -دمشق، القسم الأول، ص. 397 (دون تاريخ).

(2) [وكانَ مِصْباحُ اللهِ لم يَنطَفِئْ بَعدُ، وصَموئيلُ راقِدٌ في هَيكَلِ الرَّبِّ حَيثُ تابوتُ الله. فدَعا الرَّبُّ صَموئيل، فقال: "هاءَنَذا". ورَكَضَ إلى عالِيَ وقال: "هاءَنَذا، إنَّكَ دَعَوتَني". فقالَ لَه: "لم أدعُكَ، إرجِعْ فنَم". فرَجَعَ ونام. فعادَ الرَّبُّ ودَعا صَموئيلَ أيضاً. فقامَ صَموئيلُ وذَهَبَ إلى عالِيَ وقال: "هاءَنَذا، إنَّكَ دَعَوتَني".
==

أما في وصف عذابات جهنم[1]، فيُفتَرَض أن نفكّر بأمثولات فارسية. من المؤكد حتماً أنّ عذابات الملعونين تحتلّ حيزاً ما في *أبوكاليبسات بطرس، صوفونياس وبولس*[2]، لكن ثمة تفاصيل أيضاً، والتي تتوافق بوضوح تام مع *الأرتا فيراف نامك*. فباستطاعتنا مقارنة المقطع التالي من ابن هشام[3]: "ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء النساء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم"، مع مقطع في الفصل 24: 3 من *الأرتا فيراف نامك*، يقول[4]: "رأيت أيضاً نَفْس امرأة معلقة من ثدييها في جهنم، فسألت: ما الذي اقترفه هذا الجسد، الذي تعاني نَفْسه من مثل

فقالَ لَه: "لم أدعُكَ، يا بُنيّ، إرجِعْ فنَم". ولم يَكُنْ صموئيلُ يعرفُ الرَّبَّ بعدُ، ولم يَكُنْ بَعدُ قد أُعلِنَ له كَلامُ الرَّب. فعادَ الرَّبُّ ودَعا صَموئيلَ ثالِثةً. فقامَ وذَهَبَ إلى عالِي وقالَ: "هاءنذا، إنّكَ دَعَوتَني". فأدركَ عالي أنَّ الرَّبَّ هو الّذي يدعو الصَّبِيّ. فقالَ عالي لِصَموئيل: "إذهَبْ فنَمْ، وإن دَعاكَ أيضًا، فقُلْ: تَكلَّمْ، يا رَبّ، فإنَّ عَبدَكَ يَسمَعُ". فذَهَبَ صَموئيلُ ونامَ في مَكانِه. فجاءَ الرَّبُّ ووَقَفَ ودَعا كالمرّاتِ الأولى: "صَموئيل، صَموئيل" فقالَ صَموئيل: "تَكلَّمْ، فإنَّ عَبدَكَ يَسمَعُ"].

(1) شريكه، ص ص 17، 18. نجد في *البخاري*، تعبير 48، وصفاً آخر لعذابات جهنم.

(2) قارن: Dieterich, *Nekyia*, 174 ff, Weinel in Hennecke, *Neutestamentliche Apokryphen*, S. 212 ff.

(3) 26 A.

(4) تحرير هاوغ وفست (1872)، ص. 171. لكن فست *Grundriß der iranischen Philologie*, 2: 108، يقول إن الخط ليس قبل القرن السابع.

هذا العقاب؟ فقال لي سروش التقي وأتيرو المَلَك: هذه نَفْس امرأة تركت زوجها في العالم وأعطت ذاتها لرجل آخر واقترفت جريمة الزنا". وفي الحالتين السابقتين، نجد العذاب ذاته للذنب ذاته أساساً. كذلك فإن شريكه يفترض أن لقصّة الكؤوس الثلاث، التي تُعطى لمحمد، أصلاً إيرانياً[1]، حتى وإن بدا معناها في *الأرتا فيراف نامك* مختلفاً بالكامل.

لقد جرت العادة على المقابلة بين الإسراء، باعتباره الرحلة الليلية إلى أورشليم، والمعراج، باعتباره الرحلة إلى السماء. لكن هذا التمييز ليس فقط غريباً أصلاً على التقليد، الذي استخدم الإسراء أيضاً، كما أظهر شريكه[2]، بمعنى الرحلة إلى السماء، بل إنّ أقدم أعمال السيرة والحديث لا تستخدم معراج عموماً بمعنى "رحلة سماوية" أو "صعود"، بل تعرّف الكلمة على أنها ببساطة تعني "سلّماً". كذلك فأصحاب القواميس العرب لا يدرجون المعنى "صعود"، حيث تُستخدم الكلمة "عروج"؛ فالكلمة "معراج" لم تأخذ المعنى "رحلة سماوية" للمرة الأولى إلا في وقت متأخر[3]. المعراج هو مجرّد أداة للصعود، وهو ينتمي

---

(1) a. a. O. S. 18.

(2) a. a. O. S. 14

(3) في نص *ابن هشام*، 288، الذي يحمل عنوان "قصة المعراج وما شهد فيه من الآيات"، يوجد هذا المعنى. يورد *الحلبي*، 1: 374، موضحاً من *تفسير القرطبي*، يقال فيه: "قالوا أيا جبريل من هذا الذي معك؟ قال: هذا محمد رسول الله صلعم خاتم النبيين والمرسلين. قالوا: أوقد أرسل إليه، أي للمعراج، بناء على أنه كان في ==

إلى الرحلة السماوية مثلما ينتمي البراق أصلاً للرحلة إلى أورشليم[1] ؛ وفي وقت متأخر فقط، يستخدم هذا، أي البراق، لحمل الأنبياء إلى السماء. وفي حديث يتكرّر كثيراً، يظهر المعراج كسلّم والذي لا يصعد بوساطته الملائكة والأنبياء إلى السماء فحسب، بل تستخدمه أنفس الموتى أيضاً[2]. لكننا لا نعرف شيئاً عن مثل السلّم الذي يستخدمه الأموات من المصادر المسيحية واليهودية[3]، ويفان يقول[1]، إنه

ليلة الإسراء". قارن أيضاً: *المصدر ذاته* : "بناء على أن المعراج كان في ليلة الإسراء". في *كنز العمّال*، 6 : 96، يأخذ "المعراج" معنى "الرحلة السماوية". بالمقابل، يقال على سبيل المثال في *الحلبي*، 1 : 391 : "وقيل قد بعث إليه، أي، للإسراء والمعراج". يقول *المرجع ذاته*، 1 : 374 : "بعد رجوعه من المعراج" ؛ 1 : 375 : "بناء أنه صلّى قبل العروج".

(1) يقول بيفان، (a. a. O. S. 77) : "وظيفة البراق الصحيحة هي حمل النبي إلى أورشليم، لا إلى السماء".

(2) *ابن هشام*، 268، حيث يقول أبو سعيد الخدري: "سمعت رسول الله (صلعم)، يقول: لما فرغت مما كان في بيت المقدس، أتي بالمعراج، ولم أر شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمدّ إليه ميتكم عينه لما حضر. فأصعدني صاحبي فيه الخ". والحديث ذاته موجود عند الطبري، *تفسير*، 15 : 11، في موضع آخر، يقال في حديث ينسب إلى أبي سعيد (*المصدر السابق*، ص 15) : "ثم جيء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم، فإذا هو أحسن ما رأيت، ألم تر إلى الميت كيف يمدّ بصره إليه فعُرج بنا فيه الخ". قارن أيضاً: *القسطلاني*، 6 : 204.

(3) في *أبوكاليبس جاورجيس* (تحرير هاليفي Teezâza Sanbat)، ص 97، لا يقال بالنسبة لأنفس الأتقياء سوى أن الملاك يعرجو نفسو وستا سماي تي وداسه ويو سبحت.

بحسب التعاليم المندائية، فإنّ ثلاثة آلهة تقود الأموات إلى عالم القمر (فلك القمر) بوساطة "عمود الصبح"[2]. ويمكن بالفعل أن يكون هنالك ارتباط بين التصورين، رغم أنّ الحديث في إحدى الحالتين عن عمود، وفي الثانية عن سلّم. لكن شريكه[3] يفترض، أن السلّم الذي يذهب عليه محمّد إلى السماء، إنما أصله سلّم يعقوب[4]. ورغم أن القرآن يصمت عن يعقوب بالكامل[5] إلاّ أنّه يبدو محتملاً أن يكون محمد قد عرف سلّم يعقوب. ففي السورة 70 : 3 -4، حيث يتناول الحديث الله "ذي المعارج"، الذي "تعرج الملائكة والروح إليه"، نجد تلميحاً إلى ذلك السلّم الذي يوصف بالتعبير ذاته (معارج)، الذي

---

(1) a. a. O. S. 59.

(2) *الفهرست*، 335 وما بعد.

(3) a. a. O. S. 12.

(4) أنظر: سفر التكوين: ["وحَلَمَ حُلْمًا، فإذا سُلَّمٌ مُنْتَصِبٌ على الأرضِ ورأسُه يُلامِسُ السَّماء، وإذا ملائكةُ اللهِ صاعِدونَ نازِلونَ عليه، وإذا الربُّ واقِفٌ بِالقُربِ مِن يعقوب"] (28: 12 – 13). بقي أن نشير إلى أن موضوعة سلّم يعقوب، كانت الأساس لنص أبوكريفي يهودي مسيحي، حمل عنوان، *سلّم يعقوب*. وهذا النص موجود فقط في نسخة سلافية من القرون الوسطى، معرفة الآن باسم *Explanatory Palaia*. يقول الباحثون، إنه خلف بعض فصول الكتاب تكمن وثيقة يهودية، ترجع على الأرجح إلى القرن الأول قبل الميلاد؛ أما فصوله الأخرى، برأيهم، فهي عمل مسيحي كان مستقلاً ذات يوم، ثم ألحق بالنص.

(5) Geiger, a. a. O. S. 137 f; Grünbaum, *Neue Beitrage zur semistischen Sagenkundel*, 145.

يترجم به أيضاً *سفر اليوبيل الأثيوبي* (27 : 21) كلمة "سلّم" في النص العبراني (28 : 12) : (*وناهو معارج تكلت وسته مبدِ*)[1]. في الأثيوبية معرغ **ma'reg** (جمعها : *معارغ* **ma'areg**) وكذلك أيضاً *معراغ* **me'rag** (جمعها : *معراغات* **me'ragat**) والأخيرة تتطابق تماماً مع معارج العربية التي يشير فلهاوزن[2] إلى أنها كلمة مستعارة من الإثيوبية. لكن نولدكه اعترض على هذه الاستعارة على أساس أنه يصعب أن تكون *معراج* مستخدمة في أيام محمّد، إذ أنها ظهرت للمرة الأولى في زمن ما لاحقاً، وهكذا لا يبدو أنها كانت من أصل حبشي؛ كذلك فإن *معراغ* تعني "الموضع المرتفع" لكنها لا تعني "الصعود" بالمعنى المجرّد. بالنسبة للاعتراض الأول، فإن نولدكه ذاته يورد كلمات عربية، والتي ظهرت للمرة الأولى في الزمن بعد محمد، لكنه مع ذلك يشتقها من الحبشية. أما بالنسبة للمعنى المجرّد "صعود"، فكما رأينا سابقاً، فالكلمة العربية "معراج" لا تمتلكه أصلاً بأية حال. في حين أن

---

(1) بالمقابل، فالنسخة الإثيوبية للكتاب المقدّس تترجم سلّم الواردة في سفر التكوين (28 : 12) *بسفاسيف*.

(2) *Neue Beiträge zur semitischen Sperachwissenschaft*, S. 50 Anm. أيضاً فإن نولدكه لا يعرف سنداً ما قبل قرآني لعرج بمعنى صعد؛ وفي القرآن تستخدم رقي وصعد إلى جانب عرج. في الإثيوبية فإن معرغ **ma'reg** التي تدلّ على المفرد تعني **gradus** [درجة] أو **Scala** [درجة سلم - ميزان]؛ أما معارغ **ma'äreg** التي تدل على الجمع فهي تعني **Scala** [سلّم أو درج]. أنظر: ديلمان، فقرة عرغ.

ديلمان Dilamann لا يجعل المعنى يغطي *معرغ* *ma'reg* الأثيوبية فحسب، بل أيضاً *معراج* *ma'rag*. وهكذا، فوفقاً للتفسير السابق، يبدو لي مرجحاً جداً أن تكون *معارج* القرآنية مشتقة من *معارغ* *ma'reg* الأثيوبية واستخدامها في القرآن[1] يشير بالتالي إلى أن *معراج* كانت معروفة أيضاً في أيام محمد. وعلى أية حال، لا يوجد أدنى شك بأنّ هذه الأخيرة مشتقة أيضاً من الأثيوبية.

يتناول القرآن أيضاً مسألة تقدير ارتفاع السلّم السماوي، كما تظهر تتمة الآية القرآنية، حيث يقال إنه تعرج ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾. لكننا نجد في مواضع أخرى عبارات مشابهة: فبحسب أحد الآراء في *التلمود البابلي*[2]، يصل عرض السلّم السماوي إلى 8000 بارازنغه، لكن لا يذكر أيّ شيء عن ارتفاعه. كذلك نجد في موضع آخر[3] أنّ المسافة من الأرض حتى السماء الدنيا من السموات السبع تصل إلى 500 سنة، وامتداد كلّ سماء يساوي القدر ذاته، أمّا المسافة بين السماء والسماء الأخرى فتساوي 500 سنة، وهكذا فالمسافة من الأرض إلى السماء السابعة

---

(1) لقب مواز هو "*رفيع الدرجات*" والذي يطلق على الله في السورة 15 : 40.

(2) *حولين* أ ر ب.

(3) *بساحيم* 946 ؛ *حاغيغاه* 13 آ.

تساوي 1000 سنة ـ وإذا ما حسبنا المسافة حتى الأرض السابعة ـ تصبح المسافة من الأرض الأولى حتى السماء العليا[1] 14000 سنة. نجد عبارات مشابهة عند الفرس أيضاً[2]، لكن الحسابات تجري بالبارازنغه، وليس بالسنوات. وربما أن محمداً كان متأثراً هنا بالتقديرات اليهودية.

إن *الروح*، الذي هو بحسب السورة 70 : 4 يعرج إلى الله مع الملائكة، هو ذاته الذي بحسب السورة 78 : 38، يقوم صفّاً مع الملائكة في يوم القيامة، حيث لا يتكلّم منهم إلا من يأذن له الرحمن بذلك، وفي السورة 97 : 2، ينزل الروح مع الملائكة في ليلة القدر. وأمّا بحسب السورة 16 : 2 فينزل الملائكة بالروح من أمر الله على من يشاء. وفي الموضع الأخير يسمّى الروح على نحو محدّد "روح من أمرنا". كذلك أيضاً، ففي السورة 40 : 15، حيث يقال عن الله، إنه "رفيع الدرجات"، فالروح يُلقى من أمره على من يشاء من عباده، في حين أن

---

(1) قارن: الطبري، تفسير، 29 : 31 : "في مقدار صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين ألف سنة، وذلك أنها تصعد من منتهى [أمره] من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره من فوق السماوات السبع".

(2) بحسب *الفنديداد*، 19 : 107 : 121، نجد موضع سكن الأهورامازدا، المدعو غرون مارا، على بعد 24000 X 24 بارازنغه فوق الأرض؛ قارن أيضاً: Lidzbarski, *Das Johannesbuch der Mandäer*, S. 8, Anm 5. وبحسب *حاغيغاه*، 13 ب، نجد أن الملاك سندلفون يرتفع عن رفاقه بخمسمئة سنة ويصل إلى الحيوت [רייוח: روح] بشأن امتداد قبّة السماء، أنظر أيضاً: *أبوكاليبس باروخ اليونانية*، 2، 3، 4.

"روحاً من أمرنا"، ينزل على محمد، بحسب السورة 42 : 52. كذلك ففي السورة 17 : 85 يُجَاب على السؤال القائل، "ما هو الروح"، في أمر يأتي من الله مفاده؛ "الروح من أمر ربّي"[1]. وهكذا فالروح يأتي من أمر الله، وهذا الأمر، بحسب المواضع المتبقية، هو أحد الأقانيم الإلهية، التي يؤثر الله في العالم عبرها. وكما هو الحال بالنسبة للتقديرات المتعلقة بالأقانيم الإلهية، فإن محمداً يمكن أن يكون اعتمد على التصورات القديمة. تبدو المسألة واضحة دون صعوبات بالنسبة *للروح*، فهو الروح ها -قوديش רוח הקודש العبرية، أو الروحا د قدسا الآرامية؛ أما بالنسبة لمصطلح *أمر*، فقد حاول غريمّه Grimme أن يبرهن[2] أنّ أصله من جنوب شبه جزيرة العرب، فهو يساوي كلمة "أمر" التي تقدّمها لنا نقوش جنوب شبه جزيرة العرب، *والأمر* هذا الموجود في تلك النقوش يعني *اللوغوس* الذي ينبثق من آلهة مختلفة. وهو يرى أن المسألة غير ذات صلة هنا، على الأرجح، باللوغوس المسيحي، لأنّ هذا متمثّل في السورة 3 : 40 والسورة 4 : 169 عبر مصطلح "كلمة الله"، وأضعف من ذلك احتمالية أن يكون *أمر* جنوب شبه جزيرة العرب استعارة من ميمرا מימרה [قول، مثل، عبارة] التي

---

(1) وفقاً لتخمين ريسلس Ryssels، الذي يقرأ في *أبوكاليبس باروخ السريانية*، 214، [يمانو] بدل [يمانه]، فتكون بالتالي في هذه الآية "الروح" و"الكلمة" تذكران الواحدة بجانب الأخرى.

(2) *Orientalische Studien*, I S. 453 ff.

ترجع فقط إلى *الترغوم أنوكلوس* وتوجد أيضاً في التقليد المتأخر الذي لم يكن بعد مألوفاً. لكن لا يُمكن أن يُقَال بأية حال، إنّ هذه الكلمة كانت منسية زمن محمّد في محيطه اليهودي، فقد كان *الترغوم* لأسفار العهد القديم الخمسة الأولى Peutateuch يُقرأ منذ القدم عموماً بجانب النص العبراني[1]؛ ولا بد أن نذكر هنا، بالمناسبة، إضافة إلى ما سبق، أنّ كلمة ديبير العبرانية التي تعني دبور דבור [حديث، كلام، قول] المعنى ذاته الذي تمتلكه *ممرا* عادة[2].

ودون دخول في نقاش ما إذا كانت "أمر" جنوب شبه الجزيرة العربية تأخذ المعنى الذي أعطاه إياها غريمه أم لا، وكذلك في مسألة الأصل المباشر "لأمر" القرآنية عموماً، أريد أن أساوي، بأية حال، بين هذه الأخيرة وميمرا الترغومية، التي يبدو أن *أمر* جنوب شبه الجزيرة كانت مشتقة منها، في حال أنها كانت تحمل المعنى ذاته الذي أعطاها إياه غريمه. إذ يبدو لي أن محمداً كان متآلفاً مع التعبير *ممرا*، وهذا يرجع

---

(1) قارن: *بيراخوت* 8آ: לעולם ישלים ארם פרשותיו עם הצבור כונים מקרא ואהר תרגום: دائماً يأخذ ابن آدم التفاسير على مرّ السنين فيدرس التوراة ومن بعدها الترغوم.

(2) أنظر البرهان الذي يقدّمه كلّ من Bacher, *Exegetische*; Dalman, *Worte Jesu* *Terminologie* I, 118\9. في السريانية والفلسطينية -المسيحية تعطى (ملتو) مقابل λογος (لوغوس)، وهي تترجم بكلمة العربية. أما في الإثيوبية لتترجم λογος (لوغوس) بلفظة *قال qal*.

إلى سبب يقول على نحو خاص، إنه، وذلك معروف منذ زمن بعيد[1]، لم يستعمل فقط كلمة شكينا (أي العبرية שכינה [شكينا: الألوهية، وحي إلهي، الروح القدس، الله])، المرتبطة بالتعبير *ممرا*، وذلك عبر الصيغة العربية سكينة، بل استخدم أيضاً، وفق حدود اعتقادي، إلى جانب *ممرا* و*شكينا*، التعبير الثالث الذي كان مألوفاً في *الأنكلوس ترغوم*، كاسم لله، ألا وهو *يقار* יקר [غال، ثمين، عزيز]؛ إذ يبدو لي، أنّ مصطلح *وقار* الذي يرد في السورة 71: 21، والذي يعتبره كثيرٌ من المفسّرين أنه يعني "عظمة"، إنما هو استعارة من *يقار* العبرية[2].

المعراج هو مجرّد واسطة، يصل المرء بمساعدتها إلى السماء، وهو يختلف عن البراق، الذي يبدو أن وظيفته الأصلية، كانت العمل كدابة

---

(1) أنظر: Goldzieher, *Abhandlungen*, 1: 179 ff

(2) كما يشير دلّمان، في المرجع المشار إليه آنفاً، نجد التعابير الثلاثة عند يوحنا 1: 14
[και ο λογος σαρξ εγενετο και εσκηνωσεν εν ημιν και εθεασαμεθα
την δοξαν αυτου δοξαν ως μονογενους παρα πατρος πληρης χαριτος
και αληθειας: والكَلِمةُ صار بَشرا فسكَن بِيننا فرأينا مجدَه مجداً مِن لَدن الآبِ لابنٍ وَحيد مِلؤُه النِّعمَةُ والحَقّ.]، حيث تتطابق λογος [لوغوس: كلمةَ] مع ميمرا؛ وترمز εσκηνωσεν [اسكينوسين: سكن بيننا] إلى الشكنا؛ أما δόξα [مجد] فتساوي *يقار*. – من أجل وقار وسكينة في النصوص العربية المتأخرة، أنظر: .Goldziher, a. a. O. 186 ff

للركوب فوق الأرض[1] ، لكنها عرفت نوعاً من التوسيع منذ وقت مبكر. ومنذ مقالة بلوشيه Blochet[2] ، تبنَى كثيرون تلك الفكرة القائلة ، إن البراق ، الاسم والتصوّر على حد سواء ، هو من أصل إيراني ؛ لكن هذا الزعم لا يخلو من التناقض. فقد تذمر بوسيه Bousset[3] من مسألة الاشتقاق المباشر عن الإيرانية ، ثم رمى شريكه[4] بعده بشكوكه حول التفسير الإيتمولوجي للتعبير. لقد انطلق بلوشيه من أحد المواضع في *المعراج نامه* الإيغورشيه ، المترجمة عن الفارسية ، والتي يوصف فيها البراق بأنه "أصغر من البغل ، لكنه أكبر من الحمار"[5] ، ثم يضاف بعد ذلك ، بأن "وجهه يشبه وجه كائن بشري". مع هذا الوصف تتطابق أيضاً إحدى المنمنمات على نصٍ

(1) أنظر النص المذكور آنفاً ، ص 175. يبدو واضحاً عند *ابن هشام* ، 263 ، *وابن سعد* ، أن البراق يستخدم لأجل الرحلة إلى القدس. يقول *القسطلاني* بصريح العبارة : (5 : 264) : "وليس صعوده إلى السماء كان على البراق ، بل نصب له المعراج فرقى عليه". مثل ذلك نجده عند *الحلبي* ، 1 : 341 ، حيث يقول ابن كثير : "لم يكن صعوده على البراق كما توهمه بعض الناس". بالمقابل ، فبحسب الطبري ، *تفسير* ، 15 : 12 ، *والحلبي* ، 406 ، يركل الأنبياء البراق نحو السماء أيضاً. من أجل وسائل الصعود المختلفة ؛ أنظر أيضاً : Dieterich, *Mithrasliturgie*, 138 f.

(2) RHR. XL. S. 1 ff., 204 ff.

(3) ARW. IV. S. 250

(4) a. a. O. S. 12

(5) a. a. O. S. 3

مكتوب باليد *للمعراج نامه* الإيغورشيه[1]، والتي تُظهر النبي يركب البراق الذي له رأس بشري. للبراق هنا وجه امرأة، لكن بالمناسبة، وكما يقول بلوشيه، فإنّ الراكب ودابة الركوب في المنمنمة، يُظهران تشابهاً كبيراً مع الشخوص الموجودة على الفازات الساسانية، التي تُظهر، بحسب بلوشيه، أهريمان يركب تهموراط، والتي هي أقدم منها بنحو من ألف سنة. لكننا لن نناقش هنا صِحّة هذا التفسير ولا درجة التشابه بين الوصفين أيضاً. وإذا ما افترضنا أنّ بلوشيه كان محقّاً في المسألتين، يبرز بالتالي السؤال الذي يقول، ما إذا كان الوصف في *المعراج نامه* المتأخرة يتوافق مع ما تقوله أقدم المصادر الإسلامية. لكنّ الأمر ليس كذلك في هذه المسألة الحاسمة؛ فنحن لا نعرف أيّ شيء عن الوجه البشري للبراق. ففي حديث يُسند إلى عبد الله بن مسعود (*ابن هشام* 263)، لا يقال عن البراق، غير أنّه حيوان، كان موكلاً بحمل الأنبياء قبل محمّد؛ وفي حديث ينسب لأبي هريرة، يوصف بأنه "حصان"[2]؛ وفي ثالث ينسب إلى مالك بن صعصعة[3]، يوصف بأنه "دابة بيضاء، أصغر من البغل، وأكبر من الحمار"، وهو وصف يُرجع إليه غالباً، كما يُضاف إليه في مواضع عديدة: "له جناحان على فخذيه

(1) a. a. O. S. 206 ff

(2) الطبري، *تفسير* 15 : 5.

(3) *البخاري*، باب الخلق، 6؛ الطبري، *تفسير* 3 : 15.

يسرّع بهما خطواته"[1]. وكما يبدو لي، فإنّ الثعالبي[2] (مات عام 427 هـ) هو أوّل من أورد حديثاً نسبه لابن عباس، يقال فيه إن للبراق "خداً كخد الإنسان" ومع أننا لا نعرف بوجود هذا التصوّر إلا منذ القرن الخامس، إلا أنه صار شعبياً، وهو ما تظهره الصورة عند هيركلوتس[3] Herocklotos. وسواء أكانت الصّور المُتصوّرة للبراق غير مستقلة عن تلك المشاهد الموجودة على الفازات الساسانية أم لا، فالأمر لا يهمّنا، لأنه لا يمكن البرهان على أي أصل إيراني لأقدم التصورات للبراق.

وكما رأينا سابقاً، فإن أقدم التقاليد يعتبر أنّ البراق استخدم أيضاً كحيوان ركوب للأنبياء السابقين، والذين كان يسوع[4] آخر من ركبه منهم، قبل محمّد. وفي قصص الأنبياء يلعب البراق دوراً خاصاً[5] كدابة

(1) *ابن هشام*، 264؛ *ابن سعد* 1: 1: 143.

(2) أنظر: الحلبي، 1: 370: "وعند الثعلبي بسند ضعيف بسند ضعيف من حديث ابن عبّاس لها خدّ كخدّ الإنسان وعرق كالفرس الخ". وفي النص ذاته، يقال: "في كلام بعضهم". قارن أيضاً: Wolf, *Muhammedanische Escatologie*, S. 57.

(3) *Qanoone Islam*, 122.

قارن: Jacobs Bemezkang, *Hilfsbuch für Vorlesungen über das Osmanische-Türkische*, iii, s. 24

(4) أنظر: ديار بكري، خميس 1: 349.

(5) أنظر: Schrieke, a. a. O. S. 13.

==

لإبراهيم، والذي هو بحسب سفر التكوين 22 : 3[1]، كان يركب حماراً. وهذا الحمار، بحسب احد النصوص المدراشية[2]، هو ذاته

يقول الطبري، *تفسير*: "وهي دابّة إبراهيم الذي كان يزور عليها البيت الحرام"؛ ويقول الثعالبي، *قصص* 63: "ثم أنّ إبراهيم (ع) استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها، فأذنت له، واشترطت عليه أن لا ينزل. فقدم إبراهيم (ع) مكّة وقد ماتت هاجر؛ ويقال إنه قدمها راكباً البراق. وقد تنازع الناس على أي شيء كان ركوبه، فمنهم من قال: راكباً على البراق؛ ومنهم من قال: على أتان؛ وقيل غير ذلك من الحيوان".

قارن: *الحلبي*، 1 : 369: [يعرف عجاج أيضاً أن البراق دابة لإبراهيم؛ 35 : 48 – 52؛ تحرير Ahlwardt].

(1) ["فبَكَّرَ إبراهيمُ في الصَّباح وشَدَّ على حِمارِه وأَخَذَ معَه ٱثنَين مِن خَدَمِه وإِسحقَ ٱبنَه"].

(2) *برقه د. ح. العيزر*، الفصل 31: בשכים אברהם בבקר ולקח את ישמעאל ואת אליעזר ואת יצחק בנו עמו, וחבש את החמור, הוא שרכב עליו אברהם, הוא החמור בן האתון שנבראת בין השמשות, שנ' וישכם אברהם בבקר, הוא החמור שרכב עליו משה בבאו למצרים, שנ' ויקח משה את אשתו ואת בניו וירכיבם על החמור, הוא החמור שעתיד בן דוד לרכוב עליו, שנאמר (זכריה ט, ט) עָנִי וְרֹכֵב עַל חֲמוֹר [בת ציון ונו]: بكّر إبراهيم بالقطيع وأخذ إسماعيل واليعيزر عبده وإسحاق ابنه، وسرج الحمار، وهو حمار ابن أتان مخلوق عند الغسق. ويبكّر إبراهيم بالقطيع ويسرج حماره، وهو حمار موسى عند عودته من مصر، ويأخذ موسى امرأته وأبناءه الخ. شيء مشابه نجده في *يلقوط لسفر زكريا* 9، رقم 575، وإذا كان الاثنان مؤلفيْن متأخرين، غلا أنه ليس من المستبعد إطلاقاً، أن تكون الباغاداه أقدم بكثير.
==

الذي ركبه موسى بحسب سفر الخروج 4 : 20[1] وكذلك صفورة، وأبناء موسى؛ والذي سيركبه المشيح [المسيح] أيضاً[2]، بحسب سفر زكريا 9 : 9[3].

إذاً، لدينا هنا، كما هي الحال في التقليد الإسلامي، حيوان، يستخدمه كلّ رجال الله، واحد بعد الآخر، ومن هنا يأتي تفسير العرب لتلك الملاحظة الملفتة للنظر، بأنه لابد أن محمداً والأنبياء الذين جاءوا قبله ركبوا حماراً أو بغلاً[4]. ونحن نعرف من أحد النصوص، أنّ حمار المسيا كان موضع سخرية شاهبور الأوّل الساساني، الذي

بشان فم الحمار، قارن: *أبوت* 9 : 5. [يختلف النص الذي بين أيدينا عن نص هورفيتس. الكلمات بين قوسين من عند الكاتب الألماني. مترجم عربي].

(1) ["فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهما على الحمار"].

(2) بحسب أحد الآراء المتأخرة، فإنّ محمداً أيضاً سيمتطي البراق في يوم القيامة. أنظر: Wolf, *Eschatologie*, S. 101f.

(3) [גִּילִי מְאֹד בַּת־צִיּוֹן הָרִיעִי בַּת יְרוּשָׁלִַם הִנֵּה מַלְכֵּךְ יָבוֹא לָךְ צַדִּיק וְנוֹשָׁע הוּא עָנִי וְרֹכֵב עַל־חֲמוֹר וְעַל־עַיִר בֶּן־אֲתֹנוֹת: اِبتَهِجي جِداً يا بِنتَ صِهْيون واَهتِفي يا بنتَ أُورَشَليم هُوَذا مَلِكُكِ آتِياً إِلَيكِ باراً مُخَلِّصاً وَضيعاً راكِباً على حمارٍ وعلى جَحشٍ آبنِ أتان.]

(4) قارن: ابن قتيبة، *كتاب الشعر*، تحرير de Goeje، ص 162 وما بعد: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب الأقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر... أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة أو البعير".

قال في حوارية له مع صموئيل، رئيس أكاديمية نهارديا اليهودية[1]: "أنتم تقولون، إنّ المسيا سوف يأتي على حمار؛ لكنني سأهديك من عندي حصاناً سريعاً كالبرق". وعلى كلام الملك هذا، أجاب أحدهم بالقول: "وهل لديك حمار، يلمع بألف لون؟". هذا يعني بالتالي، أن الحمار الذي سيركبه المسيّا، غير موجود في اسطبلك. وقد يكون التقليد الإسلامي استاء أيضاً من ذلك الوصف الصريح للبراق على أنه حمار، لذلك قال عنه، "إنه كان أكبر من الحمار وأصغر من البغل". مع ذلك، فالتقليد الإسلامي لم يكن قادراً على التخلّص من التصوّر القديم للحمار كدابة للأنبياء[2]، وكان عليه أن يقبل، أنّه حين لا

---

(1) *سانهدرين* 98 ب: [אמר ליה שבור מלכא לשמואל אמריתו משיח על חמרא אתי אישדר ליה סוסיא ברקא דאית לי אמר ליה מי אית לך בר חיור גווני: قال شابور الملك لشموئيل، تقولون المشيح [يأتي] على حمار لكني أهديك حصاناً [סוסיא סוס [سوس] : حصان بالعربية] بسرعة البرق [ברקא: برقا؛ ברק: برق، برق] من عندي. فقال له: من أين لك *خر هزار غونه* (كلمات فارسية)"؛ من أجل ברקא، أنظر القسم الأخير من المقالة. أما الكلمات الأخيرة الثلاث فهي بالفارسية: "*خر هزار غونه*".

في *ملل* ابن حزم، ص 182 وما بعد، انتظر المجوس ظهور بهرام هاوند، الذي سيأتي راكباً بقرة في حين أن يهافريد سوف يذهب إلى السماء على جواد بني غامق؛ أنظر: Friedländer in DQR II: 500.

(2) قارن أيضاً: ابن سعد 1 : 176 : "كانت الأنبياء يلبسون الصوف ويحلبون الشاء ويركبون الحمر، وكان لرسول الله حمار يقال له عفير". وربما أن إنجيل متى (21: 1 – 9) [ولمّا قرُبوا من أُورشَليم، ووصَلوا إلى بيتَ فاجي عندَ جبلِ الزيتون، حينئذٍ
==

يكون البراق حماراً في الأساس، فلا بد بالتالي أن يكون شيئاً يشبهه، وبما أنه تولّى وظيفة نقل الأنبياء إلى السماء، فقد عزوا له أجنحة؛ وبذلك أصبح يشبه تلك الكائنات المجنحة، التي يصوّرها لنا الفن البابلي؛ وفي نهاية الأمر، وإن بعد ذلك بعدة قرون، انتحل أيضاً، مثل تلك الكائنات، وجهاً بشرياً[1].

أرسلَ يسوعُ تلميذَين. وقالَ لهما: (اذهَبا إلى القَريةِ الَّتي تُجاهَكُما، تَجِدا أتاناً مَربوطةً وجحشاً معها، فحُلّا رِباطَها وأْتِياني بهِما.
فإن قالَ لكما قائلٌ شيئاً، فأَجيبا: (الرَّبُّ مُحتاجٌ إليهما). فيُرسِلُهما لوَقتِه). وإنَّما حدَثَ هذا ليَتِمَّ ما قيلَ على لِسانِ النَّبيّ: (قولوا لِبنتِ صِهيون: هُوَذا مَلِكُكِ آتياً إليكِ وَديعاً راكِباً على أتانٍ وجَحشٍ ابنِ دابَّة). فذهَبَ التِّلميذانِ وفعلا كما أمرَهما يسوع وأتَيا بالأتانِ والجحشِ. ثُمَّ وضَعا علَيهِما رِداءَيهِما، فركِبَ يسوع. وكانَ مِنَ النَّاسِ جمعٌ كثير، فبسَطوا أرديَتَهم على الطَّريق، وقطَعَ غيرُهم أغصانَ الشَّجرِ، ففرَشوا بِها الطَّريق. وكانتِ الجُموعُ الَّتي تَتقدَّمُه والَّتي تَتبَعُه تَهتِف: (هُوشعْنا لابنِ داود! تَبارَكَ الآتي بِاسمِ الرَّبّ! هُوشعْنا في العُلى !) ترك هنا أيضاً أثراً مباشراً، حيث يأتي يسوع إلى أورشليم ممتطياً حمارا، ومثله محمد على البراق] ترك هنا أيضاً أثراً مباشراً، حيث يأتي يسوع إلى أورشليم ممتطياً حماراً. ومثله محمد على البراق.

(1) تطوّر مشابه عرفته دابّة أخرى للنبي، لكنها هذه المرّة تاريخية؛ هي البغلة دلدل، التي أهداها له المقوقس، والتي هي الأولى من نوعها في جزيرة العرب؛ أنظر: الطبري. تاريخ، 1: 782؛ ابن سعد، 11: 175. سوف يستخدمها لاحقاً علي في حربه على الخوارج (النووي، تهريب، 46)؛ وبحسب التقليد الشيعي، فقد ركبها الحسين في كربلاء. (أنظر: Mrs. Meer Hasan Ali, *Observations on the Mussulmauns of India*, London 1832, I. S. 68). وهكذا فهي تمتلك موقعها في موكب محرّم الهندي حيث تصوّر هناك بأنها تمتلك وجهاً بشرياً (أنظر: Th. Bloch ==

أما بالنسبة لأصل الاسم براق، فكما يشير بلوشيه[1]، نجد أن أهريمان في النسخة البازندية *للمباينو إي كيراد*، يدعى بار Bär التاموراث، أما في الخطين البهلويين فيسمى بارك bärak (أي *بارك* التاموراث). ومن هذه البارك، برأي بلوشيه، التي اشتقت منها اللفظة الفارسية الجديدة *بارا* *bärä* والتي تعني الدابة، لابدّ أن البراق جاء إلى الوجود. لكن لو كانت *بارك* اسم علم أو اسماً لحيوان بعينه يشبه البراق، لكان من الممكن أن نأخذ بعين الاعتبار اشتقاقاً كهذا، رغم الصعوبات الصوتية التي تعترض سبيله. مع ذلك، فمنذ البداية تبدو احتمالية أن يقوم العرب باستعارة من الفرس كي يحصلوا على اسم لدابة، ضعيفة جداً، وأضعف منها ذلك الرأي القائل إنه كان عليهم أن يستخدموا كلمة فارسية ذات معنى لا لون له كاسم لحيوان ذي خصوصية معينة كالبراق. وإلى ذلك كلّه نضيف، أن التبديل اللفظي المتبنى لم يجرِ شرحه[2]. إن اللفظة الفارسية الوسيطة *بارغ* *bärag*، التي

---

in *ZDMG*. 63. S. 655- 656، في أن شخص الدلدل لم يكن وثناً قط، وأنه على ما يبدو استخدم *البراق* كأمثولة).

(1) a. a. O. S. 213.

(2) الدكتور عبد الستار صديقي، الذي بحث في الكلمات المستعارة من الفارسية في العربية القديمة، قال مثلي، إنه فقط في العهد الإسلامي تمت التبديلات اللفظية القوية في قبول الكلمات الفارسية، حيث تم التوصّل أثناء ذلك إلى نوع من التقريب مع التركيب العربي *(الحاق)*. شيء كهذا قد يكون حوّل *بارَك* إلى *بارق* *(فاعل)*.

يرغب بلوشيه أن يشتق منها الاسم براق، تذكر ربما في الأصل في كلمات شاهبور الأول المذكور آنفاً، وبحسب إحدى النسخ نجد أنه يقدّم *سوسيا بارغ* *susjä bärag*[1] (بدل المصطلح المقبول *سوسيا بركا* *susja bargä* الموجود في التحرير للنص الذي بين ايدينا) كي يستخدمها المسيح. لكن فلايشر[2] يفهم من *بارغ* *bärag* الفارسية الوسيطة على أنها اسم تابع *لسوسيا*، وعلى ذلك يصبح التعبير، "حصان كدابة"؛ ولاشيء ملفت للنظر في فم الساساني في حديث منقول نصفه آرامي ونصفه الآخر فارسي. لكن سواء أكانت الكلمة في النسخة الأصلية *بارغ* أم لم تكن، فنحن متأكدون، على أنها في موضع[3] آخر تطلق بالآرامية، كصفة مشتقة من *برق* *beraq*، على دابة ما، وتفسرّ بمعنى "بيضاء مضيئة". هذا النوع من التشابه الجزئي مع الآرامية يجعل من المرجح جداً أن تكون التسمية براق مشتقة من الكلمة العربية بَرَقَ. فاللغة العربية تعرف تسميات كثيرة مشتقة من الجذر ب ر

---

(1) أنظر شرح راشي *للعبودا زارا*، فقرة מי באר״ן.

(2) أنظر: Levi, *Neuhebräisches Wörterbuch*, S.284

(3) *بابا بترا* 16 ب: ["ורכביה יותדי ריבם ברק"]: ["اركب من بعد فرس برقا"] حيث توضح الكلمة بعبارة סמון חורין [مهر مبيضّ اللون]؛ ومثله أيضاً في *قدوشين* في التلمود الأورشليمي 600؛ بالمقابل، لا توجد هذه الصفة في موضع مشابه في *بابا بترا* 152.

ق، مثل: بارق، بريّق، أبارق، تبارق، برقه[1]. وقد برهن فلهاوزن[2] أنه ليس من النادر أن تنوب صيغة التصغير فعال على تلك الأكثر تداولاً فعيل. وهكذا، دعونا نعتبر أن ما تعنيه براق هو صيغة تصغير لبرق وهي تماثل مع اسم العلم بريق. ومن الممكن أن هذا الحيوان العجائبي أخذ اسمه "البرق الصغير"، بسبب سرعته أو بسبب لونه اللامع[3].

(1) قارن: Skizzend und Vorarbeiten, VI: 250؛ Brocklmann, Vergleichende Grammatik I: 351.

(2) أنظر: *ديوان الهذيل*، رقم 165 (فلهاوزن، *المصدر السابق*، 1: 20).

(3) قارن: الدميري عند الديار بكري؛ خميس 1: 349: "وقيل سمّي براقاً لنصوع لونه وشدّة بريقه وقيل لسرعة حركته. هنالك حديث أيضاً في *Logia Chaldacia* (أنظر: بوسيه ARW 4: 266) عن "جواد ناريّ، براق" يستقبل الأنفس الصاعدة. بالنسبة لايتمولوجيا براق، قارن أيضاً: يفان، المصدر السابق، ص 59، الذي يشرح، على أية أسس التفسير كصفة للصيغة فعال (أنظر: Barth, *Nominalbildung*, S. 40) هو غير محتمل.

الحقيقة أم الصورة الذاتية عن الحقيقة: كيف نفهم التاريخ ؟

مما لا شك فيه أننا لم نصل حتى الآن عموما إلى الدرجة الدنيا في صيرورة التعامل العلمي مع التاريخ فما يزال التعامل مع التاريخ عندنا، محكوم بعواطف الكاتب وأهوائه، يساعده في ذلك أن المؤرخين الأوائل -وهم أكثر موضوعية من تاريخيينا المعاصرين عموما- جمعوا الصالح والطالح، الإيجابي والسلبي، الموثوق والمطعون بصحته، وهكذا ، فباستطاعة أحدهم، باستخدام النصوص التاريخية، أن يصل بأحد الرموز المؤثنة "إلى درجة أنه يجعل الإله يكرر خلفه بعض كلماته، في حين يستطيع آخر، من موقف مخالف، باستخدام تلك النصوص ذاتها، أن يحطم "الوثن" ويرمي بأشلائه في كل مكان.

التوثين هو مشكلة التاريخ العربي - الإسلامي؛ ودراسة التاريخ علميا، تتنافى بالكامل مع مقولة التوثين هذه. فلا بد لمن يريد أن يكتب في موضوعة التاريخ، أن يكتب كملاحظ خارجي، بمعنى أن لا يقحم دواخله في النص، وينسى عواطفه عند التعامل مع أي حدث أو شخص تاريخيين، مهما ارتفعت سوية "التوثين" عنده.

التاريخ كعلم، يعني تفسير التطورات التاريخية دون الإشارة إلى تدخل ما فوق طبيعي. فالتاريخ كعلم، على سبيل المثال، لا يستطيع تفسير ظهور اليهودية بالإشارة إلى قرار تتخذه الآلهة بإرسال نبي اسمه موسى ، حتى لو كان الباحث يهوديا؛ كما لا يستطيع أن يصف التوراة على أنها كلام الإله، حتى لو كان الباحث ذاته يؤمن بذلك. وحين يفعل هذا، يصنف عمله تحت عنوان، " لاهوت " أو " تبشير ديني " - لكنه ليس علم تاريخ أبدا.

إن كل ما يستطيعه الباحث في التاريخ كعلم هو تفسير الأشياء بالإشارة إلى واقعة أن اليهود يعتقدون بأن الإله أرسل موسى أو أن التوراة هي كلمة الإله - وهذا ما يدعى بالحقائق التجريبية. لكن التاريخ كعلم لا يهمه ما إذا كان اليهود محقين في اعتقاداتهم تلك أم لا.

فلا أحد عمليا باستطاعته أن يقرر ما إذا كانوا محقين فعلا، لأنها من جهة مسألة إيمان أولا وأخيرا، ومن جهة أخرى، فالموضوع غير ذي أهمية للتاريخ كعلم: اليهودية ظهرت لأن اليهود (نظريا على الأقل) آمنوا بشخص اسمه موسى، تماما مثلما أن البوذية ظهرت لأن أتباع بوذا اعتقدوا أن بوذا وجد الحقيقة. وسواء أكانت اعتقاداتهم صحيحة في منظورنا أم خاطئة؛ فالأمر لا يهم في مسألة إعادة بناء التاريخ : قناعاتنا ليست عنصرة في التطورات التي نحاول تفسيرها. التاريخ يخص الماضي، لا يخصنا.

يعمل علم التاريخ هذه الأيام، في الدول المتحضرة، على القواعد ذاتها التي تعمل عليها العلوم الطبيعية: يجب تفسير كل شيء بلغة المعطيات التجريبية من الأنموذج الذي يمكن اختباره ، تثبيته، أو دحضه، وذلك بالإشارة إلى معطيات تجريبية أخرى، وليس بلغة القناعات التي ترتكز على الاعتقاد. وقد أثبتت هذه المقاربة قوة كبيرة في حقل العلوم (كما يعرف الجميع من التكنولوجيا الحديثة) ولا بد بالتالي من انتشارها في دراسة التاريخ كعلم أيضا. إن ما يفترض في دراسة التاريخ كعلم هو أن نكون حرة القيمة. وهذا معناه أن يحاول الباحث التاريخي دائما تفسير الاعتقادات والسلوكات القديمة بلغة المجتمعات القديمة ومنظومات القيم القديمة، وليس بلغة القناعات الحديثة؛ فعلى سبيل المثال ، عليه أن يحاول فهم نبي الإسلام محمد كشخص من الماضي عاش في مجتمع مختلف بالكامل عن مجتمعنا، واستجاب لعناصر خاصة بذلك الزمن، وعمل على أسس من فرضيات اختفت منذ زمن طويل؛ لكنه حين يقدم محمدا كأنموذج أزلي فوق تبدلات الزمن والتاريخ، فسوف يصنف عمله على أنه " تبشيرديني " وليس علم تاريخ. أما حين يقدم محمدا كاشتراكي أو ليبرالي أو ديمقراطي أو ما شابه، لأنه هو ذاته يؤمن بصحة الاشتراكية أو الليبرالية أو الديمقراطية أو ما شابه، فسوف يصنف عمله تحت عنوان " الدفاعيات " ، لكنه ليس علم تاريخ. التاريخ هو محاولة لإعادة بناء العوالم المفقودة ، وتفسير التطورات الماضية؛ لكنه ليس محاولة التشريع الحاضر.

يتوفر الكتاب في معرض العراق الدولي للكتاب





1991ZMZ21